

مجموعة القصص القصيرة

إي. إم. فورستر

- ♦ المؤلف: إي. إم. فورستر
- ♦ العنوان: مجموعة القصص القصيرة
- ♦ ترجمة: مجد الدين حفني ناصف
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2018
- ♦ تصميم الغلاف: حسام السواح
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشبخ
- ♦ المحرر: طارق هاشم
- Author : E.M. Forster
- Title: Collected Short Stories
- Translated by: Magd-deen Hefny Nasf
- Afaq's first edition: 2018
- Cover Design by: Hosam Al Sawah
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Manager: Mostafa Alsheikh
- Editor: Tarek Hashim



رقم الإيداع:

٢٠١٧ / ١٧٦٨٠

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977-765 - 125 - 7

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - ٠٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

إي. إم. فورستر

مجموعة القصص القصيرة

ترجمة

مجد الدين حفني ناصف

مراجعة

علي أدهم

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

فورستر، إي.إم.
مجموعة القصص القصيرة - ترجمة: مجد الدين حفني ناصف
ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2018
320 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 17680 / 2017
الترقيم الدولي 7 - 125 - 765 - 977 - 978
1 - الأدباء (روايات)
2 - فورستر، إي.إم.

هذه ترجمة كتاب

Collected Short Stories

تأليف

E.M. Forster

تعريف بالكاتب والكتاب

إي. إم. فورستر قصصيّ، كان شديد الانزواء، دوى صيته وذاع وملاً الأسماع بعدما نشر له عدد قليل جداً من الكتب.

ولا عجب، فقصته «رحلة إلى الهند» - على حد قول لووس دكنسن - «كتاب خالد عن الحقيقية التاريخية والحياة التي يسمونها الهند». وفورستر، إلى هذا، لم يقدم لنا غير القليل من الروايات القصصية والديباجات وغير كتاب - ملؤه الحكمة والفتنة - عن «مقومات القصة» وغير بعض رسائل نشرتها له المجلات في شتى المناسبات.

ولعل شخصية فورستر قد أسهمت - أكثر مما أسهم قصصه - في أن جمهوره لا يني عن ذكره، وقد يكون عجباً من العجب أن ينسى القراء هذا «الكاتب الذي بات رصيذاً من أرصدة بريطانيا، والذي يوشك أن يصبح مفخرة من مفاخرها».

ولا غرو فهو من المنشئين القليلين الذين يحرص القراء على كتبهم ويستعيدون قراءتها، لا للمتعة فحسب، بل كذلك للحكم الماثورة التي تتدافع على صفحاتها وللفلسفة الإنسانية الرفيقة التي تبين عنها.

وإن قصة «أكمة ديفي» التي طبعت في سنة ١٩٥٣م لتصور لنا المنظر الخلفي لكتابه «الطريق إلى الهند».

وهذه هي المجموعة الكاملة غير المختصة من القصص القصير الذي نحا به فورستر منحى خاصاً والتي أصدرتها «البنجوين» في سنة ١٩٤٧م.

نشر هذا القصص القصير جميعه قبل الحرب العالمية الأولى، ثم جمع في كتابين: «الأمينيوس السماوي» سنة ١٩١١م و«اللحظة السرمدية» سنة ١٩٢٨م.

ومع أنه أخصب خيالاً وأكثر سهولة من قصصه الطويل مثل (رحلة إلى الهند) و(هواردز إند) اللتين أصدرتهما (البنجوين) أيضاً فإنه يحوي - إلى ما فيه من تسلية - لمحات من ضروب البحث العميق. وما قصته (الآلة تقف) في نظر المؤلف إلا كرجع الصدى لإحدى مَؤحيات هـ. ج. ولز الباكرا.

وإن القارئ ليستشف في كثير من قصص هذا الكتاب ثقة مؤلفه الفطرية بقوة الطبيعة، وإنه ليقراً اللمز الأخاذ في (التقدم) وفي قصة أخرى يبدو منها تقدير المؤلف للأدب الحق، ويدرك - بالإضافة إلى هذا - تنكبه للحوار الاجتماعي التافه، وإيمانه بالقيم الإنسانية التي تكاد تنكرها اليوم جمهرة الناس.

مجد الدين حفني ناصف

مقدمة المؤلف

كتب هذه الأخيـلة في فترات مختلفة سابقة على الحرب العالمية الأولى، وهي كل ما أنجزت من قصص ذي اتجاه معين وطابع تختص به ومنذ ذاك الوقت وقعت أحداث كثيرة: اختلت المواصلات، وعدلت الحدود تعديلات جغرافية ونفسية، وقامت حرب عالمية ثانية، ويجري الإعداد لثالثة، واتخذ الخيال اليوم سبيله إلى أن يتراجع أو أن يئد نفسه أو أن يلجأ إلى الرمز والتخفي رعاية للقنبلة الذرية. ويتسنى لمن يعنيه تلقف الخيال أن يفعل ذلك ها هنا في العراق. إن الخيال يسبح فوق مشاهد أيام العطلة في إيطاليا وإنجلترا، أو يحلق - وإن أعوزته المسوغات - فوق بلاد المستقبل.. هي أو هو.. لأن الخيال - وإن تأنت أغلب الوقت - يشبه الرجل أحياناً. وقد يقوم أحياناً مقام هرميس^(١) الذي كان من وظائفه تنفيذ أقل الأوامر الإلهية شأنًا: كأن يكون «ساعياً» أو مدرب آلات أو دليل الأرواح إلى آخره ليست على درجة كبيرة من الرعب.

(١) هرميس (ابن المشتري، أو جوبيتر إله الآلهة عند الرومان). وهرميس هو عطار (أي مركوري): رسول الآلهة وإله الفصاحة والبلاغة والتجارة والرواج.

والقصة الاستهلالية (قصة الفزع) هي أول ما كتبت من القصص، وما تزال ملابسها ماثلة أمام عيني في وضوح. فبعد أن هبطت من كمبريدج- التي عدت إليها تَوًّا- ظلمت أتنقل في الخارج نحوًا من عام. وأظن أن مايو سنة ١٩٠٢م هو الوقت الذي فيه تمشيت بالقرب من دَفْلُو. جلست في وادٍ يعلو المدينة ببضعة أميال، وفجأة تدفق في ذهني الفصل الأول من القصة كأنما كان ينتظرني هناك، فتلقيته كأنه حقيقة واقعة وسجلته فور بلوغي الفندق. إلا أنه بدا غير مكتمل، وبعد بضعة أيام زدته حتى أصبح ثلاثة أمثال الأصل حسبما نشر الآن. ومن بين هاتين العمليتين كانت الأولى وهي- عملية العكوف على الموضوع وكأنها جلوس على تل للنمل- من الأمور التي قلما تحدث. ووقع لي مثل ذلك في العام التالي في اليونان حيث طالعني قصة (الطريق من كولوناس) في جوف شجرة خاوية غير بعيدة عن أولمبيا^(١). وأعدت الكرّة- أو بالأحرى حاولت ذلك مرة ثالثة- في كورنثول^(٢) عند رأس جرنارد. وهنا- على الصورة نفسها تمامًا- قابلتني قصة فارتضيتها على أنها عمل فذ، وذلك منذ أتيح لـ (الفزع) و(كولوناس) النشر والتقدير. وكان موضوعها رجلًا أنقذه بعض الصيادين من الغرق ولم يدر كيف يشيهم... ماذا تساوي حياتك؟ خمسة جنيهاً؟ خمسة آلاف جنيه؟... وخلص إلى ألا يعطي شيئاً على الإطلاق وإلى أن يعيش بينهم مقيماً مردولاً. ولما ألحت عليّ الفكرة أدخلت يدي في كيس نقودي واستخرجت جنيهاً إنجليزيًا ذهبًا- وكانت الجنيهاً الإنجليزية الذهبية موجودة إذ ذاك- وأدخلته صندوق الإعانة

(١) جبل في تساليا.

(٢) مقاطعة بجنوب غرب إنجلترا.

لمؤسسة زوارق النجاة الملكية التي شيدت فوق رأس جرنارد لمثل هذا الموقف. وكان في مقدوري تمامًا أن أهب ذاك الجنيه، وكان لزامًا عليّ أن أكسب أمثاله، المرة بعد المرة... بحر هادئ، صخرة مستوية مغمورة كان على بطل قصتي أن يعلق بها ويترنح. قرية فيها يكون علّ منقذيه أن يهاجموه... فنقلتها جميعًا ولم أزد على أن أرتجل شخصية امرأة عاقلة جعلتها زوجه. وجعلت (الصخرة) عنوان هذا الجهد المنحوس. لقد أخفقت إخفاقًا ذريعًا فإن ناشرًا واحدًا لم يعرها اهتمامًا. لقد كان إلهامي أصيلًا ولكن لا غناء فيه، شأن كل إلهام مماثل. ومنذ ذلك الوقت لم ألق بالآ بوحي طارئ إطلاقًا.

وفي الواقع أن إحدى قصصي (أطول رحلة) كانت من وحي مكان ما، ولكن بطريقة معقدة غير مباشرة لا محل لبحثها هنا. ولم تلهمني الأماكن الأصلية إلهامًا مباشرًا إلا مرات ثلاثًا انتزعت مني ثالثها جنيهاً إنجليزيًا ذهبًا، غير أنني أمضي عادة تدفعني أفكار وذكريات أو وحي قلبي. والمناهج المختلفة لا تعقب بالضرورة نتائج متنافرة. وإذا قارن القارئ الفصل الأول من (قصة الرعب) التي تستمد وجودها مباشرة من المكان الذي تصفه - مع الفصلين التاليين اللذين فيهما أخذت أتساءل عما عساه يحدث بعد - فما إخاله يتنبه إلى أن نصف الكرة الأرضية قد قفز إلى الميدان في مظهر جديد. وإن مواهب الكاتب قاطبة - ومنها موهبة التلفيق - لتأتمر مجتمعة على هذا النحو للابتكار. وكثيرًا ما تستببط السهل المطمئن مضيعة كلمة هنا وكلمة هناك.

أما القصص الأخرى فلا تقتضي من مؤلفها أكثر من تعليق موجز.

وما قصة (الآلة تقف) إلا كرجع الصدى لإحدى موحيات هـ.ج. ولز
الباكرة. وما (اللحظة السرمدية) - وإن غلب عليها أنها نسيج خالص
لله - إلا تأملًا في (كورتينا دامبيزو). أما (بيت القصيد) فلم تصب
نجاحًا عندما نشرها أصدقاؤني آل بلومزبري.. وحدث شيء من التساؤل
موضوعه: ما هو بيت القصيد؟ فلم أدر كيف أجيب عنه.

وقد جمع قصصي أول الأمر كتابان، أطلق على الأول اسم (الأمنيوس
السمائي) وأُهدى (إلى ذكرى المجلة المستقلة) Independent
Review وكانت تلك مجلة شهرية يديرها مجلس تحرير من الأصدقاء
الذين شجعوني على أن أبدأ ممارسة الكتابة. وخطط صديق آخر - وهو
دوجرفراي^(١) - غلاف الكتاب وصفحته الأخيرة. أما الكتاب الثاني فقد
صدر بعد ذلك بسنوات عديدة، وأسميته (اللحظة السرمدية) وأهديته
(إلى ت.أ. لافتقاد ما هو خير من ذلك)، وهذه العبارة ترمز إلى كابتن
لورنس^(٢).

والآن، وقد جمعت القصص كلها بين دفتي كتاب واحد وأخذت
تبحر بعيدًا إلى دنيا لا عهد لها بها، هل يحسن إهداؤها من جديد؟ ربما!
ربما جاز إهداؤها إلى أحد آلهة العصر الخالي. وإن هرميس مرشد
الأرواح إلى العالم الآخر ليقترح نفسه. إنه هو الذي لاح لخاطري في
مستهل المقدمة، وإنه ليسعه على أية حال أن يقف في مقدم السفينة
ويرقب أمواج البحر المحطمة.

إي.إم. فورستر

كمبريدج ١٩٤٧

(١) ناقد فني مشهور.

(٢) الكابتن لورنس المشهور بمغامراته في بلاد العرب، ومؤلف كتاب «أعمدة الحكمة السبعة».

قصة الفزع

- ١ -

استهّل يوستيس عمله في الحياة- إن جاز تسميته كذلك- يقيناً منذ عصر ذلك اليوم الذي قضاه في غابة القسطل (أبي فروة) التي تعلو رفللو. أنا أعترف من فوري أنني رجل ساذج بسيط لا يدعي أن له أسلوباً أدبياً في كتابته، ولكنني مع ذلك أحمد لنفسي القدرة على سرد قصة غير مبالغ؛ ولذا قررت أن أبين- في غير انحراف- عن الحوادث غير العادية التي تعاقبت خلال السنوات الثماني التي خلت.

رفللو بقعة بهيجة تحتوي فندقاً صغيراً بهيجاً، لقينا فيه جماعة من الناس الظرفاء. كان هناك: الآنستان روبنسن اللتان وفدتا، منذ ستة أسابيع، مع يوستيس ابن أختهما الذي بلغ إذ ذاك الرابعة عشرة تقريباً، وأقام هناك- بعض الوقت كذلك- مستر سانديباتش. وكان هذا يقوم بوظيفة قس في شمال إنجلترا واضطره انحراف صحته إلى اعتزالها، ثم أخذ على عاتقه- في أثناء الاستشفاء في رفللو- تربية يوستيس،

وكانت ناقصة نقصاً محزناً، جاهداً أن يعدّه للالتحاق بإحدى المدارس الخاصة الكبرى. وكان هناك أيضاً مستر ليلند الذي كان يطمح إلى أن يكون مفناً^(١). وأخيراً صاحبة الفندق اللطيفة سنيورا سكافيتي، والنادل (السفرجي) الطريف إيمانوبلي الذي يتكلم الإنجليزية، وإن تغيب هذا وقتئذ لزيارة والده المريض.

وأجسر على الظن بأني وزوجي وابنتي - عندما انضممنا إلى تلك الدائرة الصغيرة - ظللنا محل ترحاب. وكنت أولي معظم أفراد تلك الجماعة قدراً طيباً من الحب. غير أن اثنين منهم لم أستطع أن أعتاد صحبتهم إطلاقاً، هما ليلند المفن ويوستيس ابن أخت الأنستين روبنسن. لقد كان ليلند جدّ مغرور وجد كريه، ولما كانت روايتي ستصور هاتين الخلتين أصدق تصوير، لا أرى داعياً للإطّباب في شأنهما هنا. أما يوستيس فكان شيئاً آخر فضلاً عن ذلك، فلقد كان منفراً إلى حدّ لا سبيل إلى وصفه.

أنا في العادة مولع بالصبية وقد كنت على أتم استعداد لإبداء ودي، فتقدمت - وابنتي - لاستصحابه إلى نزهة خارج الفندق فقال: «كلا فالمشي سخرة كبرى». ثم سأله أن يأتي للاستحمام بالبحر فأجاب: «كلا، فما أستطيع السباحة».

قلت: «ينبغي لكل صبي إنجليزي أن يعرف السباحة، وسألقنك إياها بنفسي».

(١) «الفنان» في هذا المعنى من الأخطاء الشائعة.

وهناك قالت مس روبنسن: «هاك يا عزيزي يوستس، لقد وانتك فرصة».

فقال إنه يخاف الماء!- صبي يخاف- وبطبيعة الحال لم أزد على ذلك.

ولم أكن لأبه كثيرًا لو أنه كان مكبًا على الدرس، ولكنه لم يكن مجددًا لا في اللعب ولا في الدرس، وإنما كان أحب ما يشغله أن يستلقي في الشرفة على كرسي مريح، وأن يتلكأ في الطريق العامة يعبث بقدميه في التراب ويحني كتفيه إلى أمام. وكان طبيعيًا أن يشحب وجهه وأن ينكمش صدره وألا تنمو عضلاته. ولقد خالت خالتاه أنه ضعيف، ولكنه في الحق لم يكن يعوزه غير التدريب.

في ذلك اليوم المشهود دبرنا جميعًا أن نخرج إلى نزهة خلوية مصعدين في غابات القسطل- وأقصد جميعنا فيما عدا جانيت، وقد تخلفت لتتم صورة الكاتدرائية التي رسمتها بالألوان المائية- ولعل المحاولة لم تكن آية في النجاح.

وإنني لأهيم في تلك التفاصيل غير الملائمة لأن خاطري لا يسعه أن يعزلها عن ذكريات ذلك اليوم، وكذلك الحال فيما يخص المحادثة التي جرت في أثناء النزهة، فكل الأشياء قد انطبعت في ذهني مجتمعة. وبعد أن أمضينا ساعتين في الصعود تركنا الحمير التي حملت الأنستين روبنسن وزوجي. وتقدم الجميع على الأقدام إلى رأس الوادي، وعلمت أن اسمه فالوني فوتانا كاروز.

لقد شهدت- قبل هذا وبعد هذا- كثيرًا من المناظر الجميلة، ولم أجد من بينها ما سرني أكثر منه إلا القليل. فذاك الوادي ينتهي بغور فسيح على هيئة فنجان تلمع فيه وهاد من التلال السحيقة الانحدار التي تحديق به، وشجر القسطل المورق يكسو الوادي والوهاد وأضلاع التلال التي تفصل بين تلك الوهاد. فكانت الصورة في عمومها كاليد الخضراء المتعددة الأصابع- راحتها إلى أعلى- تمسك بنا في تشنج لتبقينا في قبضتها. ولقد استطعنا أن نرى رافيللو على مدى بعيد في أسفل الوادي، وكانت تلك هي السمة الوحيدة لدينا غير دنيانا.

فقالت ابنتي روز: «ما أكمل جمال هذه البقعة، وما أروع الصورة التي قد ترسم لها!».

فأجاب ساندباتش: «أجل، إن الكثير من المعارض الأوروبية للصور ليزدهيه أن يعلق فوق جدرانها منظرًا طبيعيًا يحكي هذا المنظر جمالًا». وقال ليلند: «بالعكس، تكون الصورة جد هزيلة، فالمنظر لا يستقيم في التصوير إطلاقًا».

فعلقت روز، في اهتمام أكثر مما يستحقه الرجل، قائلة: «ولم ذلك؟».

فأجاب: «انظري. أولًا: لأن خط التل تلقاء السماء، قويم على صورة لا تطاق. وهو في حاجة لأن يقسم وتعدد أشكاله. فالمنظر جميعه- من حيث نقف- خارج على ما يريح مرمى النظر. وإلى هذا فتديج الألوان فج مطرد النسق».

وهنا دخلت الحديث قائلاً: «لا علم لي بالصور ألبتة ولست أدعي المعرفة، ولكنني عندما أرى شيئاً جميلاً أعرف أنه جميل. وأنا عن هذا راضٍ تمام الرضى».

فقلت كبرى الأنستين روبنسن: «يقيناً، ومن ذا الذي يسعه عدم الرضى!». وقال مستر ساندباتش مثل هذا القول.

وقال ليلند: «آه. كلكم يخلط بين النظر الفني للطبيعة وبين التصوير الفوتوجرافي».

ولما كانت روز المسكينة قد أحضرت ألتها للتصوير الفوتوجرافي دار بخلدي أن هذا الكلام لا ريب في قسوته. وبما أنني رغبت عن كل ما يكدر الصفو، فقد انشيت من فوري وعاونت زوجي ومس ماري روبنسن في ترتيب الغداء، ولم يكن غداء جد طيب.

وقالت الخالة لابن أختها: «يا عزيزي يوستس، تعال وساعدنا هنا».

كان في ذلك الصباح حاد المزاج إلى درجة كبيرة، ولم يرغب في مرافقتنا كعادته. وكانت خالتاه قد رخصتا له في البقاء بالفندق - أو كادتا - وذلك لإغاية جانيت، غير أنني - بعد استئذانهما - تحدثت إليه في حزم عن موضوع الرياضة، فجاء نتيجة لذلك، ولكنه كان أكثر اكتئاباً وصمتاً من المعتاد.

ولم تكن الطاعة من أخص مزاياه، فهو لا ينفك يناقش كل أمر يصدر إليه ولا ينفذه إلا متذمراً، ولو كان لي ولد لتشدت دوماً في أن يطيع طاعة ناجزة صادرة عن طيب خاطر.

وأجاب آخر الأمر: «أنا- آت- يا خالتي- ماري»، ثم تلکع في اقتطاع كسرة من خشب يصطنع منها صفارة، وقد حرص على ألا يصل قبل أن تنتهي تمامًا.

فقلت له: «مرحى مرحى أيها السيد! أنت تتردد وتجيء بعد فوات الوقت ثم تفيد من كدنا»، فتنهد لأنه لم يكن ليحتمل التبكيت، وأصرت الآنسة ماري، في غير تبصر، على إعطائه جناح الدجاجة، ولم أفلح في منعها عن ذلك، وأتذكر أنه مرت بي لحظة غيظ عندما فكرت في أنه كان علينا جميعاً أن نضيع وقتنا في المجادلة لإطعام ولد تالف بدلاً من التمتع بالشمس والهواء والغابة.

على أنه عقب الأكل بُعداً عنّا هوناً ما، إذ ارتد إلى جذع شجرة وأخذ يرخي اللحاء عن صفارته. وقد حمدت رؤيته منشغلاً مرة على صورة ما؛ فاضطجعنا واستمتعنا بالاسترخاء وأشجار القسطل الخلافة التي تنمو في الجنوب وتعد ناقصة النمو مراهقة إذا قيست بنظائرها القوية الكاملة النمو التي تنبت لدينا في الشمال، غير أنها كانت تكسو التلال والأودية في هيئة تسر من رأى سروراً بالغاً، ولم يكشف هذا السّتر إلا في مكانين كنا في أحدهما جالسين.

وبسبب قطع تلك الأشجار القليلة أفاض ليلند في توجيه الانهمام الحقيقير للمالك.

وصاح قائلاً: «لقد أخذ الشعر كافة يتقلص عن الطبيعة، فبحيراتها ومستنقعاتها تصرف مياهها، وبحارها ترصف شواطئها، وغاباتها تقطع أشجارها، وفظاظة الكأبة تشيع في كل مكان.

وكان لديّ بعض التجارب عن الضياع، فأجبت بأن الاقتطاع ضروريّ جدًّا لصحة الدوح. وفوق ذلك فمن غير المعقول مطالبة المالك بالألا يتغي غلة من أرضه.

«إذا نظرت إلى المناظر الطبيعية للغابات من الناحية التجارية، فقد يسرك نشاط المالك، ولكنني أرى أن مجرد التفكير في تحويل شجرة إلى رصيد يثير الاشمئزاز».

فأردفت في أدب بقولي: «لست أرى وجهًا لازدراء أنعم الطبيعة بسبب قيمتها المادية».

غير أن كلامي لم يوقفه فاستأنف قائلاً: «هذا لا يهم. فلقد تردّينا في الفظاظة كلنا ولا أستثني نفسي، ولا أمل في الإصلاح ونحن مسئولون مسئولية شائنة عن اختفاء حوريات البحر منه وجنات الجبال منها، وعن أن الغابات لم تعد تأوي بان^(١)».

فصاح مستر ساندباتش - وصوته العذب يملأ الوادي كأنه كنيسة خضراء كبيرة - قائلاً: «بان! لقد مات بان ولذا لا تأويه الغابات»، وأخذ يسرد القصة الأخاذة عن الملاحين الذين كانوا مبحرين على مقربة من الشاطئ وقت ولادة المسيح وسمعوا - ثلاث مرات - صوتاً عالياً يقول: لقد مات الإله العظيم بان».

«أجل لقد مات بان».

(١) بان إله الرعاة: وهذا التعبير وسابقاه من أدب الأساطير اليونانية القديمة.

واستغرق في تلك السخرية التاعسة التي يولع بالانغماس فيها أهل الفن، وهنا انطفأ السيجار الذي كان يدخنه وكان عليه أن يسألني عود ثقاب.

قالت روز: «هذا شائق جدًّا، وإني لأتمنى أن أكون قد ألممت بشيء من التاريخ القديم».

فقال ساندباتش: «إنه لا يستأهل التفاتك أليس كذلك يا يوستيس؟» وكان يوستيس يكمل صفارته، فرفع بصره في العبوس المثير الذي رخصت له خالته بالإغراق فيه، ولم يحرج جوابًا.

وتنقل الحديث بين موضوعات متنوعة ثم خبا... كان أصيلاً صحواً من آصال مايو، وقد خلفت خضرة أوراق شجر القسطل الصغير وزرقة السماء الداكنة طباقاً (أي تبايناً) جميلاً وكنا جميعاً جالسين عند نهاية البقعة الخالية من الشجر ابتغاء المنظر الجميل. وكان جلياً أن ظل شجيرات القسطل التي من خلفنا غير وارف، وخمد كل الأصوات، في سمعي أنا على الأقل... وتقول مس روبنسن إن صخب الطير كان أول سمات الضيق الذي استشعرته. خمدت الأصوات جميعاً. غير أنني - عن بعد في الفضاء - تسنى لي سماع غصني شجرة قسطل يتطاحنان لدى تمايلها، على أن هذا التطاحن أخذ يتقاصر تقاصراً مطرداً حتى خمد كذلك آخر الأمر، وعندما أطللت على أصابع الوادي الخضراء كان كل شيء ساكناً لا يبدي حراكاً، وبدأ ينسلّ فوق شعور الترقب الذي يمارسه المرء كلما هجعت الطبيعة.

وعلى حين غرة استشارتنا جميعاً الجلبة المبرّحة التي صدرت عن صفارة يوستيس، إني لم أسمع قط آلة تخرج صوتاً متنافر النغم يصدع الأذن كما تفعل هذه الآلة.

فقالت الأنسة ماري روبنسن: «يا عزيزي يوستيس، كان في استطاعتك أن تفكر في رأس خالتك جوليا المسكينة»، وانتصب ليلند الذي كان نائماً فيما يظهر.

وأبدى ملاحظة قائلاً: «يدهشني كيف يعمى صبي عن أي شيء فيه جمال أو فيه تهذيب، أنا لم أكن لأصدق أن في وسعه أن يجد الوسيلة التي بها يفسد علينا مسرتنا على هذا النحو».

وانسدل علينا من جديد ستار السكون المروع، وكنت في تلك اللحظة واقفاً أرقب بإحساسي نسمات خفيفة من الريح كانت تعدو هابطة أحد الأضلاع المقابلة وتحول- إذ تمر- الأخضر الزاهي إلى داكن، فتملكني شعور بالتطير غريب الأطوار، واستدرت فهاطني أن أرى الآخرين جميعاً واقفين على أقدامهم يرقبون مثلي.

وليس في مقدوري أن أصف ما حدث بعد ذلك وصفاً دقيقاً يطابق الواقع ولكني، بوصفي واحداً منهم، لا أستحي من الاعتراف بأنني- مع وجود السماء الزرقاء الصافية فوق، وغابات الربيع تحتي، وأكرم الأصدقاء حولي- فزعت فزعاً شديداً أرجو ألا يعاودني أبداً حتى ما هو دونه هولاً، فزعاً لم أعرفه لا قبل ذلك ولا بعده، ثم إني رأيت في عيون الآخرين رعباً صريحاً لا ينم عن معنى آخر، وقد جهدت أفواههم في أن تفتح بالكلام وأيديهم في أن تتحرك بالتعبير، ومع هذا فقد كان يحف

بنا من كل ناحية اليسر والجمال والسلام، وجميعه بلا حراك، فبا عدا
نسمات من الريح الخفيفة التي تصعد الآن الضلع الذي وقفنا فوقه.

أما من الذي تحرك أولاً فلم يعرف، ويكفي أن أقول إننا في ثانية
واحدة كنا نعدو على طول صفحة الجبل، كان ليلند في المقدمة، وتبعه
ساندباتش ثم امرأتي، غير أنني لم أنظر إلا لحظة يسيرة لأنني جريت
عبر الأرض الخالية من الشجر واخترقت الغابة وما فوق الرتم^(١)
والصخر وهبطت قيعان مجاري السيول الجافة وبلغت الوادي الذي
تحتها. وربما تكون السماء قد اسودت وأنا أجري، وربما كانت طريق
الشجر والعشب القصير وشفحة الجبل طريقاً مستوية؛ ذلك لأنني لم
أر شيئاً ولم أسمع شيئاً ولم أستشعر شيئاً، وذلك لأن كل معابر الإدراك
والتفكير قد سدت، ولم يكن ما عراني هو الخوف الروحي الذي عرفه
المرء في مناسبات سابقة، وإنما كان خوفاً بهيمياً بدنياً متسلطاً يركز
فوق الأذنين ويسدل السحاب أمام العينين، ويملاً الفم مذاقاً خبيثاً. ولم
يكن الإذلال الذي تخلف إذلاً مألوفاً لأنني ارتعت لا على أنني آدمي،
بل على أنني بهيم.

* * *

(١) الرتم (بفتحتين) نوع من الشجر بذره كالعدس، والواحدة رتمة.

ليس في وسعي أن أقول إن نهايتنا كانت - في أية صورة - خيرًا من بدايتنا، فإن خوفنا ذهب - كما جاء - بلا سبب... واستطعت فجأة أن أرى وأسمع وأن أسعف وأنظف فمي... ثم نظرت خلفي فألفيت الآخرين قد وقفوا كذلك. وما هو إلا وقت قصير حتى كنا معًا كلنا، وإن انقضت فترة طويلة قبل أن نقدر على النطق وفترة أطول قبل أن نجترئ على التكلم.

لم تصب أحدًا منا إصابة بالغة، وكل ما حدث هو أن امرأتي المسكينة التوى رსغها، وأن ليلند نزع ظفر إحدى أصابعه على جذع شجرة، وأنني خدشت أذني فأذيتها ولم أتنبه لهذا بتاتًا حتى توقفت.

كنا جميعًا صامتين نتقصى الأحوال في وجوه بعضنا البعض، وإذا بمس مارس روبنسن تطلق فجأة صيحة مروعة: «أيتها السماوات الرحيمة، أين يوستيس؟» وكادت أن تسقط لولا أن أسندها مستر ساندباتش.

قالت ابنتي روز وكانت أكثر الجماعة رباطة جأش: «ينبغي لنا أن نعود، ينبغي لنا أن نعود من فورنا، وأنا آمل بل أشعر أنه سالم».

وبلغ من جبن ليلند أنه اعترض، ولكنه عاد فأدعن إذ وجد نفسه أقلية وخشي أن يترك وحده. وما كان من روز ومني إلا أن ساندنا امرأتي المسكينة، وما كان من مستر ساندباتش ومس روبنسن إلا أن عاضدا مس ماري. وعدنا مستأنين صامتين، وصعدنا في أربعين دقيقة الممر الذي هبطناه في عشر.

ثم انقطع حديثنا بطبيعة الحال؛ لأن أحداً لم يرغب في إبداء رأي فيما حدث. وكانت روز أكثر الجماعة ثرثرة، ولقد أفرغتنا بقولها إنها كادت أن تقف حيث كانت تماماً.

وقال مستر ساندباتش: «أتعنين أنك لم تكوني... أنك لم تجدي نفسك مكرهة على السير؟».

وبطبيعة الحال شعرت بـ «الخوف» فعلاً، وكانت أسبقنا إلى استعمال هذه الكلمة، «ولكنني أحسست على صورة ما أنني إذا استطعت التوقف فسيكون الشأن غير الشأن، وأنه ما ينبغي لي أن أخاف إطلاقاً... على حد تعبيرهم». ولئن لم تفصح روز قط في مثل هذا الوضوح فإنه مما يرفعها في نظرنا أنها- وهي أصغرنا جميعاً- قاومت فترة في مثل هذا الطول في ظرف مروع كهذا.

واستأنفت الكلام قائلة: «ولولا أنني رأيت أُمِّي تسير لكنت توقفت، فيما أعتقد».

وقد وجدنا في تجربة روز بعض العزاء في شأن يوستيس. غير أننا تملكنا شعور بالانقباض المروع عندما صعدنا- ونحن نتألم- المنحدرات التي يكسوها القسطل وشارفنا الرقعة الصغيرة العارية عن الشجر. وما كدنا نبلغها حتى انطلقت ألسنتنا، فقد رأينا هناك في الناحية القصوى ما تخلف من غدائنا وشهدنا إلى جانبه يوستيس راقداً على ظهره بلا حراك.

وفي شيء من حضور البديهة صرخت من فوري: «أنت، أيها القرد

الصغير! اقفز!»، ولكنه لم يجبني كما أنه لم يجب خالتيه المسكينتين عندما وجهتا إليه الكلام. ورأيت - ونحن نقترّب - عطاءة (سحلية) خضراء تندفع خارجة من تحت ردن^(١) قميصه، فتملكني رعب يفوق الوصف.

وقفنا نرقبه وهو راقد هناك في سكون مطبق، وأخذت أذناي تطنان في انتظار انفجار من النحيب والدموع.

ركعت مس ماري إلى جواره ومست يده التي كانت متشابكة بالعشب في وضع عصبي.

ولم تكد تفعل حتى فتح عينيه وابتسم.

ومنذ ذاك الوقت تكررت رؤيتي لتلك الابتسامة الغريبة في وجه صاحبها وفي صوره التي أخذت تنشر في الجرائد المصورة. على أن يوستيس حتى ذلك اليوم كان يعلو جبينه دوامًا عبوس البطر والتبرم، ولم يكن لأحدنا سابق عهدٍ بتلك الابتسامة المقلقة التي بدا دائمًا أن ليس لها ما يبررها.

وأطرته خالته قبلًا لم يبادلها إياها، ثم ساد صمت غريب بدا بعده يوستيس طبيعيًا ساكن الجأش، ولئن لم يتح له قبل ذلك من الخبرة ما يشير دهشته فلقد كان حريًا بأن يدهشه سلوكنا البالغ الغرابة، وقد جهدت زوجي بلباقتها الحاضرة في أن تتصرف كأن شيئًا لم يحدث.

(١) الردن (بضم فسكون) حاشية الكم.

قالت وقد جلست لتريح قدمها: «والآن يا مستر يوستيس، كيف كنت تسلي نفسك منذ انصرفنا؟».

«شكرًا يا مسز تيتلر، لقد كنت جد سعيد».

«وأين كنت؟».

«هنا».

«أكنت راقداً كل الوقت أيها الصبي الكسول؟».

«لا، ليس كل الوقت».

«وما كنت تصنع قبل ذلك؟».

«ما بين واقف وجالس».

«وقفت وجلست دون أن تصنع شيئاً! ألا تعرف الشعر الذي معناه أن الشيطان ليجد شيئاً يسيء به...».

وتدخل مستر ساندباتش في الحديث: «أوه يا سيدتي العزيزة، صه صه!!» وكان طبيعياً أن تنكدر زوجي من المقاطعة، فلم تزد وانتقلت من مكانها. وأدهشتني رؤية روز تحتل مكانها فوراً وتمر بأصابعها بين شعر الصبي الأشعث في حرية تفوق ما تمارسه عادة.

وقالت وهي تتعجل الكلام: «يوستيس! يوستيس! خبرني بكل شيء، بكل شيء دون استثناء».

فاعتدل في بطء وجلس، وكان إلى ذلك الوقت راقداً على ظهره.

وهمس قائلاً: «أوه يا روز...» فدفعني حبي الاستطلاع إلى الانتقال

إلى مكان أقرب إليه لأسمع ما هو قائل، وعندئذ رأيت آثار سير بعض المعز في الأرض الرطبة تحت الشجر.

فعلقت قائلاً: «زارك بعض المعز فيما هو ظاهر، أنا لم أكن أعلم أن هذا هو المكان الذي يرمى فيه».

وبعد جهد جهيد انتصب يوستيس واقفاً على قدميه وجاء ليرى. ولما رأى آثار السير رقد وتمرغ عليها كما يتمرغ الكلب في الدنس.

وبعد هذا حدث سكون رهيب فضه آخر الأمر الكلام المهيب الذي نطق به مستر ساندباتش.

قال: «أيها الأصدقاء الأعزاء، خير لنا أن نكون شجعاناً في إذعاننا للحق. أنا أعرف أن ما أنا قائله الآن هو نفسه ما تستشعرونه في هذه اللحظة. إن إبليس اللعين كان متجسداً في مكان جد قريب منا، وقد يكشف الزمن عن ضرر ما يكون قد بثه بيننا، ولكني، عن نفسي أود... في الوقت الحاضر على أية حال أن أرفع إلى الله الحمد على رحمته بنجاتنا».

قال هذا وركع، وبما أن الآخرين ركعوا فقد ركعت كذلك. هذا وإن لم أعتقد في أن إبليس يرخص له أن يغير علينا متجسداً، حسبما أبلغت مستر ساندباتش فيما بعد. وجاء يوستيس، وفي شيء من السكون ركع - هو أيضاً - بين خالتيه بعدما أومأنا إليه. ولم نكد ننتهي من الشكر حتى نهض من فوره وأخذ يفتش عن شيء.

وقال: «كيف؟ لقد فلق بعضهم صفارتي فلقطين (و كنت رأيت ليلند

يحمل في يده مدية مفتوحة - وهذا تصرف خرافي لم أكد أستصوبه).

ثم استأنف يوستيس الكلام قائلاً: «هذا لا يهم».

فقال مستر ساندباتش الذي أخذ يحاول منذ ذلك الحين أن يستدرج يوستيس ليدلي بتفاصيل عن تلك الساعة التي اكتنفها الغموض.

«ولماذا لا يهم؟».

«لأنني ما أرغب فيها بعد».

«ولم؟».

وعندئذ ابتسم يوستيس ولما بدا أن أحدًا ليس لديه ما يقوله، انطلقت بين الغابة في أسرع ما وسعني وسحبت حملاً يحمل امرأتي المسكينة إلى الفندق، ولم يحدث في غيابي حادث اللهم إلا أن روز استرجعت تطلب إلى يوستيس أن يخبرها بما كان، ولكنه في هذه المرة أدار رأسه ولم يجب بكلمة واحدة.

ولم أكد أرجع حتى انطلقنا جميعاً، ومشى يوستيس في عسر يقرب من الألم، فإذا ما أدركنا الحمير الآخر رغبت خالتاه في أن يعلو أحدها ويقطع الطريق كله إلى الفندق راكباً. ومع تصميمي على ألا أدخل بين الأقرباء صممت على منعه. ولقد كنت على حق كما وضح آخر الأمر؛ لأن الرياضة الصحية أخذت - حسبما زعمت - تذهب بخمول يوستيس وتلين من تيس عضلاته، فلقد سارع الخطي كما يصنع الرجال، أول مرة في حياته، ناصباً هامته مستنشقاً شهقات عميقة من الهواء إلى صدره، وقد أبدت لمس ماري روبنسن راضياً أن يوستيس أخذ في النهاية يعتز

بعض الشيء بمظهره الشخصي .

وتنهّد مستر ساندباتش وقال: «إن يوستيس يجب أن يوضع تحت مراقبة دقيقة؛ لأن أحداً منا لا يفهمه بعد، وبما أن مس ماري روبنسن كانت تستهديه إلى درجة كبيرة- درجة تفوق المعقول في زعمي- فقد تنهدت هي الأخرى».

قلت: «لا عليك يا مس روبنسن، فيوستيس لم يصب بمكروه. والغربة إنما تكمن في تصرفاتنا نحن لا في تصرفاته هو، لقد أدهشه رحيلنا المفاجئ ولذا ألفيناه في حالة غريبة لدى عودتنا، وله عذره، وإذا كان قد تغير إطلاقاً فإلى ما هو خير».

وقال ليلند وهو يركز نظرات عين واسعة حزينة على يوستيس الذي توقف كي يتسلق صخرة ليجمع بخور مريم (سكلامن) قال: «وهل عبادة التربية البدنية التي هي من طقوس النشاط العديم الذكاء، تعد تحسيناً؟ والرغبة الملحة في أن يسلم عن الطبيعة مظاهر الجمال القليلة التي تركت لها، هل تعد تحسيناً كذلك؟».

ومن الإسراف البين الإجابة عن ملاحظات من هذا اللون ولا سيما إذا صدرت عن مفن مخفق يشكو إصبعاً تالفة، لهذا غيرت مجرى الحديث مستفهماً عما نقوله في الفندق. واتفقنا بعد حوار قصير على ألا نذكر شيئاً لا هنالك ولا في كتبنا إلى ذويننا، وعندي أن من الخطأ الإلحاف في سرد الحقائق التي لا تخلف غير الارتباك والانزعاج، وتسنى لي بعد جدل طويل أن أقنع مستر ساندباتش بالانضمام إلى رأيي.

ولم يشارك يوستيس في الحديث، بل أخذ يركض هنا وهناك، كما يفعل الولد الصغير، في الغابة الواقعة إلى يسار. وقد منعنا شعور غريب من الحياء عن أن نبدي له صراحة، خوفاً. وبدا يقيناً أننا كنا على حق تقريباً عندما خلصنا إلى أن الموضوع لم يكن يسترعى نظره، ولذا لم نأبه له عندما قفز راجعاً وقد ملأ ذراعه بحزمة من شوك مزدهر وهتف:

«أتظنون أن جنارو سيكون هناك عندما نعود؟» وجنارو هو النادل الذي يسد الفراغ عند الضرورة، وهو صبي سماك فظ سمج جلبوه من مينوري في غياب إيمانويلي الظريف الذي يتكلم الإنجليزية، وهو الذي أعد لنا غداءنا الشحيح. ولست أستطيع أن أدرك لماذا تاق يوستيس إلى رؤيته اللهم، إلا أن يكون في حسابه أن يتندر وإياه عن سلوكنا.

قالت مس روبنسن: «نعم، سيكون هناك، يقيناً، ولماذا تسأل يا عزيزي؟».

«أوه. فكرت في أن رؤيته قد تسرني».

وقال مستر ساندباتش في عنف: «ولكن لماذا؟».

«لأنني... لأنني فعلاً... لأنني...» وانطلق راقصاً في الغابة، وقد أخذت تعتم، على إيقاع كلماته.

قال مستر ساندباتش: «هذا بالغ الغرابة! هل أحب يوستيس جنارو قبل الآن؟».

قالت روز: «جنارو لم يشتغل هنا إلا منذ يومين، وأعلم أنهما لم يتحادثا إطلاقاً في أكثر من عشر مناسبات».

وكان يوستيس ترتفع روحه المعنوية كلما عاد من الغابة، ولقد انقض علينا ذات مرة وهو ينطق كأنه أحد الهنود الحمر المتوحشين. وفي مرة أخرى أراد أن يقنعنا بأنه كلب، وفي المرة الأخيرة عاد يحمل على ذراعه أرنبا بريًا مسكينًا مخطوف البصر أخوف من أن يتحرك، وقد بدأ (يوستيس) يصبح كثير الجلبة، فيما أزعج، وسرنا جميعًا أن نزايل الغابة ونبدأ نزول درب السلم المنحدر الهابط إلى رفللو. وكان الوقت متأخرًا والسماء آخذة في الإعتماد فأسرعنا ما وسعنا الإسراع ويوستيس يمرق أمامنا كما يمرق الماعز.

والحدث العجيب الثاني ذاك اليوم الغريب حدث تمامًا حيث يتصل درب السلم المنحدر بالطريق العالية البيضاء. كانت ثلاثة من العجائز واقفات على مقربة من الطريق، هابطات من الغابة مثلنا، وكن يسندن ما يحملن من حزم الحطب الثقيلة على السور الواطئ الذي يحجز الطريق، فتوقف يوستيس أمامهن وتروى لحظة ثم تقدم و.... وقبل يسراهن على خدها!

فصاح مستر ساندباتش قائلاً: «أيها الرفيق الطيب، هل أنت مغرق في الجنون؟».

ولم يتكلم يوستيس بل قدم إلى العجوز بعض زهره ثم انطلق مسرعًا، ونظرت خلفي فبدا لي أن رفيقتيها لاحتا منذهلتين لما حدث مثلما كنا تمامًا. أما هي فقد رشقت بنفسها الزهر في صدرها وتمتمت بالدعوات.

وكانت تحيته هذه إلى العجوز أبرز مثل لسلوك يوستيس الغريب،

وساورنا كلينا الذهول والانزعاج، ولم تكن ثمة فائدة من التحدث إليه؛ لأنه كان يجيب إجابات سخيفة أو ينطلق واثبًا دون أن يجيب إطلاقًا.

ولم يشر إلى جنارو طوال الطريق إلى الفندق فأملت أن يكون أمره قد دخل زوايا النسيان، ولكن لم نكد نبليغ الميدان الواقع أمام الكاتدرائية حتى زعق بأعلى صوته مناديًا: «جنارو! جنارو!» وأخذ يعدو على طول الممر الصغير الذي يوصل إلى الفندق، ومن المؤكد أن جنارو كان في نهايتها، ويداه ورجلاه تبرز من بذلة النادل الصغير الظريف الذي يتكلم الإنجليزية، وعلى رأسه طاقية صياد سمك قدرة، ذلك أنه - كما قالت بحق صاحبة الفندق المسكينة، مع مداومتها الإشراف على هيئته - كان ينجح دائمًا في أن يُدخل عليها، قبل أن تتم، شيئًا غير موائم.

قفز يوستيس ليلقاه وارتقى بين ذراعيه، ولم يحدث هذا في حضورنا فحسب، بل كذلك في حضرة صاحبة الفندق وخادمة الغرف والحمال وسيدتين أمريكيتين وفدتا على الفندق لتقضيا به أيامًا قلائل.

إنني أضع نصب عيني دائمًا أن أتلطف في معاملة الإيطاليين مهما قل استحقاقهم لذلك. إلا أن عادة الألفة المشوشة هذي لا تحتل إطلاقًا ولا تخلف إلا سقوط الكلفة وإلا المهانة للجميع. وانتحيت بمس روبنسن جانبًا واستأذنتها في أن أتحدث إلى يوستيس حديث الجاد في صدد مخالطة من هم دوننا اجتماعيًا، فأذنت لي في ذلك. غير أنني عزمت على التريث حتى تسكن قليلًا ثورة الصبي التافه من أثر اهتياج ذلك اليوم. وفي غضون ذلك فإن جنارو - بدلًا عن أن يهتم بخدمة السيدتين الجديدتين - حمل يوستيس داخل الدار كأن هذا أهم تصرف طبيعي في العالم.

وعندما جاوزني سمعته يقول: «هو كبيتو، هو كبيتو»، وهذه العبارة الإيطالية معناها «فهمت»، ولكن بما أن يوستيس لم يتحدث إليه فإنني لم أدرك قوة الملاحظة، وزاد هذا من حيرتنا، وإلى أن حل وقت اختلافنا إلى مائدة العشاء كانت أخيلتنا وألستنا قد أنهكت سواء بسواء.

وأسقط من الحساب التعليقات المختلفة التي صدرت لأن القليل منها هو الجدير بالتسجيل فيما يبدو. ومهما يكن فإن سبعة منا أخذوا- في مدى ثلاث ساعات أو أربع- يتدفقون دهشة في مسيل من الهاتفات المناسبة وغير المناسبة، فربط بعضهم بين سلوكنا- عصرًا- وسلوك يوستيس الآن، بينما البعض لم ير أي اتصال، وأصر مستر ساندباتش على أنه تأثر بمؤثرات شيطانية وأفتى بوجوب عرضه على طبيب، ولم ينظر ليلند لغير تطور «ذاك العامي اللعين أي الصبي»، وزعمت روز أن كل تصرفاته تحتمل التسامح؟ وهذا ما أدهشني. أما أنا فقد بدأت أراه يستأهل التأديب البدني الشديد، وترجحت الأختان روبنسن المسكيتان في يأس حائرتين بين الآراء المتباينة وأخذتا تجنحان إلى فكرة الإشراف الدقيق، وطورًا إلى الإذعان، ومرة إلى التأديب البدني وأخرى إلى ملح الفواكه (إنيو).

وانقضى العشاء على نحو لا بأس به، ولو أن يوستيس كان بالغ القلق وجنارو أخذ كدأبه يسقط السكاكين والملاعق ويتنخم ويزيل ما في حلقه. ولما كان لا يعرف من الإنجليزية إلا كلمات قليلة، اضطرنا جميعًا إلى التحول إلى الإيطالية لنفصح عن مطالبنا. طلب يوستيس- الذي لقط القليل من هذه اللغة على وجه ما- برتقاليًا، وضايقني أن جنارو

عند إجابهه استعمل في الخطاب صيغة المفرد، وهي صيغة لا تستعمل إلا عند توجيه الكلام إلى الأنداد الذين امتنعت بينهم الكلفة، جلب يوستيس هذا على نفسه، ولكن وقاحة كهذي إهانة لنا جميعاً، فصممت على أن أتكلم وعليّ أن أتكلم فوراً.

وعندما سمعته يزيل ما تخلف على المائدة دخلت، واستجمعت ما حضرني من التعبيرات الإيطالية أو على الأصح النابولية (ولهجات الجنوب كرية) وقلت: «جنارو! سمعتك تخاطب السنيور يوستيس بصيغة المفرد».

«هذا صحيح».

«أنت مخطئ.. وعليك أن تكون أكثر احتراماً لدى خطابك إياه فتستعمل صيغة الجمع أو ما يحل محلها، وتذكر أن السنيور يوستيس - وإن سخف أحياناً وقلّت فطنته، كما حدث عصر اليوم - تذكر أنك مطالب بأن تتأدب في معاملتك إياه، فإنه سيد إنجليزي صغير وأنت صبي سماك فقير».

أنا أعلم أن هذا الكلام يصور حادثة النعمة تصويراً قوياً، غير أن المرء يستطيع أن يقول بالإيطالية عبارات لا يحلم أبداً أن يقولها بالإنجليزية. وإلى هذا، فلا خير في توخي الرفق عند مخاطبة أناس من هذه الطبقة. وإذا أنت لم توضح مقاصدك في صراحة تامة، فإن أولئك الناس يغتمون سروراً أثماً بسوء فهمهم إياك.

ولو كان الذي أتحدث إليه صياداً إنجليزياً أميناً للكمني من فوره في

عيني لقاء ملاحظة كهذي. أما الإيطالي التاعس الذي ديس في الرغام فلا كرامة له، فجنارو لم يزد على أن تنهد وقال: «هذا حق».

قلت: «إنه كذلك» ولم أكد أستدير لأنصرف حتى سمعت ما أثار حنقي، سمعته يستأنف الكلام قائلاً: «ولكنه لا يهم في بعض الأحيان».

فصرخت فيه: «وما تعني؟».

وسار إلى جوارى معبراً بأصابعه تعبيرات مفزعة وهو يقول:
«يا سنيور تيتلر! أود أن أقول ما يلي: إذا طلب إليّ يوستازيو أن أخاطبه بصيغة الجمع فعلتُ، وإلا فلا».

وهنا حمل صينية مستلزمات العشاء واختفى بها من الغرفة، وما هي إلا لحظة حتى سمعت سقوط كأسٍ نبذ على أرض صحن الدار.

إذ ذاك تملكني شيء من الغضب، وحشتُ الخطى لأتحدث إلى يوستيس، ولكنه كان قد ذهب لينام. وكانت صاحبة الفندق التي رغبت في التحدث إليها، وبعد مزيد من التساؤل المبهم الذي أبدي في غموض - نظراً لوجود جانيت والسيدتين الأمريكيتين - ذهبنا جميعاً لننام كذلك بعد أن قضينا يوماً مزعجاً بالغ الغرابة.

* * *

ولكن النهار لم يكن شيئاً إذا قيس بالليل.

أعتقد أنني كنت قد نمت نحواً من أربع ساعات حين استيقظت فجأةً متخيلاً أنني سمعت جلبة بالحديقة، وقبل أن أفتح عيني مباشرة تملكني رعب بارد فظيع لا خوفاً من شيء جارٍ كما حدث في الغابة، بل خشية شيء محتمل الحدوث.

كانت حجرتنا في الطبقة الأولى تطل على الحديقة أو الشرفة، أو هي على الأصح كتلة من الأرض تحكي التودد شكلاً، تكسوها الورود والكروم، تشطرها ممرات صغيرة من الأسفلت، ويحدوها من الجانب القصير بناء الفندق. أما الجانبان الطويلان فيحف بهما جدار يعلو سطح الشرفة بثلاث أقدام ليس غير، إلا أن انحداره على مزارع الزيتون - التي يشرف عليها - أطول من عشرين؛ لأن الأرض قائمة الانحدار.

ولما ارتعدت أوصال جسدي جميعاً تسللت إلى النافذة، وكان - هنالك - شيء أبيض يقطع على طول ممرات الأسفلت ذهاباً ورجوعاً، وزاد انزعاجي حتى أمسيت لا أرى في جلاء. وعلى ضوء النجوم الضعيف تشكل الشيء بأشكال غريبة، فأنأ أراه كلباً كبيراً، وآونة إخاله وطواطاً أبيض ضخماً، وحيناً يبدو كالسحاب السريع الانسياب، ومرة ينط كالكرة، وأخرى يطير واطئاً كالعصفور، وأحياناً ينسرب مستأنياً كالطيف. ولم يبد منه صوت غير الطقطقة التي لا تصدر إلا عن وقع

أقدام آدمية... وفرض التعليل البين نفسه على ذهني المشوش آخر الأمر، فأيقنت أن يوستيس زایل فراشه، وكان علينا أن نواجه أمرًا جديدًا.

وارتديت ملابس على عجل، وهبطت حجرة الطعام المتصلة بالشرفة، وكان بابها غير مؤصد، وكاد فزعي أن ينقضي تمامًا، ولكنني جاهدت - نحوًا من خمس دقائق - شعورًا غريبًا بالجبن، شعورًا حفزني ألا أتدخل في تصرفات الولد المسكين الغريب الأطوار، بل إلى تركه لطقطته المخوفة والاقْتصار على مراقبته من النافذة ملقيًا بالي حتى لا يصيب نفسه بأذى.

ولكن تغلبت الدوافع الطيبة ففتحت الباب وهتفت:

«يوستيس! بالله ما هذا الذي تصنع؟ ادخل من فورك».

فتوقف عن حركاته الغريبة وقال: «أنا أكره غرفة نومي، ولم أستطع أن أبقى فيها، فهي جد صغيرة».

«تعال! تعال! أتعبني تصنعك، فأنت لم تشك منها قط قبل الآن».

وإلى هذا لست أستطيع أن أرى شيئًا: فلا أزهار، ولا أوراق أشجار، ولا سماء، وإنما حائطًا من الحجر فقط، نعم، كان المنظر الذي تطل عليه غرفة يوستيس محدودًا، غير أن يوستيس - كما قلت له - لم يشك منها قط قبل الآن.

- «يوستيس، أنت تتكلم كما يتكلم الطفل، ادخل! أرجوك الطاعة الناجزة».

ولم يتحرك.

فقلت: «حسن جدًّا، سأحملك بالقوة وأدخل بك»، ومشيت في اتجاهه بضع خطوات، غير أنني اقتنعت تَوًّا بسخافة ملاحقة غلام خلال شبكة من ممرات الأسفلت ودخلت - بدلًا عن ذلك - لأستعين بمستر ساندباتش وليلند.

وإلى أن عدت بهما كان يوستيس أسوأ منه في جميع ما سبق من أحواله، فهو لم يشأ أن يجينا عندما وجهنا إليه الكلام، بل أخذ يغني ويثرثر لنفسه في صورة جد مزعجة.

فقال مستر ساندباتش وهو يدق جبينه دقًّا شديدًا: «حالته الراهنة من شأن الأطباء».

توقف يوستيس عن الجري وأخذ يغني في صوت خفيض - أول الأمر - ثم رفعه منشدًا من تمارين الأصابع الخمس والمقامات والأناشيد ومقطوعات فاجنر ومن كل ما حضره، ثم أخذ صوته - البالغ التشويز - يَطْرُد في الارتفاع حتى انتهى بصيحة هائلة دوت كما يدوي الطلق الناري بين الجبال وأيقظت كل من بقي - بعد - نائمًا بالفندق، وأطلت زوجي المسكينة والفتاتان من نوافذهن المتجاورة، وسمعت السيدتان الأمريكيتان تدقان الجرس دقًّا عنيفًا.

وصحنا جميعًا: «يوستيس، كفى كفى أيها الولد العزيز وادخل الدار»، فهز رأسه وعاد فانطلق، في الكلام هذه المرة، وأنا لم يسبق لي قط الاستماع إلى خطاب غريب كهذا، ولو أنه أُلقي في وقت آخر لكان مدعاة للسخرية، فنحن إزاء صبي، لا يتذوق الجمال ولا يحتكم إلا على السخيف من الكلم، يحاول أن يقبض على ناصية موضوعات

ألفاها فطاحل الشعراء فوق مستوى قدرتهم في غالب الأمر، فلقد وقف يوستيس روبنسن- وهو في الرابعة عشرة، في قميص نومه- يحيي ويمتدح ويبارك قوى الطبيعة الضخمة ومظاهرها.

تكلم- أول ما تكلم- عن النجوم والكواكب التي فوق رأسه، وأسراب اليراع^(١) التي تحته، والبحر غير المرئي تحت ذاك اليراع، والصخور الكبرى التي تغطيها شقائق النعمان^(٢)، والأصداف الهاجعة في البحر غير المرئي، وتكلم عن الأنهار والشلالات، وعناقيد العنب الناضجة، ومخروط فيزوف الذي ينبعث منه الدخان، وقنوات النار التي تصنع هذا الدخان، وعشرات الآلاف من العظايا (السحالي) التي ترقد متحوية في شقوق الأرض الحارة الرطبة، وشآبيب أوراق الورد الأبيض المعقودة في شعره، ثم تكلم عن المطر والريح اللذين يتغير بهما كل شيء، والهواء الذي تحيا بتنفسه جميع الكائنات، وعن الغابات التي يمكن أن يختبئ فيها كل شيء.

كان الخطاب كله- بطبيعة الحال- محشواً بالخطأ الكثير السخيف، ومع ذلك فقد حدثتني نفسي بأن أركل ليلند عندما علق في صوت مسموع بقوله: «إنه كان صورة شيطانية ساخرة لأقدس الأشياء وأجملها في الحياة».

«ثم..» وأخذ يوستيس يستأنف شعره الخطابي الركيك المكسور الذي يرثى له والذي هو أسلوبه الوحيد في التعبير، «... ثم إن هناك رجلاً

(١) اليراع- أو الجحاحب (بضم الحاء الأولى)- ذباب يطير في الليل كأنه نار.

(٢) شقائق النعمان أو أزهار الريح- نبات أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء، ومفرده شقيقة النعمان.

ولكنني أعجز عن أن أفهمهم كل الفهم» وركع إلى جوار الحاجز وأرسي رأسه على ذراعيه».

فهمس ليلند: «لقد آن الأوان، أنا أكره الخلسة»، غير أننا انطلقنا إلى أمام وحاولنا أن نقبض عليه من خلف، فانفلت في طرفة عين، ولكنه استدار بغتة لينظر إلينا، وكان يبكي، فيما استطعت أن أرى، على ضوء النجوم، اندفع إليه ليلند مرة أخرى وحاولنا حصره بين ممرات الأسفلت ولكن دون أي أمل يبشر بالنجاح.

فعدنا لاهئين مدحورين وتركناه لجنونه في ركن الشرفة الأقصى، غير أن ابنتي روز خطرت لها فكرة.

هتفت من النافذة: «يا أبت، إذا أتيت بجنارو فقد يستطيع أن يقبض لك عليه».

ولم أشأ أن أسأل جنارو معروفًا، ولكن لما كانت صاحبة الفندق ظهرت في مكان الحادث رجوتها أن تستدعيه - من صندوق الفحم الذي كان نائمًا فيه - وتهيب به أن يبذل جهده.

عادت مسرعة وتبعها جنارو، وقد تسربل بستره العمل الرسمية - من دون صدرية أو قميص أو ثوب ما - ولبس تحتها شيئًا مهلهلاً كان يومًا سروالًا، وقد قص من فوق ركبتيه لاستعماله في الخوض، فنهرته صاحبة الفندق - التي نقلت الأساليب الإنجليزية - على المظهر غير الملائم بل الشائن الذي ظهر به.

«لبست ستره وسروالًا، فما تطليبن مني أكثر من هذا؟».

وتدخلت في الحديث قائلاً: «لا عليك يا سنيورا سكافيتي، وبما أنه ليس هنا سيدات فلم يترتب على هندامه هذا أية نتائج» ثم تحولت إلى جنارو وقلت له: «ترجوك خالتا السنيور يوستيس أن تأتي به إلى داخل الفندق».

فلم يجب.

«أسمعني؟ إن صحته ليست على ما يرام. وأنا آمرك أن تأتي به إلى داخل الفندق».

وقالت السنيورا سكافيتي: «أنت به؟ أنت به!» وهزته من ذراعه هزة عنيفة.

«يوستازيو في صحة جيدة حيث هو».

فصاحت السنيورا سكافيتي قائلة: «إيت به! إيت به!» وأطلقت طوفاناً من اللغة الإيطالية يسرني أن أقول إنني لم أفهم معظمه، فنظرت إلى نافذة الفتاتين في عل نظرة سريعة عصبية، غير أنهما لا تكادان تعرفان من هذه اللغة أكثر مما أعرف، وأحمد الله على أن أحداً منا لم يفهم كلمة واحدة من إجابة جنارو.

فزق الاثنان وصيَّح كل منهما بالآخر أكثر من عشر دقائق، ثم اندفع جنارو منقلباً إلى صندوق الفحم الذي يأوي إليه، وانفجرت السنيورا سكافيتي منتحبة - وهي في هذا جد معذورة - لأنها تحترم كثيراً ضيوفها الإنجليز.

نهنت باكية وهي تقول: «يقول إن السنيور يوستيس في صحة جيدة

حيث هو وإنه لن يأتي به، وأنا ليس في مقدوري عمل شيء بعد». ولكن وسعني أنا، لأنني - مع أسلوب الإنجليزي الغبي - على بصيرة بالخلق الإيطالي، تبعت مستر جنارو إلى مضجعه وألفيته متحويًا فوق زكية قدرة.

وبدأت: «أطلب إليك أن تأتي بالسنينور يوستيس». فرماني بإجابة لم أستبئها. «إذا أتيت به أعطيتك هذي» وأخرجت من جيب ورقة مالية جديدة من ذوات العشر الليرات! ولم يجب هذه المرة. فاستأنفت الكلام قائلاً: «هذه الورقة تساوي عشر ليرات فضية»، قلت هذا لعلمي أن الإيطالي من الطبقة الفقيرة لا يسعه أن يتصور قدرًا كبيرًا من المال في عملة موحدة. «أعرف ذلك».

«وهي تساوي مائتي صلدي». «لست أبتغيها، فيوستازيو صديقي». وأعدت الورقة إلى جيب. «والى هذا فما أنت بمعطيني إياها». «أنا رجل إنجليزي، والإنجليز إذا وعدوا وفوا بوعدهم». «هذا صحيح». والغريب أن أكثر الأمم غشًا يثق بنا أكثر مما يثق

بعضنا ببعض. ركع جنارو على ركبتيه غير أن الظلمة كانت حالكة إلى حد أنني لم أستطع رؤية وجهه، ومع ذلك وسعني أن أحس نفسه المشيع بالثوم يخرج زفرات، وكنت أعلم أن طمع أهل الجنوب السرمدى قد استولى عليه.

«لا يمكننى أن آتى بيوستازيو إلى الفندق، فقد يموت هناك».

فأجبت مصابراً: «لا حاجة لك بهذا، ولكن إيت به إليّ، وسأقف في الخارج بالحديقة» وأذعن الشاب - الذي يستحق الرثاء - لهذا كأنه مطلب آخر.

«ولكن أعطني أولاً العشر الليرات».

«كلا»، ذلك لأننى أعرف مع أى شخص أتعامل، ومن يغدر مرة يبق كذلك أبداً.

عدنا إلى الشرفة، وتوجه جنارو - دون أن ينبس بكلمة واحدة - صوب صوت خطوات يوستيس التي أمكن سماعها في الطرف الأقصى. وابتعدنا قليلاً - مستر ساندباتش وليلند وأنا - عن مبنى الفندق ووقفنا في ظل شجرة الورود البيضاء المتسلقة مختفين عن الأنظار.

وسمعنا النداء «يوستازيو» متبوعاً بصيحات فرح سخيفة صادرة عن الصبي المسكين، وتوقفت الطقطقة، وسمعناهما يتحادثان، ودنا صوتاهما، وإذ ذاك وسعني أن أميزهما من خلال النبات المتسلق، ميزت هيئة الشاب القبيحة والصبي الصغير النحيل ذي القميص الأبيض، وكان جنارو يلف ذراعه حول رقبة يوستس الذي أخذ يتابع التحدث باللسان

الإيطالي الطليق الكثير الزلل.

وسمعته يقول: «أكاد أعرف كل شيء: الشجر والتلال والنجوم والماء، ويسعني أن أراها جميعاً، ولكن أليس غريباً أنه لا يسعني ألبة فهم الرجال؟ أتدرك ما أعني؟».

فقال جناو في رزاة: «فهمت» وسحب ذراعه من كتف يوستيس، فجعلت الورقة المالية تخشخش في جيبي وقد سمعها، فرفع يده ودفعها فما كان من يوستيس إلا أن شبك فيها يده غير مرتاب.

واستأنف يوستيس الكلام قائلاً: «هذا غريب!» وكانا قد اقتربا الآن كل الاقتراب: «يبدو غالباً كأنما... كأنما...».

وثبت عليه وأطبقت على ذراعه وقبض ليلند على الذراع الأخرى وتعلق مستر ساندباتش بقدميه، فأطلق صرخات حادة تخرق القلب، وهطل عليه الورد الأبيض الذي بكر سقوطه ذلك العام وذلك بينما كنا نجره إلى الفندق.

وما إن دخلنا الدار حتى كف عن الصراخ، غير أن طوفاناً من الدموع تفجر في صمت وانتشر على وجهه الذي تقلب إلى أعلى.

وتوسل: «لا إلى غرفتي فهي جد صغيرة».

وملاطني نظرتة البالغة الإيلام تحناناً غريباً، ولكن ما عساي أن أصنع؟ هذا إلى أن نافذته هي الوحيدة التي بها قضبان من حديد.

فقال مستر ساندباتش الرءوف: «لا عليك أيها الولد العزيز، فسأؤنسك حتى الصباح».

وهنا بدأ من جديد نضاله المتشنج قائلاً: «أوه، ليس هذا- أرجوكم- أي شيء عدا هذا، وإذا تركتموني وحدي وعدتكم بالرقاد في سكون وبمحاولة الكف عن البكاء».

وعلى هذا أرقدناه على السرير وسحبنا فوقه الملاءات وتركناه ينهه في مرارة ويقول: «لقد رأيت كل شيء تقريباً، أما الآن فلا قبل لي على رؤية شيء بتأناً».

أبلغنا الآنستين روبنسن بكل ما جرى ورجعنا إلى حجرة الطعام حيث وجدنا السنيورة سكافيتي وجنارو يتهاامسان، وأحضر مستر ساندباتش قلمًا وورقة وأخذ يكتب للطبيب الإنجليزي في نابولي، وسحبت أنا الورقة المالية في الحال ورميتها لجنارو على المنضدة.

وقلت: «هاك أجرك»، قلت هذا في تجهم لأني كنت أفكر في قطع النقود الفضية الثلاثين.

فقال جنارو وهو يختطفها: «شكرًا، سيدي».

وفيما هو يهم بالذهاب استعلم منه ليلند- الذي ما ينفك يخطئ سواء في توجيه اهتمامه أو في عدم اكترائه- ماذا عنى يوستس بقوله: «لا يسعني ألبتة فهم الرجال».

«لا يمكنني الجزم بذلك، فالسنيور يوستازيو (وقد سرنى أن ألاحظ بعض الاحترام آخر الأمر) له بصيرة نافذة وهو واسع الإدراك».

فأصر ليلند قائلاً: «ولكني سمعتك تقول إنك فهمت».

«فهمت غير أنني ما أستطيع إيضاحًا، فأنا إيطالي صبي سماك مسكين،

ومع هذا استمع إليّ: سأجرب»، ولما رأيت أن حالته النفسية آخذة في التغير انزعجت وحاولت وقفه، إلا أنه جلس على حافة المنضدة وانطلق يبدى بعض ملاحظات غير متماسكة.

وقال ملاحظاً آخر الأمر: «هذا محزن، هذا الذي حدث جد محزن، ولكن ما الذي يسعني صنعه، أنا مسكين، ولست أنا الفاعل».

تحولت مزدرياً، واستطرد ليلند يوجه أسئلة مستهدفاً معرفة من عناه يوستس عندما تكلم.

فأجاب جنارو جاداً: «من السهل القول بأنه كان يعينك.. كان يعينني.. كان يعني كل من بالدار وكثيرين خارجها.. فهو إذا نشد المرح ضايقناه، وإذا طلب الوحدة أزعجناه، سعى إلى الصديق خمسة عشر عاماً ولم يجده، ثم وجدني، ولكني - أنا الذي عشت في الغابات وأفهم كذلك بعض الأمور - بعته لكم وأدخلته ليموت، ولكن ما الذي كان يسعني صنعه؟».

فقلت: «رويدك رويدك».

«سيموت يقيناً، سيرقد في الغرفة الصغيرة الليل كله، ثم يصبح ميتاً. هذا مؤكد».

فقال مستر ساندباتش: «يا هؤلاء، هذا يكفي، سأبقى معه».

«لقد بقيت فيلومينا مع كاترينا الليل كله ومع ذلك فقد ماتت كاترينا في الصباح، ومع أنني رجوت وتوسلت ولعنت ودققت الباب وتسلفت الجدار، فإنهم لم يمكنوها من الخروج، لقد كانوا جهلة حمقى وظنوا

أني أود خطفها، وفي الصباح ماتت».

سألت السنيورة سكافيتي: «ما كل هذا؟».

أجابت: «سيذيع كل أنواع الحكايات، على أنه أول من يجب عليه عدم إعادتها».

فاستأنف كلامه قائلاً: «أنا الآن على قيد الحياة؛ لأنني لم يكن لي أبوان ولا أقرباء ولا أصدقاء.. ولما حلت الليلة الأولى وسعني الجري في الغابات وتسلق الصخور والغطس في الماء، حتى أشبعت رغبتني!». وسمعنا صرخة صادرة عن غرفة يوستس، وكان الصوت خافتاً، ولكن في مثابة كصوت الريح في الغابة يسمعه امرؤ يقف في هدوء.

قال جنارو: «كانت تلك آخر صرخات كاترينا، كنت إذ ذاك أتطلع إلى نافذتها فمرت بسمعي مدوية».

ورفع يديه - اللتين صرّت فيهما ورقتي المالية ذات العشر الليرات - ولعن، جاداً، مستر ساندباتش وليلند كما لعني ولعن القدر؛ لأن يوستيس كان يحتضر في غرفته بالطبقة العليا، وهذا مثل من عقلية أهل الجنوب. وإني لأعتقد اعتقاداً راسخاً بأن جنارو لم يكن ليتحرك، حتى في ذاك الوقت، لو لم يقلب السرج بذراعه ليلند الذي لا سبيل إلى وصف حماقته، وكان مصباحاً من النوع المضمون الذي ينطفئ تلقائياً ابتاعته السنيورة سكافيتي بناء على رجاء خاص مني - ليحل محل الشيء الخطر الذي كانت تستعمله، وكانت النتيجة أنه انطفأ، وكان لمجرد تغيير الطبيعة من نور إلى ظلام سلطان على طبيعة جنارو الحيوانية الجاهلة،

سلطان أقوى من أجلى مقتضيات العقل والمنطق.

وأدركت ببصيرتي لا ببصري، أنه زایل الغرفة وصحت بمستر ساندباتش: «هل مفتاح غرفة يوستس في جيبك؟» غير أن مستر ساندباتش وليلند كانا على الأرض وأخطأ كل منهما رفيقه على أنه جنارو، وضاع مزيد من الوقت الثمين في طلب عود ثقاب، ولم يكد مستر ساندباتش يقول إنه ترك المفتاح في الباب - احتياطاً فقد ترغب الأنستان روبنسن في زيارة يوستس - حتى سمعنا ضوضاء على درج السلم، وهناك كان جنارو يحمل يوستس وينزل به.

تدافعنا نحن حتى سدنا الممر، أما هما فقد خارت قواهما وانقلبا إلى بسطة السلم العليا.

وهتفت السنيورة سكافيتي: «الآن سدت عليهما المسالك وليس لهما مخرج آخر».

وفيما كنا نصعد الدرج حذرين صدرت عن غرفة زوجي صيحة مروعة تبعها صوت سقطة شيء ثقيل على ممر الأسفلت، لقد قفزا من نافذتها.

وما إن بلغت الشرفة حتى رأيت يوستس يقفز سور جدار الحديقة، وفي هذه المرة أيقنت أنه مقتول لا محالة، غير أنه استقر على شجرة زيتون، كأنه فراشة بيضاء..

ومنها زلج إلى الأرض.

ولم تكد قدماء العاريتان تسمان كتل الطين المتجمدة حتى صرخ

صرخة عالية لم أكن لأصدق أن صوت الإنسان يستطيع أن يرسل مثلها،
ثم اختفى الصبي بين الأشجار.

فهتف جنارو الذي كان لا يزال جالسًا على ممر الأسفلت: «لقد فهم
ونجا، وتحول مصيره الآن من موت إلى حياة!».

«وأنت ستعيد العشر الليرات بدلًا من الاحتفاظ بها» وجهت إليه هذا
الكلام ردًا على إهانته إذ إنني - لدى سماعي تلك الملاحظة المسرحية -
لم أعد أتمالك نفسي.

فردني همس لا يكاد يسمع، قائلاً: «العشر الليرات لي أنا»، وشبك
أنامل يديه على صدره ليحمي ذمار^(١) كسبه غير المشروع، وفيما هو
يصنع هذا ترجح إلى أمام وانكفأ على وجهه فوق الممر، فلم ينكسر من
أطرافه شيء وإن قفزةً من هذا الطراز ما يكون لها أبدًا أن تقضي على رجل
إنجليزي؛ لأن السقطة لم تكن قوية. أما أولئك الإيطاليون التاعسون فهم
لا يتمتعون بقوام القوة، لقد اختل شيء ما في جوارحه فمات.

كان الصباح لا يزال بعيدًا، ثم أخذ نسيمه يهب، وسقط فوقنا مزيد
من أوراق الورد إذ نحمله إلى الداخل، وانفجرت صيحات الأسى من
سكافيتي لدى رؤية جثة جنارو، بينما كانت صيحات الصبي الهارب
وقهقهته لا تزال تدوي هنالك في أسفل الوادي على مقربة من البحر.



(١) ما ينبغي الدفاع عنه.

الجانب الآخر من السياج

أشار مقياس الخطى الذي أحمله إلى أن ترتيبى الخامس والعشرون، ومع أن التوقف عن المسير معيب جدًا، فقد جلست فوق أحد شخوص (علامات) المسافات لأستريح لأننى كنت جد متعب، وكان الناس كلما تقدمونى سخروا منى ولكنى كنت أكثر جمودًا من أن أمتعض. وحتى عندما سبقتنى المربية الكبيرة مس إليزا دمبلي - وحضنتى وهى تمر بى على المثابرة - فإنى لم أزد على أن ابتسمت ورفعت قبعتى.

وجال بخاطري أول الأمر أننى سأصبح كأخى الذى كان على تركه إلى جوار الطريق العامة عند الزاوية، منذ سنة أو سنتين... لقد بدد أنفاسه فى الغناء وأفنى قوته فى مساعدة الآخرين. أما أنا فقد كنت فى طوافى أكثر منه تعقلاً، ولم يقبض صدري الآن إلا رتابة الطريق العامة - تراب تحت قدمى وسياجات سمراء داكنة تتكسر على الجانبين، فيما أستطيع أن أذكر.

وقد سقطت منى أشياء كثيرة، وفى الواقع كانت الطريق تتناثر عليها الأشياء التى تسقط منا جميعاً، والتراب الأبيض يستقر عليها فلا

تعود تبدو خيرًا من الحجارة، وكانت عضلاتي منهوكة إلى درجة أنني لم أستطع أن أحتمل حتى ثقل تلك الأشياء التي تبقّت معي، فزljت، من فوق أحد شواخص المسافات، إلى الطريق، وهناك رقدت منهوك القوى متجهًا بوجهي إلى السياج الكبير الذي لوحته الشمس راجيًا أن أقر بالعجز.

أنعشتني نفحة من الريح لاح أنها صادرة عن السياج، فلما فتحت عيني تألقت ومضة من النور من خلال شبكة الغصون وأوراق الشجر الخاملة، ولما لم يكن السياج كثيفًا كغيره فإني - في حالة ضعفي الويلة - تقت إلى أن أقتحمه لأرى ماذا في الجانب الآخر، ولم يكن أحد يراني وإلا لما اجترأت على التجربة؛ ذلك لأننا - نحن رجال الطريق - لا نسلم في أحاديثنا بأن هناك جانبًا آخر على الإطلاق.

خضعت للإغراء على اعتبار أنني عائد عما قليل.. خدش الشوك وجهي واضطرتت إلى أن أتخذ من ذراعي درعًا معتمدًا في التقدم على قدمي وحدهما، وفي منتصف الطريق جال بخاطري أن أعود أدراجي لأن الأشياء التي كنت أحملها اشتبكت كلها وانتزعت مني في أثناء اجتيازي كما أن ملابسني تمزقت، غير أنني ألفت نفسي محشورًا حشرًا يجعل رجوعي مستحيلًا، ولكنني أخذت أزج بنفسني مقاومة عمياء كي أتقدم متوقعًا في كل لحظة أن يخونني تجلدي وأن أهلك بين الرتم^(١).

وإذا بالماء البارد يغمر رأسي فجأة ويطبّق عليه، وبدا أنني غارق لا محالة، سقطت من السياج في بركة عميقة ارتفعت آخر الأمر إلى سطحها

(١) الرتم (بفتحتيْن) نوع من الشجر بذره كالعدس، والواحدة: رتمة.

أستصرخ للنجدة، وسمعت امرأً ما في الجانب الآخر يضحك ويقول: «واحد آخر!»، ثم انتشلت وألقيت - لاهثاً - على الأرض الناشفة.

وظللت مخطوف البصر حتى بعد أن زال الماء عن عيني؛ لأنني لم أصادف قط فضاء رحباً كهذا، ولم تسبق لي رؤية الكلاً أو ضوء الشمس على نحو ما رأيتهما الآن. فالسمااء الزرقاء لم تعد شقة مستطيلة كعهدي بها قبل، والأرض من تحتها ترتفع ارتفاعاً فخماً إلى التلال، وفي أحضان الربى دعائم عارية نظيفة تحتضن أشجار الزان، وتحت أقدامها المروج والغدران الصافية، إلا أن التلال لم تكن عالية، ونمّ المنظر على معنى من أثر عمل الإنسان حتى ليحمل أن يسمى متنزهاً أو بستاناً، إن لم يكن في التسمية ما يوحي بأنه تافه أو محدود.

ولم أكد أثوب إلى رشدي حتى تحولت إلى منقذي قائلاً:

«إلى أين يؤدي هذا المكان؟».

فقال ضاحكاً: «إلى لا مكان. حمداً لله!».

وكان رجلاً في الخمسين أو الستين من عمره، تلك السن التي لا نأمن أصحابها في الطريق، غير أن حاله لم يبد منها سوء نية، وقد كان صوته يحكي صوت صبي في الثامنة عشرة.

فصحت يملكني، من إجابته، عجب أنساني أن أحمد له إنقاذ حياتي: «ولكن لا بد من أنه يؤدي إلى جهة ما!».

فزعق في عدد من الرجال كانوا على صفحة التل: «يود أن يعرف إلى أين يؤدي!» فضحكوا بدورهم ولوحوا بالطواقي.

لحظت إذ ذاك أن البركة التي تردت فيها إن هي إلا خندق كالحلقة ملؤه الماء، ينثني يمنة ويسرة، وأن السياج يلزمه في اطراد، لقد كان السياج من تلك الناحية أخضر، وكانت تلوح من الماء الصافي جذوره يحوم السمك خلالها، وكان يحيط به ويتشابك معه الورد البري وغصون أشجار الرحالة، ولكنه كان سياجًا على كل حال، وما هي إلا هنيهة حتى زایلني الارتياح من الكلاء والسماء والشجر والسعداء من الرجال والنساء، وأدركت أن المكان، مع كل جماله وامتداده، لم يكن إلا سجنًا.

سرنا بعيدًا عن الحدود ثم اتبعنا سراطًا يكاد يوازيه عبر المرح، ووجدت المشي عسيرًا لأنني كنت أحاول دواءً أن أسبق رفيقي، وأية جدوى في ذلك ما دام المكان لا يؤدي إلى أية جهة، وأنا، منذ تركت أخي، لم أسوّ بين خطوي وخطو غيري.

ألهيته بأن وقفت فجأة وقلت في اكتئاب: «الأمر جد مروع، لا يستطيع امرؤ أن يجد في السير، لا يستطيع أن يتقدم، والآن، نحن رجال الطريق...».

«نعم أعرف».

«كنت سأقول إننا نتقدم باطراد».

«أعرف».

«نحن ما ننفك نتعلم ونتوسع وننضج... كيف تأتي أنني، حتى في حياتي القصيرة، رأيت كثيرًا من التقدم: حرب الترنزفال - مسألة بيت المال - العلم المسيحي - الراديوم - وهذا المكان مثلاً؟».

وأخرجت مقياس الخطى الذي أحمله ورأيت أنه لا يزال يشير إلى أن ترتيبى الخامس والعشرون، ولم أتقدم درجة واحدة.

«أوه، لقد توقف! وكنت في سبيل أن أريكه. وكان عليه أن يستمر في التسجيل طوال الوقت الذي سرت فيه وإياك، ولكنه لم يشر إلى تقديمي عن الخامس والعشرين».

فقال: «كثير من الأشياء تتوقف هنا عن العمل، وقد أتى رجل يومًا بجهاز (لي متفرد) فلم يشتغل».

«النواميس العلمية عامة في تطبيقها في أي مكان من العالم، ولا بد من أن يكون الماء الذي في الخندق هو الذي أفسد الآلة؛ لأن كل شيء يشتغل في الظروف العادية، والعلم وتنازع السبق هما القوتان اللتان صيرتنا إلى ما نحن عليه».

وكان عليّ أن أتوقف عن الحديث كي أرد التحيات الطيبات على من كنا نمر بهم، كان بعضهم يغني والبعض يتحادث، بينما يعمل آخرون في الحداثق أو الدراس أو في صناعات أولية أخرى، وبدأت السعادة عليهم جميعًا، ولو استطعت نسيان أن المكان لا يؤدي إلى أية جهة لسعدت مثلهم.

وأفزعتني رؤية شاب جاء وعدا عبر طريقنا، ونط سياجًا صغيرًا في أسلوب رقيق وشق طريقه في حقل محروث، ثم وثب في بحيرة وأخذ يقطعها سبحًا، هاك نشاطًا حقيقيًا حداني على أن أهتف: «سباق خلوي! ولكن أين الآخرون؟».

فأجاب زميلي: «ليس هناك آخرون» وعندما مررنا فيما بعد على بعض الكلاّ العالي الذي جاء فيه صوت فتاة تغني لنفسها غناء عذبًا، قال مرة أخرى: «ليس هناك آخرون»، وقد حيرني تلف المحصول ودمدمت قائلاً لنفسِي: «ما معنى كل هذا؟».

فقال مجيئًا: «لا معنى له إلا ما يعنيه»، وكرر الألفاظ مستأنثًا كأنني طفل.

قلت في هدوء: «مفهوم، ولكني لا أجاريك، فكل عمل عظيم يصبح عقيمًا ما لم يكون حلقه في سلسلة التطور. ومن واجبي ألا أغلو في اغتنام عطفك، وينبغي لي أن أعود إلى أي مكان في الطريق لأعمل على إصلاح مقياس الخطى».

فأجاب: «عليك أولاً أن ترى الأبواب الكبرى، فلدينا منها بضعة وإن لم نستعملها قط».

أذعنت في أدب، وما هو إلا القليل حتى بلغنا الخندق مرة أخرى عند نقطة تقطعها فيها قنطرة، وفوق تلك القنطرة باب كبير أبيض كالعاج مركب إلى ثغرة في سياج الحدود، وكان الباب يفتح إلى الخارج، فصحت في دهشة، إذ منه يتصل بطريق تماثل تمامًا الطريق التي زيارتها، طريق غزيرة التراب يقوم على جانبيها، على مدى النظر، سياجان من الغصون السمراء المتكسرة.

صحت قائلاً: «تلك طريقي!».

فأغلق الباب وهو يجيب: «إنها ليست الجزء الذي قطعته من

الطريق... فمن هذا الباب الكبير خرجت الإنسانية، منذ أجيال لا تحصى،
أول ما تملكتهما الرغبة في المسير».

أنكرت هذا، ملاحظاً أن الجزء من الطريق الذي زایلته لا يبعد أكثر
من ميلين، إلا أنه أجاب في عناد الشيوخ: «إنها الطريق ذاتها، تلك هي
البداية، ومع ما يبدو من أنها تجري بعيداً عنا كل البعد، فإنها كثيراً ما
تزدوج ولا تنأى أبداً عن حدودنا بل هي تمسها أحياناً»، وانحنى إلى
جوار الخندق ورسم على حاشيته الرطبة شكلاً غريباً كوادي التيه، وفيما
كنا عائدین عبر المروج حاولت أن أقنعه بخطئه.

«تزدوج الطريق بكل تأكيد في بعض الأحيان، إلا أن هذا يدخل في
تدريتنا الرياضي، ومن ذا الذي يستطيع أن يجادل في أنها، في عمومها،
تسير إلى أمام؟ نحن لا نعرف إلى أين تنتهي، فقد تؤدي إلى جبل ما
يتسنى لنا فوکه أن نلمس السماء، وقد تعلو جرفاً يهوي إلى البحر، ولكنها
على كل حال تسير إلى أمام، ومن ذا الذي يجسر على الارتياح في هذا؟
على أن التفكير على هذه الصورة هو الذي يحدونا إلى المكافحة في
سبيل التفوق - كل على طريقته الخاصة - كما يمدنا بالقوة الدافعة التي
تعوزكم، أما ذلك الرجل الذي سبقنا، فالحق أنه أحسن الجري والقفز
والسباحة، ولكن لدينا من الرجال من يقدر على الجري أو القفز أو
السباحة خيراً مما يفعل، والتخصص يؤتي ثماراً تثير دهشتك، وتلك
الفتاة، بالمثل...».

وهنا قطعت الكلام فجأة وهتفت: «يا الله! أكاد أحلف أن التي هناك
هي مس دمبلي بقدميها في البركة!».

واقتنع بأنها هي.

«مستحيل! لقد تركتها في الطريق، ثم إن عليها أن تحاضر هذا المساء في تمبرج ولز، وقطارها يقوم من شارع كمن في الساعة... لقد توقفت ساعتني بطبيعة الحال ككل شيء آخر، إنها آخر من يحق له أن يبقى هنا».

«الناس يدهشون دواءً كلما لقي بعضهم البعض، وهم يجيئون من خلال السياج من كل جنس وفي كل وقت: عندما يسرعون في السباق، وعندما يتخلفون، وعندما يتركون كالموتى بلا حراك، وكثيراً ما أقف على مقربة من الحدود مصغياً إلى أصوات المارة الصادرة عن الطريق - وتعلم ما هي - وأتساءل هل ينشني أحدهم جانباً، ويسعدني كثيراً أن أعين أي امرئ على الخروج من الخندق كما أعتك، على أن تقاطر الناس على بلادنا بطيء وإن خلقت لكل أجناس البشر».

وإذ كنت أحسبه حسن القصد، فقد أجبته ملاطفاً: «للناس أهداف أخرى ولا بد لي من اللحاق بهم» وحيته تحية المساء؛ لأن الشمس كانت قد أذنت بمغيب، ولأنني أزمعت بلوغ الطريق لدى هبوط الليل، غير أنه أزعجني بأن تشبث بي وصرخ قائلاً: «ليس لك أن تذهب بعد»، فحاولت التملص منه، إذ لا تجمعنا مصالح مشتركة؛ ولأن أدبه الجرم أخذ يشق عليّ، ومع كل جهودي لم يحل الشيخ الممل بيني وبين الذهاب، ولما لم أكن متخصصاً في المصارعة فقد وجدني مضطراً لاتباعه.

صحيح أنني لم أكن لأعثر، بمفردي، على المكان الذي دخلته، وأنني وددت أن يعود بي إليه بعد أن أشهد المناظر الأخرى التي كانت

تشغل باله، ولكنني كنت مصممًا على ألا أبيت في الخلاء لريتي فيه وفي الناس أيضًا مع كل ما يبدون من مودة، ومع أنني كنت جوعان، فإني لم أشاركهم عشاءهم من اللبن والفاكهة، وكنت كلما ناولوني أزهارًا أقذف بها بعيدًا فور استطاعتي فعل ذلك دون أن يروني، ثم ما لبثوا أن رقدوا ليلاً كالبهائم، بعضهم وحدانًا على صفحة الجبل العارية، وبعضهم زرافات تحت شجر الزان، وعلى ضوء الشمس الغاربة البرتقالي، حثت المسير مع مرشدي الثقيل الظل وقد برح بي التعب وأضناني الجوع، ومع ذلك تمتت في صلابه قائلاً: «امنحني الحياة بما فيها من نضال وانتصار، وبما تحوي من خيبة وبغضاء، وبمعانيها الخلقية العميقة وأهدافها الخفية!».

وبلغنا آخر الأمر مكانًا، فيه تقوم على الخندق المستدير قنطرة أخرى، ويعترض خط سياج الحدود باب كبير آخر، يغير الأول لأنه نصف شفاف كالقرن، ولأنه ينفتح إلى داخل، ومن خلاله رأيت، مرة أخرى على الضوء الآخذ في الاضمحلال، طريقًا تحكي تمامًا الطريق التي كنت زائلتها: رتبة غزيرة التراب، على جانبيها سياجان، من الغصون السمراء المتكسرة، يمتدان إلى مرمى البصر.

وتملكني اضطراب عجيب لدى شهود هذا المنظر الذي لاح كأنه سلبني كل مقدرة على ضبط نفسي: مر بنا رجل - عائد إلى الجبل لبيت ليلته - على منكبيه منجل، وفي يده كوز يحتوي سائلًا ما، فنسيت مصير البشرية ووثبت عليه، وملخت الكوز من يده وأخذت أشرب.

لم يكن السائل أقوى من البيرة، إلا أنه - بسبب حالتي المضنية - تسلط عليّ في لحظة واحدة، وكما قد يحدث في حلم، رأيت الشيخ

يقفل الباب الكبير، وسمعتة يقول: «هذه غاية طريقك، ومن هذا الباب الكبير ستدخل علينا الإنسانية، أو قل كل ما تخلف عنها».

ومع أن حواسي أخذت تغرق في لجة من النسيان، فقد بدا أنها تمتد قبل بلوغها إياها، واستشعرت أغنية العنادل^(١) السحرية، وأريج الدريس غير المرئي والنجوم التي تثقب السماء الحائلة، أما الرجل الذي سرقت بيرته فقد أُرْخاني في رفق لأنام حتى يذهب تأثيرها، وعندما فعل هذا أدركت أنه أخي.



(١) العنادل جمع عندليب وهو طائر صغير حسن الصوت.

الأنيبوس السهاوي

- ١ -

كثيراً ما كان الصبي - المقيم في أجاثوكس لودج رقم ٢٨، بكنجهام بارك رود، سربتون - يتحير من عمود العلامة القديم القائم قبالة تقريياً. وقد سأل أمه عنه، فأجابت بأنه دعابة، بل دعابة غير سائغة صنعها، لسنوات عديدة خلت، شباب خبيث، وبأن من واجب الشرطة إزالته، ذلك أن عمود العلامة كان يتسم بسمتين غريبتين: الأولى، أنه يشير إلى سكة فارغة. والثانية، أنه نقش عليه بمداد حائل عبارة: «إلى السماء».

فسأل: «وأي نوع من الشباب كانوا؟».

«قال لي أبوك، فيما أظن، إن أحدهم كان يكتب شعراً وطرده من الجامعة، ومسه الضر من أمور أخرى. أجل، حدث هذا منذ عهد بعيد، وعليك أن تسأل عنه أباك، وسوف يجيبك بمثل ما حدثتك به. أي أن عمود العلامة أقيم على سبيل الدعابة».

«وإذن فلا معنى له على الإطلاق».

وهنا أرسلته إلى الطبقة العليا من المنزل ليرتدي أحسن ملابسه؛ لأن أسرة بونس مدعوة لتناول الشاي، وأن عليه هو أن يناول حمالة الفطائر.

فجال في خاطره - وهو يتلوى في سروائته البالغة الضيق - أن يلجأ إلى أخف الضررين وهو أن يسأل، عن عمود العلامة، مستر بونس؛ ذلك لأن أباه - وإن يكن شديد الرفق - يسخر منه ويضح ضاحكًا كلما أخذ، هو أو أي صبي غيره، يسأل أو يتكلم. أما مستر بونس، فهو رفيق ورزين في وقت معًا، وله بيت جميل، ويعير الناس كتبًا، وهو وكيل كنيسة ومرشح لمجلس الإقليم، وقد قدم إلى مجلس المكتبة الحرة هبات لا حصر لها، وهو رئيس الجمعية الأدبية، ويستقبل في بيته بعض أعضاء البرلمان، وقد يكون إجمالاً أوفر الأحياء حكمة.

ومع ذلك كله، فإن مستر بونس لم يزد على القول بأن عمود العلامة دعابة، دعابة لشخص اسمه شلي.

فصاحت أمه قائلة: «يقينًا! لقد قلت لك ذلك يا عزيزي، هكذا كان اسمه».

وسأل مستر بونس: «ألم تسمع قط بشلي؟».

فأجاب الصبي: «كلا» ودلى رقبته.

«ولكن أليس في البيت شلي؟».

فهتفت السيدة في احتياج شديد: «أجل أجل، نحن لسنا عديمي الثقافة إلى هذه الدرجة يا مستر بونس.. اثنان على أقل تقدير: الأول هدية عرس، والثاني بالحروف الصغيرة في إحدى الغرف الزائدة».

فقال مستر بونس وهو يتسم ابتسامة متوانية: «أعتقد أن عندنا من شلي سبع نسخ»، ثم نفّض فتات الفطائر من فوق كرشه ونهض وابنته للانصراف.

وودّعهما الصبي طوال الطريق إلى باب الحديقة الكبير، وذلك بعد أن أومأت إليه أمه بلمزة من لحظها، إلا أنه لم يعد أدراجه إلى المنزل فور انصرافهما، بل تطلع، هونًا ما، إلى بكنجهام بارك رود مصعدًا منحدرًا.

وكان أبواه يسكنان آخره من اليمين، وقد هبط مستوى البيوت هبوطًا مبالغًا بعد المنزل المرقوم ٣٩، حتى إن المرقوم ٦٤ لم يحو مدخلًا خاصًا بالخدم، غير أن منظر الطريق جميعها في تلك اللحظة اتسم بشيء من الجمال؛ لأن الشمس كانت لتوها قد غربت في بهاء، وقد غرق تفاوت البيوت في لجة من الغسق الزعفراني، وغردت صغار الطير، وزقزقت كباره شادية في ثنايا الأخدود، ذلك الأخدود البديع الذي انتزع من سربتون كل جمالها، والذي تسربل - كسائر الأودية المرتفعة - ببهاء شجر الشوح^(١) والقان^(٢) الفضي وزهر الربيع. وهذا الأخدود هو أول ما أثار رغبات الصبي الدخيلة، رغبات في شيء مختلف قليلًا لا يعرف له كنهًا، قد تعاوده كلما سطع نور الشمس على الأشياء كما حدث بعد عصر ذلك اليوم، رغبات لا تفتأ تعتمل في فؤاده صعودًا وهبوطًا حتى يغمر كل جوارحه شعور غريب، حتى وكأنه يحاول أن يمنع نفسه من البكاء. وقد زادت حماقته في تلك الأمسية، لأنه انفلت عبر الطريق صوب عمود العلامة متجهًا إلى السكة الخالية.

(١) الشوكة (بفتح الشين) شجرة تكون أغصانها على هيئة مخروطية تشبه شجر الزان.

(٢) القان أو التبولا شجر تصنع منه القسي.

تمتد السكة بين حائطين عاليين، أسوار بساتين إيفانهو^(١) وبللا فستا^(٢) على التوالي، وتنبت منها رائحة خفيفة طوال الطريق التي قد يبلغ طولها عشرين ياردة بما فيها المنعرج الذي في نهايتها. ولم يكن مستغرباً أن يتوقف الغلام وأن يهتف قائلاً: «ليتني أستطيع أن أركل هذا الشلي». ثم تطلع متكاسلاً إلى ورقة ملصقة على الحائط، لا تخلو من غرابة، وقرأها مدققاً - قبل أن يقفل راجعاً - فيما يلي:

س - ش . أ . ط . م .

تعديل مواعيد القيام

بسبب انعدام الرعاية اضطرت الشركة آسفة إلى إرجاء قيام مركباتها مرة في كل ساعة، وإلى الاقتصار على أمينوسات شروق الشمس وغروبها التي تقوم في مواعيدها كالعادة. والجمهور مرجو بأن يعاضد النظام الذي سن لمصلحته، وتشجيعاً على ذلك ستصدر الشركة، أول مرة:

تذاكر ذهاب وإياب

(يسري مفعولها يوماً واحداً لا غير) يمكن الحصول عليها من السائق، وهي تذكر الجمهور بأن تذاكر العودة لا تصرف في آخر الخط،

(١) إيفانهو قصة تاريخية شهيرة للسير ولتر سكوت، عرض فيها للمنافسة بين ألكسون والنور منديين بعد أن غزا إنجلترا وليم الفاتح سنة ١٠٦٦، وفي القصة حصن داخل أسوار شاهقة عتيبة أريد غزوه.

(٢) بلا فستا أو بل فو (أي المنزل الجميل) قرية في مقاطعة السين وألواز بالقرب من فرساي شهدت حياة رفاهة ومرح وكان بها صرح جميل شيدته في سنة ١٧٤٨ مدام دي بمبادور محظية لويس الخامس عشر، وبهذا الاسم كذلك يوجد بلفدير وهو قصر بالفاتيكان في روما به متحف، وآخر مماثل في فيينا، وكانت لكل هذه القصور أسوار عالية.

وبأنها لن تلتفت إلى الشكاوى التي تقدم في هذا الشأن، كما أنها ليست مسئولة عن أي إهمال أو حماقة تصدر عن الركاب، ولا عن عواصف البرد (بفتح الراء) والبرق، ولا عن فقد التذاكر، أو عن تصاريق أية قوة قاهرة.

عن الإدارة

لم تسبق له قط قراءة ذلك الإعلام، كما أنه لم يستطع أن يتصور إلى أي مكان في (س) يذهب الأمنيوس. و(س) ترمز بطبيعة الحال لسربتون، و(ش.أ.ط) ترمز لشركة أمنيوس الطرق. ولكن لأي شيء ترمز (م)؟ أترمز لـ (محلة كومب، وملدن)؟ جائز. أو لعلها ترمز لـ (المدينة)؟ ومهما يكن فلا أمل لهذه الشركة في منافسة الشركة الجنوبية الغربية. وانعكس في ذهن الصبي أن الأمر جميعه يجري على سنن^(١) غير تجاري يائس، خلافاً لما هو متبع في خطوط المركبات الأخرى. لماذا لا تصرف تذاكر العودة في نهاية الخط؟ وأية ساعة تلك التي تقوم فيها! ثم خلص إلى أنه ما لم يكن الإعلام دعابة، فإن مركبة أمنيوس لا بد من أن تكون قد قامت تماماً في الوقت الذي فيه كان يودع آل بونس.. حملق في الأرض، من خلال الظلمة التي أخذت تتكاثر، فرأى عليها ما قد يكون - أو لا يكون - آثاراً للمسير عجلات، ومع ذلك لم تخرج أية سيارة من الطريق، وهو لم ير قط مركبة أمنيوس في بكنجهام رود في أي وقت، كلا، لا بد من أن تكون دعابة كدعابة عمود العلامة أو كالقصص الخرافية، أو كالأحلام التي قد يستيقظ منها فجأة في الليل، فتنهد ثم انتقل من السكة رأساً إلى حضن أبيه.

(١) السنن (بفتح السين) الطريقة.

أوه، إلى أي حد ضحك أبوه! وصاح قائلاً: «مسكين يا بوبيسي مسكين! ديدامز.. ديدامز.. تصوري يا ديدامز أنه كان يريد أن يسير على قدميه» حتى وهلت أمه- وهي تتلوى من الضحك- على درج أجاثوكس لودج لاهثة وهي تقول: «لا يا بوب، لا تكن مهذاراً! إنك تقتلني! أوه، دع الصبي وشأنه».

ولبت تلك الدعابة طوال الأمسية، وقد التمس الأب أن يصحبهم- هو أيضاً- إلى هناك. أكان مشياً جد متعب؟ أيلزم المرء أن يمسح حذائه على وطاء الباب^(١)؟ وذهب الصبي إلى فراشه يكتنفه الضنى والحزن وهو يحمد الله على شيء واحد، ذلك أنه لم يتحدث عن الأمنيوس بكلمة واحدة. نعم كانت دعابة، ولكنها في أحلامه أخذت تدريجاً تلبس مسوح الحقيقة، فيما عدا أن شوارع سربتون- التي رأى الأمنيوس ينطلق في شوارعها- هي التي لاحت له دعابات وأشباهاً. وفي الصباح الباكر صبحا صارخاً لأنه لمح لمحة من مكان وصوله.

وأشعل عود ثقاب فلم يضيء ساعته فحسب، بل أضاء كذلك تقويمه، فرأى أن بزوغ الفجر لم يبق عليه غير نصف ساعة، إلا أن الظلام كان حالكاً؛ لأن الضباب في تلك الليلة جاء من لندن ولف سربتون كلها بين أحضانها، ولكنه، مع ذلك، قفز خارج الفراش وارتدى ملابسه؛ لأنه صمم على أن يعرف بشكل حاسم أيهما الحقيقي: الأمنيوس أم الشوارع. وفكر: «سأجن على حال ما حتى أعرف»، وما هو إلا القليل حتى كان يرتعد في الطريق تحت مصباح الغاز الذي كان يحرس مدخل السكة.

(١) ممسحة الأرجل.

ودخول السكة في حد ذاته يقتضي بعض الشجاعة، لا بسبب شدة الظلمة فحسب، بل كذلك لأنه فهم الآن أن من المستحيل أن يكون نهاية لخط الأمنيوس، ولولا أنه سمع شرطياً يدنو في ثنايا الظلام لتعذرت عليه المحاولة تعذراً باتاً. وبعد لحظة جرب وأخفق... لا شيء، لا شيء غير سكة خالية، وصبي بالغ الحماقة مبهوت على أرضها القذرة. دعابة ما في ذلك شك. وحزم أمره قائلاً: «سأخبر أبي وأمي، وأنا أستأهل أن يعرفا. إنني أحقق إلى درجة لا أستحق معها الحياة»، وعاد إلى باب أجاثوكس لودج.

وهنا تذكر أن ساعته تسرع، وأن الشمس لم تكن طلعت، وأنها لن تطلع قبل دقيقتين، وفكر متهكماً: «أعط الأمنيوس كل فرصة».

وعاد إلى السكة، وهناك كان الأمنيوس.

- ٢ -

كان الأمنيوس يجره حصانان ما برح البخار - حتى آنئذ - يتصاعد من جوانبهما، وكانت أشعة مصباحيه الكبيرين تنفذ من خلال الضباب وتقع على حائطي السكة، فترتد بيوت العناكب والطحالب، التي تعلقت بها، نسيجاً من أرض الجن، وقد لف السائق نفسه - حيثما اتفق - في دثاره، مواجهاً الحائط الغفل من المعالم. أما كيف تأتى له المساق على هذا النحو من المهارة والهدوء، فكان بين الأمور الكثيرة التي لم يتوصل الصبي إلى كشفها، كما أنه لم يتصور أنه في استطاعة السائق الخروج من السكة.

ومن خلال الجو العكر الداكن، ارتعش صوته إذ يقول: «عفوًا، عفوًا، هل هذا أمنيوس؟»، فرد السائق دون أن يستدير: «أمنيوس!» وخيمت لحظة سكون، ثم مر الشرطي وهو يسعل عن كذب من مدخل السكة، فربض الصبي في الظلمة لأنه لم يرد أن يكشفوا أمره، ولأنه فوق ذلك أيقن أنه تصرف تصرف قرصان ولا شيء غير ذلك، متعللاً بأن من يقصد إلى مكان مجهول غريب كهذا في وقت كهذا، لا يعدو أن يكون كذلك. وقال وهو يحاول أن يتظاهر بعدم الاكتراث: «متى تبدأ الرحلة على وجه التقريب؟».

«لدى بزوغ الشمس».

«وأي مسافة تقطع؟».

«الطريق كلها».

«وهل يسعني أخذ تذكرة إياب أعود بها الطريق كلها؟».

«لك ذلك».

«أنا لم يصح عزمي تمامًا على المجيء».

فلم يجب السائق.. لا بد من أن تكون الشمس قد بزغت لأنه فك الكابح (الفرملة) وقفز الصبي إلى داخل الأمنيوس قبل قيامه مباشرة.

كيف؟ هل استدار؟ المكان هناك غير متسع، هل سار إلى أمام؟ هناك حائط غفل من المعالم، ولكنه مع ذلك يتحرك، يتحرك في سرعة عظيمة بين الضباب الذي اصفر بعد سمرة، وإلى ذلك، فقد خفت^(١) الصبي

(١) الخفوت (بضم الخاء) الضعف والسكون والظهور من غير صحة.

عندما فكر في الفراش وفي الفطور الدافئين وتمنى لو لم يجيء؛ لأن أبويه لم يكونا ليوافقا على مجيئه، وود أن يرجع إليهما لو لم يحل الجو بينه وبين ذلك، وأمضته الوحدة لأنه الراكب الوحيد، ولأن الأمنيوس بارد عفن بعض الشيء، وإن يكن حسن البناء، فسحب سترته ولف نفسه فيها، وفي أثناء ذلك اتفق أن تحسس جيبه، فوجد أنه فارغ وأنه نسي كيس نقوده.

فصاح: «توقف! توقف!»، وإذ كان الأدب من شيمه رفع بصره إلى لوحة الإعلام، المدهونة بالطلاء، كي يتسنى له أن ينادي السائق باسمه: «توقف يا مستر براون، أناشدك أن تتوقف! توقف متفضلاً!».

ولم يتوقف مستر براون بل فتح نافذة صغيرة وأطل على الصبي، ولقد كان وجهه مباعثاً ينم على الفرق والتواضع.

«يا مستر براون، لقد نسيت كيس نقودي بالمنزل، ولست أملك أية نقود، وليس في وسعي إذن أن أدفع ثمن التذكرة، فهلا تفضلت بأخذ ساعتني؟ إنني في مأزق رهيب».

فأجابه السائق بقوله: «تذاكر هذا الخط - مفردة كانت أو مع الإياب - لا سبيل إلى ابتياعها مقابل عملة تصك في هذه الدنيا، والكرونومتر^(١) وإن واست شرلمان^(٢) في تهجداته وقيس بها هجوع لورا^(٣)، لن تستطيع - بتحول مفاجئ أياً كان نوعه - أن تحرز الفطيرة المزوجة التي

(١) الكرونومتر: ساعة تقيس الوقت في دقة بالغة.

(٢) شرلمان أو شارل الأول أو الكبير: هو ملك فرنسا وإمبراطور الغرب من ٧٦٨ إلى ٨١٤.

(٣) لورا: إحدى محظيات لويس الخامس عشر.

تفتن السريروس^(١) الذي لا أنياب له!»، قال ذلك وناول الغلام التذكرة. وفيما كان الصبي يقول: «شكرًا» استأنف الكلام قائلاً: «وما الادعاءات الاعتبارية إلا زهو، وأعلم ذلك عن يقين، وعلى هذا فلا محل للمؤاخذة عليها إذا خرجت من بين شفاه ضاحكة، ولعلها تفيد، على صورة ما، دنيا تشابهت فيها الأسماء واختلفت معانيها؛ ذلك لأنها تعين على التمييز بين رجل ورجل، وإذن فاذكرني على أنني سير توماس براون».

قال، وكان قد سمع بأولئك السادة السواقين: «أعندك لقب (سير)؟ أوه، أنا آسف! لقد أحسنت إليَّ بإعطائي التذكرة دون مقابل. ولكن - إذا استمرت الحال على هذا المنوال - هل يوفر لك أمنيوسك كسبًا؟».

- «كلا، فهو لم يقصد به الكسب، وأمنيوسي به عيوب كثيرة، فقد ركب - بطريقة جد عجيبة - من أخشاب أجنبية، ووساداته تداعب غزارة المعلومات بدلاً من أن توفر الراحة، وخيلي لا تطعم في مراعي هذا الزمان الدائمة الخضرة، وإنما على برسيم اللاتينية ونجيلها المجففين، والكسب في هذا، ومهما يكن فهذا العيب لم يقصد قط ولم يدرك قط».

فقال الغلام وهو أقرب ما يكون إلى اليأس: «مرة أخرى، أنا متأسف» وبما أن السير توماس بدا مكتئبًا وبما أنه خشي أن يكون هو السبب في اكتئاب الصبي ولو لحظة واحدة، فقد دعاه إلى الصعود والجلوس إلى جواره في مقصورة السائق، وسافرا معًا في خلال الضباب الذي أخذ الآن يبيض بعد اصفرار، ولما لم تكن في الطريق دور تحتم أن يكون ذلك المكان إما بتني هيث أو ومبلدن كومن.

(١) السريروس: الكلب الذي كان يحرس مدخل جحيم الوثنيين وله ثلاث رؤوس.

«أكنت دائماً تعمل سائقاً؟».

«كنت يوماً طبيباً».

«ولماذا عدلت؟ ألم تكن كفواً؟».

«كان نجاحي محدوداً في إبراء الأجساد، وتقدّمني من مرضاي عشرات وعشرات. أما إبراء الأرواح فقد كان نجاحي فيه فوق مأمولي وأهليتي، ومع أن محضراتي لا تفوق محضرات غيري من الرجال جودة وبراعة- بفضل الأقداح الغريبة التي كنت أقدمها فيها- فإن الروح المتقززة كثيراً ما تشهت رشفها وانتعشت بتأثيرها».

فتمتم الصبي: «الروح المتقززة... أإذا غربت الشمس، والشجر دونها، ثم سيطر الاستهجان فجأة على كل جارحة فيك، أتلك هي الروح المتقززة؟».

«أبهذا شعرت؟».

«كيف؟ نعم».

وبعد لحظة سكوت أخبر الغلام بالقليل بل بالقليل جداً عن نهاية الرحلة. غير أنهما لم يثرثرا كثيراً؛ لأن الصبي كان كلما أحب امرأً عمد في حضرته إلى الإمساك عن الكلام، وكان هذا، فيما استكشف، دأب السير توماس براون وكثيرين من الذين عرفهم بعد. ومهما يكن فقد سمع عن الشاب شلي- الذي صار الآن شخصية ذائعة الصيت والذي يسوق مركبة يملكها- كما سمع عن بعض السائقين الأخر الذين يعملون في خدمة الشركة. وفي هذا الوقت أخذ الضوء يقوى، وإن لم ينقشع

الضباب الذي أضحى الآن أقرب إلى السديم، وكان أحياناً ينساب بينهم متدفقاً كأنما هو بعض سحابة. وكان صعودهم يحير الأبواب كذلك؛ لأن الحصانين كانا- في مدى يزيد على الساعتين- يجذبان الطوق، ولو كان مقصدهما (تشمندهل) لتحتم أن يبلغا القمة منذ أمد بعيد، ولعل هذا المكان هو إبسوم أو لعله نورث داونز، ومع ذلك فقد لاح الهواء أعنف من الهواء الذي يهب على كليهما. أما مكان الوصول فقد سكت السير توماس براون عن ذكر اسمه.

... قصف.

قال الصبي: «وحق جوف^(١) هذا رعد، وما هو ببعيد عنا، استمع إلى قصفه، إنه كالجبال تخر هذا».

وتخيل أبويه في غير جلاء: زعم أنهما جالسان إلى المائدة يأكلان المقائق^(٢) مصغيين إلى الرعد، ورأى مكانه خالياً، ثم أثيرت الأسئلة ونذر الانزعاج والنظريات والدعابات والتأسيات، كما رأى أنهما ينتظران عودته لتناول الغداء، وما هو بعائد لا إلى الغداء ولا إلى الشاي، وإنما إلى العشاء. وهكذا يختتم يوم شروده، ولو أنه أحضر كيس نقوده لابتاع لهما الهدايا، فليست المشكلة إذن أنه كان عليه أن يعرف ما الذي سيبتاعه لهما.

.... قصف.

(١) جوف أو جوبيتر أو المشتري إله الآلهة عند قدماء الإغريق.

(٢) المقائق: الممبار.

جاء الهزيم يصحبه الوميض، وارتعش السحاب كأنه كائن حي، وانطلقت أشرطة من السديم المتمزق مارة بهما، فاستفهم السيد توماس براون: «أخائف أنت؟».

«ما الذي يخشى منه؟ أو لا يزال المدى بعيداً؟».

وتوقف حصانا الأمنيوس كما قد تنفجر أُكْرَةُ^(١) من نار وتفرقع في جلبة يصحبها طنين يصم الأذان كطينين مطرقة الحداد، فقد تهشمت السحب جميعاً.

- «اسمع يا سير توماس! لا، أريد أن أقول: انظر. سنحظى بمنظر آخر الأمر، لا. أريد أن أقول: اسمع، هذا يحكي صوت قوس قزح».

وخمد الصوت في همهمة بالغلة الخفوت، دونها همهمة أخرى بدأت تنمو وتمتد، مستسرة في منعرج أخذ يتسع في غير تنوع، وفي مثل هذا المنعرج كان قوس قزح ينتشر من سنايك الحصانين في السديم المتبددة.

«يا للجمال! أية ألوان هذي! وأين ينتهي ظهورها؟ إنها أقرب شيء إلى أقواس قزح تلك التي يسعك أن تطأها، بل هي أقرب إلى الأحلام».

ونما اللون والصوت معاً، وأقام قوس قزح من نفسه قنطرة عظيمة، وتدافعت من تحته سحب نفذ فيها القوس، ولكنه مع ذلك اطرء نموه وتقدم حتى قهر الظلمة، إلى أن مس شيئاً بدا أصلب من السحاب.

ووقف الصبي وهتف: «ما ذاك الذي هناك في العراء؟ وعلى أي شيء يرتكز بعيداً في الطرف الآخر؟».

(١) بمعنى كرة.

وتحت أشعة شمس الصباح، لمعت مهواة تلقاء الخليج - أمهواة
كانت أم معقلًا؟- وتحرك الحصانان وأقرا سنا بكهما على قوس قزح.
وهتف الصبي: «أوه، انظر! أوه، أصغ! تلك الكهوف- أو لعلها
دروب- أوه، انظر من خلال الأجراف^(١) إلى هذه السلسلة من الصخور
الداخلية في البحر، أرى أناسًا! أرى شجرًا!».

فهمس السير توماس: «انظر تحت أيضًا، لا تغفل العراف أتشيرون^(٢)».
غَضَّ الصبيُّ بصره إلى ما يلي السنة لهب قوس قزح، التي كانت
تلحق عجل الأمنيوس، وقد صفا الخليج كذلك، وفي أعماقه جرى
نهر أبديّ. وتسالت شعاعة واحدة وطرقت بركة خضراء، ورأى، وهم
يجاوزونها، ثلاث صبايا يسبحن تحت سطح الماء، تغنين وتلعبن بشيء
يتألق كالخاتم.

فهتف: «أيتها الصبايا اللائي يغمرهن الماء...».

فأجبن: «أنت يا من يعلو القنطرة...».

وعلى حين غرة سمع عزف موسيقي: «أنت يا من يعلو القنطرة.
سعد حظك الحق في الأعماق والحق في عليين».

ونادى: «أنتن يا من تسبحن في الماء. ماذا تفعلن؟».

فأجاب السير توماس براون: «إنهن يتسلين باللعب بالذهب الذي
في حيازتهن». ووصل الأمنيوس.

(١) جمع جرف.

(٢) أتشيرون- في الأساطير الإغريقية- نهر في جهنم لا يقوى أحد على سبحه مرتين.

عوقب الصبي بحبسه في غرفة الأطفال بمنزله في أجاثوكس لودج ليحفظ شعراً... قال أبوه: «يا بني، يسعني أن أغفر كل شيء إلا الكذب»، وضربه بالعصا قائلاً مع كل ضربة: «ليس ثمة أمنيوس ولا سائق ولا قنطرة ولا جبل، أنت منقطع عن المدرسة تتسكع في الطرق، أنت كذاب»، وكان أبوه يستطيع أن يقسو عليه أحياناً... وتوسلت أمه أن يبدي أسفه على ما بدر منه، ولكن نفسه لم تطاوعه، وكان هذا اليوم أعظم أيام حياته مع الضرب الذي أصابه، والشعر الذي حفظه في نهاية اليوم.

عاد مع الغروب تماماً، ولم يكن السائق، هذه المرة، السير توماس براون، بل صبية كلها دعابة هادئة... تكلمنا عن الأوتوبيسات واللندوهات^(١) التي تتسع لأربعة ركاب... كم لاح صوتها الحنون بعيداً الآن! هذا مع أنه لم يتركها عند بداية السكة إلا منذ فترة تبلغ الثلاث الساعات أو تكاد.

كلمته أمه من وراء الباب قائلة: «يا عزيزي، عليك أن تنزل ومعك كتاب الشعر!».

ونزل فألقى مستر بونس مع أبيه في حجرة التدخين، وكانت وليمة عشاء.

(١) اللندو: مركبة ذات مقعدين طويلين متقابلين، تجرها الخيل.

قال أبوه عابسًا: «هذا هو الرحالة العظيم! هذا هو السيد الذي يسوق
الأمنيوس فوق أقواس قزح، والسيدات الصغيرات تغنيّنه»، وضحك
مغتبطًا بالمعيته.

فقال مستر بونس مبتسمًا: «هناك، على كل حال، شيء يشبه هذا
بعض الشبه في فاجنر^(١)، ومن الغريب أنك تجد في أفكار بعض الأميين
قبسًا من الحقائق الفنية، وهذه الحالة تسترعي انتباهي، فرخص لي
المرافعة عن المذنب، ولقد مررنا كلنا بمرحلة الخيال، أليس كذلك؟».

قالت أمه: «اسمع كيف يترفق مستر بونس» فقال أبوه:

«حسن جدًّا، فليتُ قصيدته، وفي هذا الكفاية. وسيذهب يوم الثلاثاء
لدى أختي وستشفيه بنفسها من هذا التسكع في الطرقات (ضحك). اتلُ
قصيدتك».

بدأ الغلام: «وأنا أقف بمعزل - في جهل جبار».

فضحك أبوه ثانية ورعد قائلاً: «هذا البيت من الشعر يخلصك يا بني!
(وأنا أقف بمعزل - في جهل جبار)، لم أكن أعرف بتأتًا أن لهذه الأبيات
مغزى، إن هذا البيت ليصفك وصفًا دقيقًا... هاك يا بونس، أنت تستسيغ
الشعر، فاسلكه فيه بينما أحضر أنا الشراب».

قال مستر بونس: «أجل، عليّ بكيّس^(٢). دعه يسمعي ما يحفظه
من كيّس».

(١) فاجنر (١٨١٣ - ١٨٨٣) مؤلف غنائي وملحن ألماني عبقرى له فضل في تطوير الموسيقى ولا سيما
ما يخص الأوبرا.

(٢) كيّس: شاعر إنجليزي (١٧٩٥ - ١٨٢١).

وعلى هذا تُرك الرجل الحكيم والصبي الجاهل وحدهما في حجرة التدخين بضعة لحظات.

«وأنا أقف - بمعزل - في جهل جبار، أحلم بك وبالسايكليدز^(١) كمن يجلس على الشاطئ ويتوق إلى زيارة...». «مضبوط جداً... إلى زيارة أي شيء؟».

وتلا الصبي من قول الشاعر: «إلى زيارة درافيل المرجان في البحار العميقة»، وانفجر باكياً.

«كفى كفى! فيم تبكي؟».

«لأن... لأن كل هذه الكلمات - التي لم تكن في نظري من قبل إلا سجعاً - ليست إلا وصفاً لحالتي بعد عودتي».

فألقي المستر بونس ديوان كيتس، وقد استرعت نظره حالة الصبي أكثر مما كان يقدر، وهتف: «أنت؟ هذه القصيدة تصفك أنت؟».

«نعم... انظر إلى ما يلي: (على شواطئ الظلام يوجد النور، كما أن الوهاد تبدي الخضرة التي لم تطأها أقدام الناس). هكذا هي يا سيدي. كل تلك الأشياء صحيحة».

قال المستر بونس مغمض العينين: «ما شككت في ذلك أبداً».

«أنت... أفأنت تصدقني إذن؟ أنت تصدق حكايتي عن الأميوس والسائق والعاصفة وتذكرة الذهاب والإياب، تلك التي ظفرت بها من دون أن أدفع لقاءها شيئاً و...».

(١) السايكليدز جزائر الأرخيبيل اليوناني تحف بجزيرة ديلوس، تشتهر بالأنبذة وصيد السمك والإسفنجة.

- «صه صه! لا تزدني من نسج خيالك يا ولدي. لقد قصدت أنني ما شككت أبداً في صدق جوهر القصيدة، وستفهم مقصودي يوماً بعدما تكون قد وسّعت دائرة مطالعائك».

- «ولكن هذه هي الحقيقة يا مستر بونس، على شواطئ الظلام يوجد ضياء، وقد شهدت سطوعه... ضياء ورياح».

فقال مستر بونس: «هذا هراء».

- «لو أنني بقيت...! لقد أغروني: طلبوا إليّ التخلي عن التذكرة؛ لأن المرء إذا فقد ما تعذر عليه الرجوع، وطالبوني بها من النهر، فتملكني الإغراء بطبيعة الحال؛ لأنني لم أشعر بالسعادة قط كما شعرت بها بين تلك الوهاد، ولكنني مع ذلك فكرت في أمي وأبي وفي ضرورة إحضارهما، على أنهما لم يكونا ليحيئا وإن بدأت الطريق قبالة بيتنا. ولقد حدث كل شيء حسبما أُنذرتني الناس هناك، وكذبني المستر بونس كما كذبني الجميع، وضربت بالعصا، ولن تتاح لي رؤية ذاك الجبل بعد».

قال المستر بونس فجأة وهو جالس منتصب القامة على كرسيه: «وما ذاك الذي ذكرته عني؟».

- «حدثتهم عنك وعن مهارتك الفائقة وعن عدد الكتب التي تقنيتها، فقالوا: (يقيناً سوف لا يصدقك المستر بونس)».

- «اختلاق وهراء يا صديقي الصغير، لقد أضحيت قليل الحياء. وأنا- حسن!- أنا سوف أحسم الأمر بنفسي، ولكن إياك أن تقول كلمة واحدة لأبيك، سأشفيك، سأتي بنفسي إلى هنا في مساء الغد وأخذك إلى

نزهة سيرًا على الأقدام، وعندما تغرب الشمس سنصعد تلك السكة التي تواجها وتصيد أمنيوسك، أنت أيها الولد الصغير الأبله».

وظهر على وجهه الجد لأن الصبي لم يرتبك، بل أخذ ينط حول الحجرة منشداً: «وافرحتي، وافرحتي! لقد قلت لهم إنك سوف تصدقني. سنركب معاً فوق قوس قزح، لقد قلت لهم إنك سوف تأتي».

ومع ذلك، هل يمكن أن يكون في الحكاية شيء ما؟ فاجنر؟ كيتس؟ شلي؟ سير توماس براون؟ لا مرأى في أن القضية تسترعى الانتباه.

وفي مساء اليوم التالي لم يغفل المستر بونس الذهاب إلى أجاثوكس لودج مع أن المطر كان يهطل مدراراً.

وكان الصبي على أهبة الاستعداد، وهو يغلي من الانفعال، ويمرح هنا وهناك في هيئة كادت تثير غيظ رئيس الجمعية الأدبية.

وانعرجا هابطين بكنجهام بارك رود، ولما رأيا أنهما في مأمن من عيون الرقباء، اتخذا سبيلهما منفلتين إلى السكة، وكان طبيعياً - إذ كانت الشمس في سبيلها إلى الغروب - أن يلتقيا بالأمنيوس رأساً.

وهتف المستر بونس: «يا أله! يا لرحمة السماء!».

لم يكن ذاك هو الأمنيوس الذي ذهب فيه الصبي أول مرة، لا ولا ذاك الذي آب فيه، فلقد كان يجره من الخيل ثلاثة: أسود وأبيض ورمادي وهو خيرها جميعاً. وكان السائق - الذي استدار لدى ذكر الرحمة والسماء - رجلاً شاحب اللون ذا فكين مخيفين وعينين غائرتين، ولم يكد المستر بونس يراه حتى أطلق صرخة من استعرف على شخص، ثم

أخذ يرتعد ارتعادًا عنيفًا.

وقفز الصبي داخلًا.

وهتف المستر بونس: «هذا مستحيل، أو يمكن المستحيل؟».

«أيها السيد، ادخل أيها السيد، إنه أمنيوس بالغ الجمال، أوه، هاك اسمه: دان سموان^(١)».

وقفز المستر بونس داخلًا كذلك، وأقفلت الباب تَوًّا عصفه ريح، وأنزلت هزتها شماسات النوافذ التي كانت زمبركاتها ضعيفة جدًا.

«دان! أرني... يا لرحمة السماء، نحن نتحرك».

وصاح الصبي صيحة الفرح: «هوراي».

واضطرب المستر بونس لأنه لم يقصد أن يخطفه أحد، ثم إنه لم يستطع أن يعثر على مقبض الباب، أو أن يرفع أستار النوافذ إلى أعلى، إذ كان الأمنيوس معتمًا جدًا، وكان الليل قد عم الأرجاء خارجه عندما أشعل عود ثقاب، وكان الأمنيوس سريعًا.

«مغامرة مشهورة لا تنسى»، قال هذا الكلام وهو يتفحص - من الداخل - الأمنيوس الذي كان عريضًا رحب الأرجاء مشيدًا في تناسق تام، بحيث يوائم كل جزء منه سائر الأجزاء، وقرأ فوق الباب (وكان مقبضه من الخارج): «دع الكبرياء أيها الداخل، دع كل أنواع الأمل»، هذا ما كان مكتوبًا، ولكن المستر بونس قال: «إن كلمة «كبرياء» خطأ صوابه الأمل والثقة».

(١) ترجمتها الحرفية: برميل شخص ما.

وكان لصوته رنين أشبه برنين التلاوة بالكنيسة، وفي هذه الأثناء، نادى الصبي السائق الذي يشبه الموتى، وطلب تذكرتي ذهاب وإياب، فدفعهما إليه دون كلمة واحدة، وغطى المستر بونس وجهه بيده وارتعد من جديد، وعندما أقفلت النافذة الصغيرة دونهما همس قائلاً: «أتعرف من يكون؟، إنه المستحيل».

فقال الصبي:

«أنا لا أميل إليه بقدر ما أميل إلى سير توماس براون، وإن لم يدهشني أنه يرمز لمعنى أكبر».

فدق بقدمه مهتاجاً وقال: «يرمز لمعنى أكبر؟ لقد أبُنتَ، بمحض الصدفة عن أعظم استكشاف في هذا العصر، وكل ما يسعك قوله هو أن هذا الرجل يرمز لمعنى أكبر. أتذكر تلك الكتب المصنوعة من الرق^(١) الموجودة في مكتبي والممهورة بسوسن أحمر؟ هذا (اجلس في هدوء فأنا منبئك نبأ عظيم) هذا هو الرجل الذي كتبها».

وجلس الصبي في غاية من الهدوء، واستفهم بعد صمت مؤنس: «ترى هل نرى مسز جامب؟».

«مسز...؟».

«مسز جامب ومسز هارس... أنا أميل إلى مسز هارس... لقد صادفتها مباغتها»، وتحركت علب المسز جامب - المصنوعة من الورق

(١) الرق: جلد رقيق كان يستعمل للكتابة.

المقوى - فوق قوس قزح بطريقة هي غاية في السوء، وسقطت قواعدها جميعاً، وتدهورت فوق مجرى الماء أكرتان^(١) من أكر سريرها».

فصاح مستر بونس قائلاً في صوت مرتفع: «هناك خارج المركبة يجلس كاتب مجلداتي! وتحدثني أنت عن دكنز^(٢) ومستر جامب؟».

فأجاب الصبي معتذراً: «عرفتي بالمسز جامب وطيدة ولا يسعني إلا الابتهاج لرؤيتها، ولقد ميزت صوتها وهي تحدث مسز هارس عن مسز بريج».

«وهل قضيت اليوم كله في شرف صحبتها؟».

«لا، لا، بل ركضت... لقيت رجلاً قادمي، بعيداً، إلى مضمار سباق، وفيه يركض المرء... ثم إن في البحر درفيلات».

«حقاً... أو تذكر اسم الرجل؟».

«أشيل... كلا، هذا جاء بعد... توم جونس».

فتنهده المستر بونس تنهداً عميقاً ثم قال: «اسمع يا بني، لقد اختلط عليك الأمر، فعليك - مع الظروف الطيبة التي تحيط بك - أن تسعى إلى تثقيف عقلك، فالإنسان المثقف يسعه أن يميز بين كل أولئك الشخصيات وأن يعرف ما يقوله لكل منهم، وليس له أن يبدد وقته مع مسز جامب أو مع شخص مثل توم جونس، ولن يقنع بغير ما ابتدعه هومر وشكسبير وذاك الذي يسوق المركبة الآن. نعم، ليس له أن يركض في حلبة السباق

(١) الأكرة: الكرة. وفي الأصل الإنجليزي كلمة معناها نوع من التفاح.

(٢) تشارلز دكنز: قصصي إنجليزي ذائع الصيت شن في كتبه حرباً شعواء على النفاق والأنانية وتهكم على المجتمع البريطاني بأسره.

ولا أن يوجه من الأسئلة إلا ما يدل على حسن فهم».

فأجاب الصبي متدللاً: «ولكنك يا مستر بونس ستمسي رجلاً مثقفاً... لقد قلت لهم ذلك».

«حقاً حقاً، ولكن رجائي ألا تخزيني عندما نصل، فلا قيل وقال، ولا جري، وعليك أن تبقى على كذب مني، وألا تتحدث إطلاقاً إلى أولئك الخالدين ما لم يتحدثوا هم إليك، أجل، وناولني تذكرتي العودة فقد تضيعهما».

وأسلم الصبي التذكرتين، غير أنه شعر ببعض المرارة، وعلى أية حال فهو الذي عرف الطريق إلى المكان المنشود، ولقد شق عليه أن يكذبه أولاً وأن يوبخه أخيراً. وفي هذه الأثناء توقف هطول المطر وزحف ضوء القمر إلى الأمينيوس من خلال خصائص الأستار (أي من شقوقها).

وهتف الصبي: «ولكن كيف يتكون هناك قوس قزح؟».

فصاح المستر بونس قائلاً في صوت مرتفع: «أنت تحوّل انتباهي بينما أود أنا أن أتأمل الجمال. كم كنت أتمنى أن أكون مع إنسان وقور يشاركني أحاسيسي».

عض الصبي شفتيه وفكر في عدد لا يحصى من القرارات الطيبة: كأن يقلد المستر بونس طوال مدة الزيارة، وأن يتنكب الضحك والجري والغناء وكل التصرفات المبتذلة التي لا معدى عن أن تكون قد ضايقته أصدقاءه الجدد في المرة السابقة، وأن يحرص كل الحرص على نطق

أسمائهم في أتم صواب، وأن يتذكر من الذي عرف من، فأشيل لم يعرف
توم جونس، أو هذا على الأقل هو ما قاله المستر بونس، ودوقة مالفي
تكبر مسز جامب، أو هذا على الأقل هو رأي المستر بونس، وعليه أن
يكون حييًّا صامتًا متحفظًا فلا يصرح بأنه يحب هذا أو ذاك. غير أن هذه
القرارات الطيبة - عندما ارتفعت الشمس فجأة نتيجة للمسمة من رأسه
غير مقصودة - ذهبت مع الريح، ذلك لأن الأمنيوس بلغ ذروة تل يضيئه
القمر، وهناك كانت الوهدة تعبرها المهاوي القديمة الحاملة، التي تدلي
أقدامها في النهر السرمدي، فهتف: «الجبل! أصغ إلى النغم الجديد في
الماء! انظر إلى نيران المخيم في الوهاد»، فما كان من المستر بونس -
بعد أن ألقى لمحة عاجلة - إلا أن قال في عنف: «ماء؟ نيران المخيم؟
تلك سخافات مضحكة، أمسك عليك لسانك فلا وجود لشيء ألبتة».

على أن قوس قزح تشكل تحت ناظره، لا من ضوء الشمس
والعاصفة، بل من ضوء القمر ورشاش النهر، وقد وطأته الخيول الثلاثة
بسنانبكها، وجال في خاطره أن هذا هو أجمل قوس قزح رآه، ولكنه لم
يجسر على التصريح بذلك نظرًا لما قاله المستر بونس من «أنه لا وجود
لشيء ألبتة»، وانفتحت النافذة فاتكأ إلى الخارج وأنشد اللحن الذي
صدر عن المياه النائمة.

فقال المستر بونس فجأة: «الديباجة الموسيقية لراين جولد! من
الذي علمك هذه الألحان التي تمثل فكرة؟» وأطل هو أيضًا من النافذة،
ثم تصرف تصرفات جد مستهجنة: أطلق صرخة خانقة، ووقع على ظهره
فوق أرض الأمنيوس، وأخذ يتلوى ويرفس، واخضر وجهه.

واستفهم الصبي: «هل رؤية القنطرة تسبب لك الدوار؟» .
فقال المستر بونس لاهثاً: «دوار؟» إنما أريد العودة، خبر السائق بذلك» .

فهب السائق رأسه .

وقال الصبي: «أوشكنا على الوصول.. إنهم نيام.. أأناديهم؟
ستسرحهم رؤيتك بعد أن مهدت لك عندهم» .

وتأوه المستر بونس، وانتقلوا فوق قوس القزح القمري الذي أخذ
يتبدد تباعاً خلف عجلاتهم: «ما أعمق سكون الليل! ترى من سيكون
حارس الباب الكبير؟» .

وقال الصبي وهو يصرخ من جديد ناسياً قراراته التي لا تدخل تحت
حصص: «أنا آت.. أنا عائد.. أنا الصبي» .

ونادى صوت: «الصبي عائد» فرددت وراءه أصوات «الصبي عائد» .
«لقد جئت أنا بالمستر بونس» .

... صمت .

- «كان الأصوب أن أقول إن المستر بونس هو الذي جاء بي» .

... صمت مطبق .

- «من الحارس؟» .

- «أشيل» .

ورأى - فوق الممر الصخري المرتفع الذي يجاور نتوء قنطرة قوس

قزح - رأى شابًا يحمل درعًا مدهشًا.

- «يا مستر بونس، هذا أشيل يحمل سلاحه».

فقال مستر بونس: «أود أن أعود».

وذاب آخر حطامة من قوس القزح، ورتلت العجلات فوق الصخرة التي تنبض بالحياة، وانفتح باب الأمنيوس فجأة، ولم يتمالك الصبي نفسه وقفز إلى الخارج، ثم وثب ليلقى البطل الذي بغته بانحناءة ولقطه على درعه.

فصاح به الصبي: «يا أشيل، دعني أنزل فأنا جاهل سوقيّ وينبغي لي انتظار هذا المستر بونس الذي حدثتك عنه أمس».

ولكن أشيل رفعه إلى علٍ، فقبع على الدرع المدهش: على أبطال ومدن تحترق.. على كروم منقوشة بالذهب.. على كل عاطفة غالية.. على السرور والفرح... على الصورة الكاملة للجبل الذي استكشفه والذي يحف به، على غراره، غدير سرمدي، فاعترض قائلاً: «لا لا، لست أهلاً لهذا، والمستر بونس هو الذي يجب أن يسمو إلى مكاني».

غير أن المستر بونس كان في حالة تشنج، ونفخ أشيل في الصور وصاح: «قف مستقيماً على درعي!».

- «أيها السيد، أنا لم أقف عامداً ولكن شيئاً نصبني، أيها السيد، لماذا نتوانى؟ ليس هنا غير أشيل العظيم الذي عرفته».

وصرخ المستر بونس قائلاً: «لست أرى أحداً، ولست أرى شيئاً، وأنا أود أن أعود» ثم صاح بالسائق: «أنقذني! دعني أتوقف بمركبك،

لقد احترمتك .. لقد نقلت عنك .. لقد جلدت كتبك .. عدي إلى دنيائي» .
فأجاب السائق: «أنا الوساطة لا الغاية، وأنا الطعام لا الحياة، فاعتمد
على نفسك كما فعل هذا الصبي، فأنا لا أستطيع إنقاذك؛ لأن الشعر هو
الروح، من عبده تعبد فيه الروح والحق» .

ولم يتمالك المستر بونس نفسه وزحف إلى خارج الأمنيوس
الجميل، وقد بدا الذهول المفزع على وجهه، ثم أخرج يديه يقبض على
السلم بإحداها ويضرب الهواء بالثانية، وبرز الآن منكباه وصدره ومعدته،
وفيما كان يصيح قائلاً: «أرى لندن» سقط .. سقط على الصخرة الصلبة
التي يضيئها القمر .. سقط فيها كما لو كانت ماء .. سقط في غضونها
وتلاشى وغاب عن ناظرِي الصبي إلى الأبد.

- «إلى أين ذهبت بك السقطة يا مستر بونس؟ هذا موكب وصل
لتكريمك بالموسيقى والمشاعل .. هنا جاء النساء والرجال الذين تعرف
أسماءهم .. لقد تيقظ الجبل، ولقد تيقظ النهر، وفيما وراء مضمار
السباق يوقظ البحر تلك الدرفيلات، وكل تلك الأشياء من أجلك .. إنها
تبتغيك» .

نهاية

من كنجستون جازيت، وسرتيون تايمز ودينس بارك أزرر^(١)
وجدت جثة المستر سبتيماش بونس في حالة تشويه فاجعة بالقرب
من مصنع برمندزي للغاز، ووجد في جيوب المتوفى كيس للجنيهات

(١) أسماء ثلاث جرائد تصدر في المنطقة التي يسكنها المستر بونس والصبي .

الذهبية وعلبة (سجائر) فضية وقاموس ناطق صغير مزركش وتذكرتان
من تذاكر الأمنيبوس. والظاهر أن السيد المنكود تدهور من علو شاهق،
ويشبهه في أن يكون قد دفع إلى هذا غدرًا، وتجري السلطات استقصاء
دقيقًا.



عالم الآخر

- ١ -

quem (كويم) من».

fugis (فوجيس) تجتنب أنت».

ah demens (آه ديمنز) أيها الحمار الأحمق».

habitarunt di quoque (هايتارونت دي كوكي) لقد عاشت

الآلهة في».

Silvas (سيلفاس) الغابات».

«انطلق!».

تعودت دائماً أن أجلو الدراسات القديمة - وهي جزء من طريقي -
ولذا ترجمت (ديمنز) بـ «الحمار الأحمق»، غير أن مس بومنت لم تكن
في حاجة إلى أن تدون الترجمة، كما أن فورد - الذي يفوقها معرفة - لم
يكن في حاجة إلى أن يردد بعدي: «من تجتنب أنت أيها الحمار الأحمق،
لقد عاشت الآلهة كذلك في الغابات».

فأجبت في لجلجة من يبدأ في دراسة الأدب القديم:
«ن... عم، ن... عم (سيلفاس) معناها: غابات.. فضاء تكتنفه غابات،
الريف عمومًا، نعم و(ديمنز) بطبيعة الحال مكونة من (دي - و - منز)
ومعناها: الناس العديمو الإدراك! والآلهة.. أقول: وحتى الآلهة عاشت
في الغابات قبل الآن».

فقالت مسز وورترز معترضة درسنا المرة الثانية والعشرين فيما
أظن: «لقد كنت أحسب الآلهة تعيش دوائًا في السماء».

وعلقت مس بومنت بقولها: «لا، ليس على سبيل الدوام» ودست في
كلامها عبارة (الناس عديمي الإدراك) على أنها مرادفة للفظي (الحمار
الأحمق).

– «لقد كنت دائمًا أحسبهم يعيشون في السماء».

وردت الفتاة قولها: «لا لا يا مسز وورترز، ليس على سبيل
الدوام». ثم تابعت درسها في المفكرة وتلت ما يلي: «الآلهة. أين. أشهر
المعبودات- جبل أوليمبوس^(١). بان^(٢) - غالبية الأماكن حسبما تدل
عليها أسماؤها الأورباد^(٣) - جبال. السيرين^(٤)، التريتون^(٥)، النيرايد^(٦) -
ماء (أجاج نايد^(٧)) - ماء (فراة). ساتير^(٨)، فاون^(٩)، إلخ - غابات،
درايد^(١٠) - شجر».

(١) أوليمبوس اسم لجبال متعددة عند الإغريق أشهرها يقع بين مقدونيا وتساليا. وتقول الأساطير إنه مقر
الآلهة. (٢) بان إله قطعان الماشية ويمثل الطبيعة المجسدة كافة. (٣) الأورباد حور الربى والغار.
(٤) السيرين جبارة خرافية نصفها آدمية والنصف عصفورة وسمكة. (٥) التريتون أحد آلهة البحر
وهو ولد نيتون وأمفرت. (٦) النيرايد: ابنة إله البحر. (٧) نايد إلهة البحيرات والأنهر. (٨) ساتير
أو مينييه فيلسوف إغريقي من مدرسة سنيكا. وساتير أيضًا شخص خرافي نصفه الأعلى من البشر
والأسفل من الماعز. (٩) فاون إلهة الخلوات - على صورة بان وسلفان - ومن اختصاصها تربية
الماشية. (١٠) درايد إلهة الغابات.

- «حسن أيتها العزيزة، لقد تعلمت الكثير، فهلا أخبرتني الآن أي خير أفدت منه؟».

فتلجلجت مس بومنت قائلة: «لقد أعانني...»، إنها لم تكن هازلة في تعلم الإغريقية واللاتينية، وودت لو أمكنها أن تقول أي خير أفادت منها.

وجاء فورد لخلاصها: «لقد أفادتك بلا ريب، والعلوم الإغريقية واللاتينية تعلم الإنسان أشياء كثيرة وهي تعلمك المراوغة».

ورجوت صديقي الصغير السن ألا يراوغ في درسه عن فرجيل^(١).

فصاح قائلاً: «ولكنها فعلاً تعلمك كيف تراوغ، هب أن ذاك البهيم الطويل الشعر المسمى أبوللو^(٢) يرغب في تلقينك درساً في الموسيقى، إنك في هذه الحالة ستعصف بغصن الغار الذي يطوق جبينه، أو هب أن الطبيعة الكونية تقدمت إليك وأنت لا تعيرها التفاتاً خاصاً، إنك ستقلب إلى قصبة».

فاستفهمت مسز وورترز: «هل جن جاك؟».

وفطنت مس بومنت إلى التلميحات التي يجب التسليم ببراعتها، واستفهمت قائلة: «وكروشيوس؟ ما الشيء الذي كان المرء يشني فيه ليهرب منه؟».

(١) فرجيل: أشهر شعراء اللاتينية وله أسلوب آية في السمو وروح شفاف حلو حساس.
(٢) أبوللو: إله الوحي والشعر والفنون عند الإغريق والرومان وهو ابن جوبيتر ولاتون وأخو ديانا إلهة الصيد.

فسارعت إلى تصحيح معلوماتها في الأساطير قائلاً: «ميداس^(١)
يا مس بومنت وليس كروشيوس، فأنت لا تحولين نفسك إلى ذهب، بل
يفعل ذلك ميداس».

وقال فورد: «لا يوجد ميداس المراوغ؟».

فقالت مس بومنت: «يقيناً...» وكانت قد بدأت تتعلم اللاتينية قبل
أقل من أسبوعين، ومع ذلك كان لها أن تصوب الأستاذ الممتاز^(٢).

وبدأ يغيظها فقال: «أوه، لا يوجد ميداس المراوغ، إنه يأتي ويلمسك
فتدفعين له فوراً بضعة آلاف في المائة لأنك من ذهب؛ لأنك - إذا
لمسك - تصبحين سيدة ذهبية».

فصرخت مرتدة إلى رعونتها المألوفة: «لن يلمسني أحد!».

- «بل سيلمسك».

- «لن يفعل».

- «سيفعل».

- «لن يفعل».

- «سيفعل».

فتناولت مس بومنت كتاب فرجيل وأهوت به على رأس فورد.

فقالت مسز ووترز: «إفلين إفلين! أنت الآن تنسين نفسك، كما

تنسين سؤالي: أي خير جنيت من اللاتينية؟».

(١) ميداس ملك فريجيا الذي استعار من باكوس السلطان على تحويل كل ما يلمس إلى ذهب، فلما
تحول الطعام - بناء على ذلك - إلى ذهب وأرادت الآلهة نجدة أمرته بالاستحمام في الباكترول، وهو
نهر صغير في ميديا، فأخذت مياهه تخرج شباكاً من الذهب.

(٢) في الأصل الإنجليزي: الأستاذ الملكي (أو الملوكي حسبما تقول العامة).

- «يا مستر فورد، أي خير جنيت من اللاتينية؟».

- «يا مستر إنسكيب، أي خير جنيت من اللاتينية؟».

وعلى هذا أتيت لي المشاركة في الجدل، نعم كانت الحجة التي تدعم دراسة اللاتينية معقولة جدًا، غير أن تذكرها جد عسير. ثم إن عصر ذلك اليوم كان حارًا وأنا في حاجة إلى تناول الشاي، إلا أنه كان عليّ إثبات وجودي بوصفي مدرّسًا، لذلك خلعت منظارتي وتنفست على زجاجتيه قائلاً: «ما أصعب هذا السؤال يا عزيزي فورد».

وقالت مسز وورترز: «إنه يناسب جاك، إذ عليه أن ينجح في امتحان الدخول، ولكن بالله ماذا تجني منه إفلين؟ لا شيء إطلاقًا».

وأصررت مشيرًا إليها بمنظارتي وأنا أقول: «لا يا مسز وورترز، لا سبيل إلى موافقتي إياها لأن مس بومنت - على صورة ما - جديدة على مدينتنا، وهي تتخطى عتبتها، واللاتينية إحدى المواد التي ستختبر فيها في امتحان الدخول أيضًا، ولن يستطيع امرؤ أن يدرك الحياة الحديثة ما لم يتوفر على بعض المعلومات عن أصولها».

فقالت المرأة المتعبة: «ولكن فيم ينبغي لها إدراك الحياة الحديثة؟».

فأجبت في عنف وأنا أطوي منظارتي: «حسن، ها أنت ذي ثانية!».

- «يا مستر إنسكيب، لست أشاطرك الرأي، فتفضل بإخباري ما

الفائدة من كل ذلك، أوه، لقد خبرت بنفسي جويتر وفينوس^(١) وجونو^(٢)

وعرفت الجماعة كلها، ووجدت أن كثيرًا من قصصهم غير مناسبة».

(١) فينوس الزهرة (بضم ففتح) كوكب الصباح أو المساء، وفينوس ربة العشق والجمال.

(٢) جونو السيار زحل. وجونو زوجة جويتر وابنة المشتري وهي إلهة الزواج، ويعتقها الشعراء بالتعالى والغيرة وحب الانتقام.

وقلت مجافياً: «العلوم القديمة لا تقتصر على أساطير الأقدمين، وإن تَكُنْ لهذه الأساطير قيمتها، إنها أحلام، إذا أردتها على أن تكون كذلك، ولكن للأحلام قيمة».

وقالت مسز وورترز: «وأنا أيضاً أرى في منامي أحلاماً ولكنني لم أبلغ من البلاء حد ذكرها بعد ذلك».

ورحمنا صوت قريب وراءنا ممتلئ يبدو منه الإخلاص، بقوله مقاطعاً: «أحيطوا أحلامكم بالإعزاز».. لقد انضم إلينا مضيفنا هاركورت وورترز ابن مسز وورترز وخطيب مس بومنت ووليّ أمر فورد، ومخدومي، ولا بد لي من أن أسميه مستر وورترز.

وردد قوله: «فلنحط أحلامنا بالإعزاز! لقد كنت طوال اليوم أكافح وأشارط وأساوم، وكان انطلاقي ومجيئي إلى هذه المرجة ورؤيتي إياكم جميعاً تدرسون اللاتينية وأنتم في مثل هذه الغبطة والاطمئنان والنعيم المقيم^(١)».

ولم يتم عبارته بل غرق في الكرسي المجاور لمس بومنت، واستولى على يدها، وما إن فعل هذا حتى أخذت تغني: «آه، أنت أيها الحمار الأحق، إن الآلهة تقيم في الغابات!».

فقال المستر وورترز في شيء من العبوس: «ماذا يجري هنا؟».

فأشارت إليّ بيدها الأخرى.

(١) في الأصل الإنجليزي: «النعيم الأركادي». وأركاديا منطقة جبلية في بلاد الإغريق القديمة بالمنطقة الوسطى من البيلوبونيز يسكنها الأركاديون، وهم قوم من الرعاة يعيشون في بساطة وبراءة وظهر وسعادة لا يكدر صفوها شيء.

فقلت متلعثمًا: «فرجيل ... هذه ترجمة دارجة له».

قال: «أوه، فهمت، ترجمة شعر دارجة»، وعاودته الابتسامة ثم قال: «ربما يرجع حبنا الغابات إلى سكنى الآلهة إياها.. لقد اشتريت تَوًّا كتاب (أجمة في عالم آخر)!».

صيحاحات فرح عالية.. وفي الحق أن شجر الزان في تلك الأجمة لطيف كشجرة في هيرتفوردشير، وفوق ذلك فإنها مع المرج الذي يناهزها كانا أبدًا ثلمة في الحدود المستديرة التي تحف بضبعة وورترز، ولذا أفعمنا سرورًا أن المستر وورترز اشترى «عالمًا آخر».. ولم يمسك منا عن الكلام غير فورد الذي أخذ يمر بيده على رأسه - حيث أضناه كتاب فرجيل - ويبتسم إذ يصنع ذلك.

ورنا إلى مس بومنت قائلًا: «.. وإذا اتخذتُ الثمن الذي دفعته مقياسًا، حق لي أن أقول إن في كل شجرة إلهاً، غير أن الثمن في هذه المرة ليس هو المهم..» ورنا إلى مس بومنت وقال: «أنت يا إفلين من الذين يستهويهم شجر الزان. أليس كذلك؟».

- «أنا أنسى دائمًا أيّ الشجر هو الزان، أياكون مثل هذا؟».

ورمت بيديها متلاصقتين عاليتين فوق رأسها فبدت كالقصبه الهيفاء، ثم تمايل بدنهما وارتعش جلبابها الأخضر الرقيق ارتعاشًا يمثل ورق شجر لا حصر له.

فهتف محبها: «يا فتاتي الغالية!».

وقال فورد: «كلا، فهذا يمثل شجر القان».

فأجابت بقولها: «أجل صحيح، هكذا إذن»، ورفعت أطراف ثوبها فانتشرت لحظة راقات مستوية كراقات شجر الزان.

ووجهنا لمحة إلى البيت، فآلفينا أن أحدًا من الخدم لا يرانا، فضحكنا وقلنا: «إنها أهل للرقص فوق مسرح المنوعات».

فصاحت «هذا هو النوع الذي يروقني!» ومثلت من جديد شجر الزان.

وقال المستر وورترز: «هذا ما أظنه. هذا ما أظنه... إن (أجمة عالم آخر) لك».

- «لي أنا...؟!» إنها لم تحظ قط بهدية كتلك طوال حياتها ولذا لم تستوعب هذا الكلام.

- «سيحرر عقد الشراء باسمك، وستمهرين الوثيقة بتوقيعك... فتقبلي الغابة مع حبي على أنها خاتم الخطوبة الثاني».

- «ولكن - هل هي - هل هي لي؟ وهل يسعني أن أصنع بها ما أريد؟».

فقال المستر وورترز مبتسمًا: «يسعك ذلك».

فاندفعت إليه وقبلته، وقبلت مسز وورترز، ولو لم أكن وفورد قد دفعنا مرافقنا لقبلتنا كذلك؛ لأن فرح التملك أدار رأسها.

- «إنها لي! يسعني أن أمشي هناك، وأن أشتغل هناك، وأن أعيش هناك، غابة هي ملك لي! ملك لي إلى أبد الأبد».

- «هي ملك لك على كل حال... إلى تسعة وتسعين عامًا».

«تسعة وتسعين عامًا؟» ويؤسفني القول بأن صوتها أبرز لونا من خيبة الأمل.

- «يا فتاتي الغالية، هل تأملين أن تعيشي أطول من هذه المدة؟»
فأجابت في شيء من الاستحياء: «أظني لا أقدر على ذلك، لست أدري».

- «تسعة وتسعون عامًا لأغلب الناس مدة كافية الطول، لقد أخذت هذا البيت وهذه المرحمة التي تقفين عليها بإيجار مداه تسعة وتسعون عامًا، ومع ذلك فأنا أحسبهما ملكًا لي، وأظن أنني في هذا محق، أليس كذلك؟».

- «نعم، نعم».

- «تسعة وتسعون عامًا تعد، فعلاً، إلى الأبد. أليس كذلك؟!».

- «نعم، نعم، لا بد أنها كذلك».

وعند فورد مفكرة، تبعث على أشد الاهتمام، معنونة في الخارج «شخصي» وفي الداخل «كتاب فعلاً»، رأيته يدوّن فيها الآن مدخلاً هذا نصه: «إلى الأبد، فعلاً، تسعة وتسعون عامًا».

أبدى المستر وورترز ملاحظة كأنما يسرها إلى نفسه، قال: «يا أله! يا أله! كم ارتفعت أثمان الأرض! مذهل جداً!».

ورأيت أنه في حاجة إلى شخص مثل بوزويل، فقلت: «وهل ارتفعت يقيناً؟».

- «تصور، يا عزيزي إنسكيب، ما كنت أستطيعه لو أنني استأجرت

هذه الغابة لعشر سنوات خلت! ولكني أبيت، خَمَنَ لماذا؟».

- «نحن لا يسعنا التخمين».

- «لأن الصفة كانت ستصبح غير قويمة»، وعمّت وجهه - إذا ينطق بهذا اللفظ النبيل - حمرة خجل تناسب المقام: «غير قويمة وإن أقرها القانون، أعني أنها كانت غير قويمة في عرف الأخلاق، إذ لم يكن بد من أن نضرب على يدي مالكةا إذ ذاك، غير أنني أبيت، وقال لي الآخرون - وهم مهذبون على طريقتهم الخاصة - إنني متحذلق. فأجبتهم بقولي: «نعم، قد أكون كذلك، إن اسمي واضح: هاركورت وورترز، وهو ليس اسمًا ذائع الصيت في غير مدينتي ومقاطعتي، ولكنه - حيث يعرفونه - اسم له بعض الوزن، وهذا من دواعي افتخاري. أنا لن أوقع على وثيقة كهذي، وهذا قصارى أمري. سمو هذا حذلة إذا طاب لكم ذلك ولكني لن أوقع، وما ذاك من ناحيتي غير حذلة، ولنسمها بهذا الاسم».

واحمر وجهه خجلًا من جديد، ويعتقد فورد أن جسد ولي أمره عمته الحمرة جميعًا وأنك إذا استطعت تعريته ودفعه إلى الكلام النبيل فسيبدو كجراد البحر، وفي المفكرة رسم له بهذه الصورة.

واستفهمت مس بومنت التي تتبعت الحكاية في شيء من الاهتمام: «وإذن فمالكةا إذ ذاك ليس مالكةا الآن؟».

فأجاب المستر وورترز: «لا، لا».

فقالت مسز وورترز، غافلة، وهي تتصيد إبرة الحَبْك من بين الكلاء: «لا! قطعًا لا! لأن الأرض ملك لأرملته».

وصرخ ولدها وقفز واقفًا على قدميه مسرورًا: «الشاي! إني أرى الشاي وأبتغيه. تعالي يا أماه، إليَّ يا إفلين، في وسعي أن أقول لكم إن الأمر ليس مزاحًا، وإن يومنا هذا يوم عسير في معترك الحياة، والحياة معركة، إنها معركة من أجل كل المقاصد والغايات، ويستثنى من دخولها قليل من المحظوظين الذين يستطيعون أن يقرأوا الكتب، وعلى ذلك يتكبدون الحقائق، ولكنني...».

وأخذ صوته يتلاشى تدريجًا وهو يقود السيدتين عبر المرحلة السلسلة وفوق الدرج الحجري المؤدي إلى الشرفة، وكان الخادم يصف عليها موائد ومقاعد صغيرة وركيزة فضية لغلاية الشاي، وخرج من الدار وقتئذ سيدات أخريات، وكانت تصل إلى مسامعنا صيحات هرجهن بعدما علمن بشراء (عالم آخر).

أنا أحب فوردي، فلهذا الصبي شيم طالب العلم وشيم «السيد المذهب» وإن اعترض هو على التسمية، وقد أعجبتني رؤية شفثيه تتحويان بصورة تنم على سخرية الشباب المبهمه، فهو لم يقدر على أن يفهم الخادم وركيزة الفضة المصبوبة المعدة لغلاية الشاي، والخادم والركيزة يثيران غضبه لأنه يحلم أحلامًا ليست روحية بكل معاني الكلمة، ومستر وورترز هو صاحب القدح المعلى في هذا الأمر، ولكنه يحلم عن أمور ملموسة واقعية، أحلامًا قوية لا تحلق به في السماء بل تحمله إلى عالم آخر، وفي هذا العالم الآخر: أولًا- لا وجود للخدم، وثانيًا- ركائز الغلايات ليست مصنوعة من الفضة فيما أحسب، وثالثًا- كل شيء حقيقته تطابق مظهره وليس في واقع أمره شيئًا آخر. أما عن معنى هذا وعن فائدته إذا كان له

معنى، فأنا لست مستعداً للإفصاح، ولئن سبق لي التصريح بأن «للأحلام قيمتها» فإنما فعلت ذلك لأسكت مسز وورترز.

- «امض يا رجل! فنحن لن نستطيع تناول الشاي حتى نجتاز شيئاً ما».

وأدار كرسيه عن الشرفة كي يتسنى له أن يجلس بحيث يشاهد المرجة والجدول الذي يشقها، وشجر الزان الذي في (العالم الآخر) والذي يسمق وراء هذا الجدول، ثم بدأ يفسر نشيد الرعاة لفرجيل في أبلغ الجد والإعجاب.

إن أجمة (عالم آخر) تحاكي كل المحاكاة أية أجمة أخرى من شجر الزان، وعلى ذلك أصبحت في حل من أن أوفر على نفسي عناء وصفها، والجدول الذي يجري أمامها - مثل كثير من أمثاله - لا تعبره قنطرة في المكان المناسب، ويكون على المرء إما أن يمشي حوله ميلاً وإما أن يخوضه، واقتربت مس بومنت أن نخوض.

وأقر مستر وورترز اقتراحها في ضجة ثم اتضح تدريجاً أنه لن يأخذ به. - «يا للتسلية! يا للتسلية! سنخوض (إلى عالمك)، آه لو لم تكن أدوات الشاي».

- «ولكنك تستطيع أن تحمل أدوات الشاي على ظهرك».

- «نعم نعم، أستطيع هذا، أو يستطيعه الخدم».

- «هاركورت... لا خدم، هذه نزهتي أنا، وهذا طعامي، سأدبر كل شيء... أنا لم أخبركم، لقد استحضرت الطعام كله وكنت في القرية مع

المستر فورد».

- «في القرية...».

- «أجل لقد استحضرننا (بسكويت) وبرتقالاً ونصف رطل من الشاي، وهذا كل ما سوف تصيبون، لقد حملها، وسيحملكم عبر النهر، ولست أرجو إلا أن تعيروني بعض أدوات الشاي - لا من أجود الأصناف - وسأعني بها، وهذا قصاري».

- «يا أيها الإنسان العزيز...».

وقالت مسز وورترز: «يا إفلين، كم دفعت أنت وجاك ثمناً للشاي؟».

- «عن نصف الرطل عشرة بنسات».

وتلقت مسز وورترز الخبر في صمت واكتئاب.

وصاح مستر وورترز: «اسمعي يا أماه! لقد نسيت، كيف يتسنى لنا أن نخوض مع وجود أُمي؟».

- «أوه يا مسز وورترز، نستطيع أن نحملك».

- «شكراً لك يا أعز الأطفال، يقيني أنك تستطيع».

- «وا أسفًا يا إفلين! أُمي تسخر منا، فقد تموت قبل أن نحملها، لهف نفسي! هناك أخواتي ومسز أزجود، إنها امرأة باردة متعبة، كلا، سيكون علينا أن نلف طريق القنطرة».

فبدأ فورد يقول: «ولكن بعضنا...» وأسكته وليُّ أمره بنظرة سريعة.

واستدرنا في موكب من ثمانية تقودنا مس بومنت، وكانت مريحة

جداً، أو هكذا زعمت إذ ذاك، ولكنني عندما استعرضت أحاديثها فيما بعد لم أستطع أن أجد فيها أي شيء قد يبعث على التسلية.

لقد كانت على هذا النمط: «تتابعوا فرادى! تصوروا أنكم في كنيسة.. ولا تتكلموا، يا مستر فورد، أخرج أصابع قدميك، يا هاركورت! عند القنطرة ألق إلى جنية الماء بتنشيقه من الشاي لأنها مصابة بصداً منذ ألف وتسعمائة سنة»، لقد كان كل ما قالته سخيلاً، ولا أستطيع أن أعرف لماذا ملت إليها في ذلك الوقت.

وقالت عندما شارفنا الأجمة: «يا مستر إنسكيب: غنّ نغنّ وراءك: (أيها الحمار الأحمق إن الآلهة تعيش في الغاب)». ثم سلّكت حلقي وأذعت العبارة الشنيعة وغنيناها جميعاً كأنها صلاة، وكان في مس بومنت شيء جذاب، ولم يدهشني أن هاركورت انتقاها من «إيرلندا» وجاء بها إلى بلاده وخطبها دون أن يكون لديها مال أو أن تربطه بها رابطة ودون مقدمات، وكانت تلك جرأة منه ولكنه كان يعرف أنه إنسان جسور، وهي لم تجلب له شيئاً غير ما يسعه هو أن يجلب، ولديه فيض كبير من العروض الروحية والتجارية، ولقد سمعته يقول لأمه: «سترد لي أفلين مع الوقت ألف ضعف»، ومهما يكن ففيها شيء جذاب، ولو كان لي أن أختار مَنْ أحب لاخترتها».

فصاحت قائلة: «كف عن الغناء!»، ودخلنا الغابة: «مرحباً بكم جميعاً»، فحيننا رؤوسنا، وانحنى فورد حتى الأرض دون أن يضحك: «والآن تفضلوا بالجلوس.. يا مسز وورترز: هلا تفضلت بالجلوس هناك مستندة إلى تلك الشجرة الخضراء الجذع! إنها ستظهر ثوبك الجميل!...».

فقلت مسز وورترز: «حسن جدًا يا عزيزتي، سأفعل».

«يا أنا، هناك... يا مستر إنسكيب اجلس بعدها، ثم روث ومستر أوزجود... يا هاركورت، اجلس إلى الأمام قليلًا لتحجب البيت، فما أود رؤيته ألبتة».

وضحك محبها قائلاً: «ما أنا بفاعل، فأنا أيضًا أود أن أسند ظهري إلى شجرة».

واستفهم فورد: «يا مس بومنت، أين أجلس؟» وكان واقفًا وقفة (انتباه) كالعسكري.

فصاحت: «انظر إلى كل أولئك الـ وورترز يتوسطهم فورد واحد صغير!». قالت ذلك لأنها كانت مثقفة تثقيفًا يجعلها تدرك التورية. «أأقف يا مس بومنت؟ وهل أحجب البيت عنك إذا وقفت!».

وصاح ولي أمر جاك به مقاطعًا في غلظة لا مبرر لها: «يا جاك، اجلس أيها الطفل، اجلس!».

قالت مس بومنت: «في وسعه أن يجلس إذا أراد.. اسحب قبعتك الناعمة إلى وراء يا مستر فورد تجعلها كالهالة.. أنت تحجب الآن كل شيء حتى الدخان من المداخل... إنها تجميلك».

«يا إفلين يا إفلين! أنت شديدة جدًا على الصبي، وستنهكينه، إنه أحد المغرمين بالمطالعة وهو ليس قوي البنية، فدعيه يجلس».

فسألته: «أقوي أنت؟».

فصاح: «أنا قوي»، وهذا جد صحيح، وليس من حق فورد أن يكون قويًا ولكنه كذلك، وهو لم يتمرن قط بالدمبلز^(١) ولم يشارك في مدرسة فرقة الخمسة عشر، ولكن عضلاته ظهرت، وهو يزعم أنها ظهرت وهو يطالع كتاب «بندار».

- «وإذن فيسعك - بالمثل - أن تقف إذا أردت».

- «إفلين إفلين، يأتيها الصبية الأناث التي تتصرف تصرف الأطفال! إذا أنهك جاك المسكين فسأحل محله، لماذا لا تودين أن تري البيت؟».

وكانت مسز ومس وورترز تتحركان في شيء من القلق بعدما رأتا أن هاركورتهما لا يبدو كامل السرور... أما كونه هاركورتهما فلا تسل عن سبب ذلك... وبما أن إفلين هي التي تستطيع أن تزيل استياءه فقد رنتا إليها.

- «اسمعي، لماذا ترغبين عن رؤية بيت المستقبل؟ إن واجبي ليقترضني أن أقول - وإن كنت واضح «تصميم» البيت بنفسه - إن منظره من هنا جميل جدًا، وإن سقفه الهرمي (الجمالون) يعجبني يا آنسة! أجيبني!».

واستشعرت شعور مس بومنت، فالسقف الهرمي المصنوع في البيت شيء فظيع، ودار هاركورت تلوح، من انتفاخها، ككوخ يشكو مرض الاستسقاء، ولكن ما عساها أن تقول؟

فلم تقل شيئًا.

(١) الدمبلز: كرتان من حديد تربط بينهما قصبة، لتنمية العضلات.

«حسن؟».

فتصرفت كأنه لم يتكلم أصلاً، وظلت بهيجة باسمه جميلة كشأنها
أبدًا، ولم تقل شيئًا غير مدركة أن كل سؤال يستتبع جوابًا.
وأضحى الموقف بالنسبة لنا لا يطاق، فتحتم عليّ أن أنقذه بإشارة
لبقة إلى المنظر الذي قلت إنه يذكرني قليلاً بالإقليم القريب من فيبي^(١)،
وهذا التشبيه ليس صحيحًا ولا يمكن أن يصبح كذلك؛ لأنني لم أرتحل
قط بالقرب من فيبي. غير أن بعض طريقتي أن أُلَمع إلى الأدب القديم،
ومهما يكن فقد أنقذت الموقف..

وفي الحال ظهر الجد والتعقل على مس بومنت وسألني التاريخ
لـ(فيبي) فأجبت الإجابة المناسبة.

وأعلمتنا بقولها: «إني أحب كتب الأدب القديم (الكلاسيكي)، فهي
خالية من التكلف وهي مجرد تسجيل للحوادث».

فقلت أنا: «نعم، ولكن كتب الأدب القديم فيها شعر ونثر، وهي أكثر
من تسجيل للحوادث».

قالت مس بومنت: «إنها تسجيل للحوادث وحسب» وابتسمت
كأنما سرها التعريف السخيف.

وأفاق هاركورت وقال: «نقد بالغ الدقة، وهذا ما أستشعره دوماً بالنسبة
للعالم القديم، هي لا تتقدم بنا إلا القليل لأنها لا تزيد على تسجيل «الأشياء».

(١) فيبي: مدينة قديمة في إتروريا بإيطاليا بين نهر التيبر وجبال الأبنين أخضعها كميل الروماني سنة
٢٩٥ ق.م.

واستفهمت إفلين: «ماذا تعني؟».

«أعني ما يلي، وإن يكن من الجرأة الكلام في حضرة المستر إنسكيب، إليك ما أعنيه: كتب الأدب القديم (الكلاسيكي) القديمة ليست كل شيء، نعم نحن مدينون لها بالكثير، وأنا آخر من يبخسها قيمتها، وقد درستها أنا أيضًا بالمدرسة، وكلها رشاقة وجمال، ولكنها مع ذلك ليست كل شيء، ذلك لأنها كتبت قبل أن يبدأ الناس في الإحساس بالشعور الحقيقي»، ثم احمر وجهه وقال: «ومن هنا البرود الذي يتمشى في الفن القديم... افتقاره إلى شيء... إلى شيء ما، بينما الأشياء التي وردت فيما بعد مثل دانتي^(١) وعذراء رفايل^(٢) وفاصلات مندلسون الموسيقية^(٣)» وأخذ صوته يتلاشى تدريجًا في احترام. وجلسنا نغض من أبصارنا كي لا تقع على مس بومنت، ومن الأسرار التي قدر لها بعض الذبوع أنها، هي أيضًا، تفتقر إلى شيء... إن روحها لم تنضج بعد.

وكسر الصمت صوت مسز وورترز الضئيل الذي أعلن أن قواها خارت من الجوع.

ووثبت ربة المنزل الصغيرة ولم تتح لأحد منا الفرصة لمساعدتها إذ كانت تلك وليمتها، فحلت أربطة السلة وأخرجت (البسكويت) والبرتقال من الأكياس، وأوقدت تحت الغلاية، وصبت الشاي، وهو لم يكن سائغًا على الإطلاق، غير أننا مع ذلك ضحكنا وتحدثنا في

(١) دانتي الليجييري أبو الشعر الإيطالي (١٢٦٥م - ١٣٢١م)، ولد في فلورنسا ولعب في سياستها دورًا مهمًا ثم نفاه خصومه وعاد ليموت في رافين.

(٢) رفايل: مهندس معماري ومثال ومصور ذائع الصيت في إيطاليا، ومن صوره الشهيرة عذراء رفايل وهي أم المسيح.

(٣) مندلسون موسيقار مشهور عاش من ١٨٠٩م إلى ١٨٤٧م.

خفة تناسب الهواء الطليق، وحتى مسز وورترز كانت تبتسم وهي تطرد الذباب، ووقف يعلونا جميعاً فورد الصامت النبيل يشرب الشاي في حذر خشية أن يسيء إلى ملامحه، وقد عمد وليُّ أمره الماجن إلى مماحكته ودغدغة رسغيه وسمانتي رجليه.

قالت مس بومنت: «حسن، هذا لطيف، وأنا أشعر بالسعادة»، فقالت السيدات: «غابتك يا إفلين!».

فصاح المستر وورترز قائلاً: «غابتها أبدأ الأبدين! ويمتد عقد إيجارها تسعة وتسعين عاماً، وتلك تسوية لا ترضي ولا توحى بالاستقرار، وقد بدأت أتفاوض من جديد وابتعت لها الغابة تملكها إلى الأبد... السمع والطاعة يا عزيزتي، السمع والطاعة! ولكن كفي عن إحداث الضوضاء».

فصاحت قائلة: «لا بد من ذلك! لأن كل شيء على خير ما يرام! أنتم جميعاً قوم كرام مع أنني منذ سنة واحدة لم أكن أعرف معظمكم، أوه، إنه لمدحش! والآن غابة، غابة أتملكها، غابة إلى الأبدين، وها أنتم أولاء جميعاً تتناولون الشاي معي في هذا المكان! أيها العزيز هاركورت، أيها الأعضاء!... هاك المستر فورد حيث يوجد البيت الذي يفسد علينا مباهجننا».

فضحك المستر وورترز «هاها!» ودس يده عالية مطوّفاً بها مرفق الصبي، ولست أعرف ما جرى ولكن فورد انهار ووقع على الأرض مع صرخة مدوية قد يردّها الغريب إلى الغضب أو الألم، أما نحن الذين نعرفه أكثر مما يعرفونه فقد علا ضحكنا.

- «إنه يهبط! إنه يهبط!» واعتركوا يلعبون ويركلون الطين وورق الشجر الناشف..

فصاحت مس بومنت: «لا تؤذوا غابتي».

وصرخ فورد صرخة عنيفة أخرى، وسحب المستر فورد يده وهتف: «انتصار! يا إفلين! إليك مقعد الأسرة!» ولكن مس بومنت - على غرار الفراشة - زابلتنا وطفقت تسير في غابتها بخطى واسعة.

وبعد أن حزمنا أدوات الشاي انقسمنا جماعات، وانضم فورد إلى السيدات، وشرفني المستر وورترز بصحبته.

وقال مجازيًا الصيغة المألوفة: «حسن! وكيف حال الدراسات القديمة؟».

- «لا بأس».

- «وهل تبدي مس بومنت أي اقتدار؟».

- «أستطيع أن أقول إنها تفعل، ومهما يكن فهي تبدي حماسة».

- «ألا تظن أن تلك حماسة الأطفال؟ إنني مصارحك يا مستر إنسكيب بأن مس بومنت طفلة في كثير من نواحي تصرفاتها، وينبغي لها أن تعلم كل شيء، إنها تعتد بنفسها كثيرًا، وحياتها الجديدة جد مغامرة، وجد غريبة، وعليها أن تتدرب على عاداتنا وأفكارنا جميعًا».

وفطنت إلى ما رمي إليه - وأنا لست أبله - فأجبتة بقولي: «وأي تدريب خير من الإلمام بالدراسات القديمة؟».

قال المستر وورترز: «بالضبط تمامًا». وفي هذه الأثناء سمعنا

صوتها وهي تحصي شجر الزان: «والسؤال في موضوع الدراسات القديمة (اللاتينية والإغريقية) هو: ما الذي ستصنعه بها؟ أيسعها أن تفيد منها شيئاً ما؟ أيسعها ذلك؟.. لا يبدو أنها قد تلقنها الآخرين يوماً ما».

- «هذا صحيح، وربما يكونون قد لاحظوا الحيرة على قسّمات وجهي».

- «أنا أسلم بأن لديها الحماسة، ولكن- ما دامت لا تعرف إلا القليل- ألا يجدر بالمرء أن يحول هذه الحماسة إلى الأدب الإنجليزي مثلاً؟ إنها لا تكاد تفقه شيئاً عن تنيسون^(١).. لقد قرأت لها بمعهد التمثيل المشهد العجيب الذي دار بين آرثر وجنيفر، نعم إن الدراسات القديمة كلها طيبة جداً ولكنني أشعر أحياناً أننا ينبغي لنا أن نبدأ من البداية».

فقلت: «أنت تشعر- بالنسبة لمس بومنت- أن الدراسات القديمة لا تعدو أن تكون كمالية».

- «كمالية، هذه هي الكلمة الدقيقة يا مستر إنسكيب، كمالية، وهم، ولكنها بالنسبة لجاك فورد على ما يرام، ولنتنقل إلى نقطة أخرى، هل من المؤكد أنها تعوق جاك؟ لا بد من أن تكون معلوماتها أولية».

- «حسن، معلوماتها أولية، فيجب إذن أن أقول إن من الصعوبة تلقينهما معاً، فلقد قرأ جاك قدرًا طيبًا على صورة من الصور، بينما مس بومنت، وإن تكن نشيطة متحمسة...».

- «كنت أشعر بمثل هذا، فهل هذا النظام يجحف بجاك نوعاً ما؟».

(١) لورد ألفرد تنيسون (١٨٠٩ - ١٨٩٢) شاعر إنجليزي اشتهر بالقصص والشعر الوطني.

- «حسن، يجب أن أسلم بأن...».

- «بالضبط، وما كان لي إطلاقاً أن أشير به، ولا بد من أن ينتهي، وإن سحب تلميذ لن يحدث لك أي فرق يا مستر إنسكيب».

- «ستوقف الدروس فوراً يا مستر وورترز».

وهنا صعدت إلينا: «يا هاركورت، هناك ثمان وسبعون شجرة، هكذا أحصيتها».

فأوماً إليها مبتسماً... وإني لأود أن أذكر أنه طويل وسيم، حاد الذقن، صافي العينين، مرتفع الجبين، وأن شعره ليس رمادياً كله، وأن قليلاً من الأشياء هي التي تسترعي النظر أكثر مما تسترعيه صورة فوتوجرافية للمستر هاركورت وورترز.

- «ثمان وسبعون شجرة؟».

- «ثمان وسبعون».

- «أراضية أنت؟».

- «أوه يا هاركورت...».

وبدأت أحزم أدوات الشاي، وسمعتني كلاهما ورآني، والخطأ خطأهما لأنهما لم ينأيا أكثر مما فعلا.

- «إني أعلل النفس بتشديد قنطرة، قنطرة ريفية في الدرك، وقد أشق بعد ذلك ممراً من الأسفلت، من البيت عبر المرح، حتى يتسنى لنا في كل الأجواء أن نمشي هنا غير مبتلي الأقدام، وبما أن الأولاد يأتون إلى هذه الغابة- ألقى بالك إلى كل تلك الحروف المحفورة على الشجر- فقد

فكرت في إقامة سور بسيط لنحظر الدخول على غيرنا...».

«هاركورت».

واستأنف الكلام قائلاً: «سور بسيط، تمامًا كالذي حففت به حديقتي وحقولي، وفي طرف الأجمة الآخر - بمنأى عن الدار - سأقيم بابًا كبيرًا وأستحضر له مفاتيح، مفتاحين فيما أظن، واحدًا لي وواحدًا لك، مفتاحين لا أكثر، وسأشقّ إليه ممر الأسفلت...».

- «ولكن يا هاركورت...».

- «ولكن يا إفلين!».

- «أنا... أنا... أنا...».

- «أنت... أنت... أنت؟».

- «أنا لا أرغب في ممر من الأسفلت».

- «لا؟ ربما كنتِ على حق، قد تكون طريقًا مطروقة، نعم، أو حتى من الحصباء (الحصى)».

«ولكني يا هاركورت لا أرغب في ممر ألّبتة، أنا... أنا... أنا لا أستطيع أن أنفق على مده».

فانفجر ضاحكًا ضحكة المنتصر: «يا أعز مخلوق! كأنما سوف أسبب لك ضيقًا، إن الممر جزء من هديتي».

قالت مس بومنت: «الغابة هديتك، فاعلم أنني لا آبه لممر، وإنني لأوثر أن أجيء دائمًا كما جئنا اليوم، ولست أريد قنطرة، لا، ولا سورًا،

ولن يضايقني الأولاد والحروف التي يحفرونها، لقد كان الأولاد والبنات يحيئون دائماً إلى (عالم آخر) ويحفرون في لحاء الشجر الحروف الأولى من أسمائهم، وأنا أسمى هذا المرة الرابعة في السؤال^(١)، إني لا أود أن أمنع أحداً».

فأشار إلى قلب كبير رشق فيه سهم وقال: «أخ! أخ! أخ!» وأغلب الظن أنه أراد أن يكسب وقتاً.

- «يحفرون أسماءهم وينصرفون، ولدى ولادة الطفل الأول يعودون ليعمقوا الحروف المحفورة، وهكذا تبعاً لدى ولادة كل طفل آخر، هكذا يفعلون، فالحروف الأولى البالغة العمق ترمز لآباء أسر كبيرة وأمهاتها، أما خدوش اللحاء التي تلتئم بعد وقت قصير فترمز للأولاد والبنات الذين لم يتزوجوا إطلاقاً».

- «يا أيتها الشخصية المدهشة! لقد قضيت هنا حياتي كلها ولم أسمع قط كلمة من هذا، تصوري وجود أساطير شعبية في هيرتفوردشير! لا بد لي من إعلام رئيس الشمامسة بذلك فسيصره...».

- «هاركورت! أنا لا أرغب في وقف هذه التقاليد».

- «يا فتاتي العزيزة! سيجد القرويون شجراً غير هذا الشجر! و(عالم آخر) ليس فيه شيء نادر».

- «ولكن...».

(١) يشير إلى عادة المسيحيين في الإعلان بالكنيسة قبل الزواج، فإذا لم يعترض أحد سقط الحق في الاعتراض نهائياً.

- «(عالم آخر) سيكون لنا، أنت وأنا، ولن يحفر فيه إلا الحروف الأولى من اسمينا» وخفت صوته حتى صار همساً.

- «أنا لا أود أن أحيطه بسور»، واتجه وجهها إليّ فألفيته مرتبكاً مذعوراً «إني أكره الأسوار، والقناطر، وكل الممرات، هذه غابتي، أرجوك، لقد أعطيتني الغابة».

ورغب في تسكين روعها مع أنه غاضب، قال: «أجل، بالطبع، ولكن اسمعي يا إفلين.. المرج مرجي وأنا في حل من أن أقيم سوراً بين أرضي وأرضك».

- «أقم السور إذا راقك ذلك، ولكن على أن أكون أنا خارجة عنه، فلن أكون في داخله أبداً يا هاركورت، أجل لن أكون بداخله، ينبغي إليّ أن أكون في الناحية الحرة، ينبغي لي أن أكون حيث يتسنى لأي امرئ أن يصل إليّ، إن تعميق الحروف سنة بعد سنة هو الشيء الوحيد الذي يستأهل أن يستشعره المرء، فإذا انطمست تلك الحروف بعد ذلك فسيكون قد سبق لي الإحساس بها».

فتمتم، مستنداً إلى العبارة الوحيدة التي فهمها والتي كانت في مصلحته: «الحروف الأولى من اسمينا! فلنحفرها الآن، أنت وأنا، قلب، إذا راقك، وسهم وكل شيء (هـ.و. - أ.ب.)».

وأعادت «(هـ.و. - أ.ب.)».

واستخرج مديته وسحب فتاته في طلب شجرة غير ملطخة: «أ.ب، بركة دائمة، لي أنا وحدي! لي أنا وحدي! ملاذي من الدنيا! معبدي

الطاهر! أوه، يا للعظمة الروحية! أنت لا تدري كينها ولكنك سوف تفعلين! أوه، الجنة المعزولة، سنة بعد سنة، معًا بمفردنا، كل منا للآخر، قلبًا وقلبًا، عامًا بعد عام، روح لروح. أ.ب. البركة الدائمة!» ومد يده ليحفّر الحروف، وعندما هم بذلك لاحت كمن استيقظ من حلم ثم صاحت: «هاركورت! هاركورت! ما تلك؟ ما تلك المادة الحمراء التي تلون إصبعك وإبهامك؟».

- ٣ -

- «يا للسماء! يا للآلهة كافة ذكورًا وإناثًا! لقد نبئت مشكلة لأن المستر وورترز قرأ في مفكرة فورد المتأججة».

قال فورد: «الخطأ خطئي، فقد كان ينبغي لي أن أعنونها (شخصية وخاصة)، ولكن أنني له أن يدرك أنه ليس المعني بقراءتها؟».

فتكلمت في صراحة كما قد يتكلم الموظف، قلت: «يا أيها الصبي العزيز، لا شيء من هذا، لقد سقطت بطاقة العنوان، ولذا فتح المستر وورترز المفكرة، ولم يدر بخلده قط أنها شخصية. انظر! لقد سقطت البطاقة».

فأجاب فورد متحدثًا وهو عابس: «لا، بل انتزعت انتزاعًا».

قلت وقد تظاهرت بعدم الفهم: «المهم هو هذا: يفكر المستر وورترز في الأمس مدى أربع وعشرين ساعة، وإذا استمعت إلى نصحي فاعتذر قبل انقضاء تلك الفترة».

- «وإذا لم أفعل؟».

- «بطبيعة الحال أنت أدري بشؤونك، ولكن لا تنس أنك صغير السن، وأنت لم تكد تمارس الحياة، وأنه لا مال عندك، وعندي أن مستقبلك متوقف على رعاية المستر وورترز، وأنت سخرت منه، وهو لا يحب أن يسخر منه أحد، ويبدو لي أن سبيلك واضحة».

- «اعتذار؟».

- «صريح».

- «وإذا لم أعتذر؟».

- «فراق».

وجلس على الدرج الحجري وأقر رأسه على ركبتيه، وكانت مس بومنت تحت، على المرجة تجرر قدميها مع قليل من كرات الكروكت^(١)، أما محبتها فكان في المرج يشرف على مد ممرات من الأسفلت بعد أن أصر على مدها، وكذلك على إنشاء القنطرة، وإقامة السور حول (عالم آخر) مع كل ما سبق. وقد رأت مس بومنت، مع الوقت، إلى أي حد كانت اعتراضاتها غير سليمة، هذا إلى درجة أنها ذات ليلة في حجرة الاستقبال أذنت لزوجها هاركورت، بمحض اختيارها، في أن يصنع ما يروقه، وقد قال فوردي: «هذه الغابة تبدو أكثر قربًا».

- «لقد زالت الأسوار الداخلية، وهذا يقربها في أنظارنا، غير أن واجبك أيها الصبي العزيز أن تبت فيما عليك فعله».

(١) الكروكت لعبة ترمي إلى التسابق في ضرب كرات خشبية بمضارب خشبية بحيث تمر الكرات تحت أقواس حديدية مغروزة في الأرض.

- «وأي قدر قرأ؟».

- «إنه، بطبيعة الحال، لم يزد على فتح الكتاب، ونظرة واحدة تكفي، قياساً على ما أريتني منه».

- «وهل اطلع على صفحات الشعر؟».

- «الشعر؟».

- «هل تحدث عن الشعر؟».

- «كلا، هل كان الشعر فيه؟».

- «لا، لم يكن فيه».

- «وإذن فليست هنالك أهمية إذا كان قد رآه».

قال فورد رافعاً بصره إليّ: «أحياناً يكون ذكر المرء تحية له»، وفاح من هذه الملاحظة أريج لاذع كالشذى الذي يعلق بالفم إثر شرب نبيذ ممتاز، ولم يكن وقع هذه الملاحظة كوقع ملاحظات الصبيان، وأسفت على أن تلميذي عرض مستقبله للدمار، وقلت له ثانية إن الأولى به أن يعتذر.

- «ما أنا بمتحدثٍ عن الاعتذار الذي يطلبه المستر وورترز، فهذا وحيه أوتر عدم مساسه، والمهم هو أنك إذا لم تعتذر وجب أن تذهب... إلى أين؟».

- «لدي عمة في بكهام».

فأشرت إلى المنظر الخلوي المبهج الذي تكثر فيه الأبقار ومركبات

الخييل على الكلاء في العراء ولدى السواس (السياس)، والذي يتوسطه المستر وورترز ويشيع فيه النشاط والثروة، وقلت: «يا عزيزي فورد، اعتذر ولا تستمسك بالبطولة».

وكان من سوء الحظ أنني رفعت صوتي بعض الشيء، وسمعتني مس بومنت التي كانت تحت على المرجة.

وصاحت قائلة: «يعتذر؟ عن أي شيء؟» وزايلها اهتمامها باللعبة وصعدت الدرج إلينا تجر وراءها مضرب الكروكت، وكانت خطواتها أقرب إلى الثقل وصوتها أميل إلى الانخفاض.

فهمست: «تعالى ندخل الدار إذ يتحتم الخروج مما نحن فيه».

فقال فورد: «وأنا أبى كل الإباء».

وسألت وهي واقفة إلى جواره على الدرج: «ما خطبك؟».

فرفع بصره إليها وابتلع شيئاً ما، وفجأة فهمت، فقد عرفت طبيعة أشعاره وموضوعها، ولم أعد الآن موقناً كل اليقين من أن الاعتذار خير له، إذ بقدر البكور في طرده تحسن حاله.

وحدثها عن الكتاب مع اعتراضى على ذلك، فكانت أولى ملحوظاتها: «أوه، أرجوك أن ترخص لي الاطلاع عليه!» ولم يكدها أي نوع من الإحساس بحقيقة الأمر، ثم قالت: «ولكن لماذا يبدو عليكما الأسى؟».

فقلت: «نحن في انتظار قرار المستر وورترز».

— «أي هراء هذا يا مستر إنسكيب! هل يصح في خلدك أن هاركورت قد يكون غاضباً؟».

- «إنه غاضب بطبيعة الحال، وهو في هذا على حق».

- «ولكن لماذا؟».

- «لأن فورده سخر منه».

«ولكن ما هذا؟» وكانت تلك المرة الأولى التي فيها نم صوتها على الغضب: «أتريد أن تقول إنه يعاقب امرأً يسخر منه؟ لماذا إذن، لأي أمر آخر، لأي سبب إذن نحن هنا؟ أليس لكي يسخر كل منا من الآخر؟ أنا مثلاً أسخر النهار كله من الناس، من المستر فورده، منك.. وهكذا يفعل هاركورت، أوه لقد أسأتم فهمه، إنه لن يغضب من أناس يداعبونه».

فقال فورده: «لم تكن دعابتي مما يسر، ولن يسامحني في يسر».

وتهكمت به قائلة: «أنت صبي أحمق، أنت لا تعرف هاركورت، إنه كريم من كل وجه وإنه ليغضب - كما قد أغضب أنا - إذا أنت اعتذرت. أليس الأمر كذلك يا مستر إنسكيب؟».

- «أظن أن له الحق في اعتذار منك».

- «حق؟! وما الحق؟ أنت تستعمل كثيرًا من الألفاظ الجديدة: (حقوق - اعتذار - المجتمع - مقام) وأنا لا أستطيع متابعتك، ومهما يكن فلماذا أتينا إلى هنا؟».

لقد حفلت محاضرتها بالأضواء والظلال الراجفة، فهي مستخفة لحظة، متسائلة في اللحظة التي تليها لماذا وجدت الإنسانية هنا؟ وأنا لم أحصل على مرتبة الشرف في علم الأخلاق؛ ولذا لم أستطع أن أجيبها.

- «ولكنني عرفت شيئًا واحدًا وهو أن هاركورت ليس في مثل

حماقتكما، بل هو يسمو فوق التقاليد ولا يأبه لـ (حقوق) و(اعتذارات) ويعرف أن كل دعاية مستحبة، وأن الأشياء المستحبة الأخرى هي المال والروح وما إليها».

الروح وما إليها! لقد عجبت من أن هاركورت - هنالك في المروج - لم يصب بنوبة من نوبات الصرع.

واستأنفت الكلام قائلة: «تعمساً لحياتكم جميعاً إذا انقضت بين الإساءة والاعتذار! أربعون مليوناً في إنجلترا كلها سريعو الغضب! وإذا صح هذا فكيف يضحك المرء؟ تصور!»، وضحكت فعلاً ثم قالت: «انظر إلى هاركورت، إنه خير مما تقول، إنه ليس تافهاً إلى هذه الدرجة يا مستر فورد... إنه ليس تافهاً إلى هذه الدرجة، فهل بعينك قذى؟».

وأرسي رأسه على ركبتيه مرة أخرى، فلم نعد نستطيع رؤية عينيه، وأعلمتني في نغم رزين بأنها تحسبه يبكي، ثم نقرت بمضربها على شعره قائلة: «بكاء أيها الطفل! بكاء بكاء أيها الطفل! بكاء للا شيء!». وهبطت الدرج ضاحكة، وصرخت من المرج قائلة: «طيب! اطلب إلى الطفل الباكي أن يسكت فأنا ذاهبة لأتحدث إلى هاركورت».

وراقبناها تذهب في صمت... ولم يكد فورد يبكي، ولكن كانت عيناه تتسعان في غضب، مستعملاً كل ما استوعب من ألفاظ السباب، ثم ينهض فجأة ويدخل الدار، وأظن أنه لم يكن يطبق رؤيتها خائبة الأمل، وأنا لم أكن في مثل حنانه؛ ولذا كنت أرقب في اهتمام موفور مس بومنت وهي تدنو من سيدها.

ومشت عبر المرج في ثقة، تنحني للعمال كلما رفعوا قبعاتهم لها، وزايلها استرخاؤها، واختفى معه الطابع المصطنع الذي يميزها، وعادت إلى شخصيتها الساذجة الفطرية التي اختارها هاركورت من إيرلندا، تلك الشخصية الجميلة الفكهة إلى أقصى حد، أما إذا نشدت الحنان فهي الغاية فيه.

رأيتهما يلتقيان، ولم تلبث أن تعلقت بذراعه، وفهم من تعبير يده أنه يشرح لها كيفية إنشاء القناطر، واعترضت كلامه مرتين، وكان عليه أن يعاود الشرح، ثم أقحمت كلامًا تبعته أحداث تفضل كثيرًا رواية تمثيلية.. افترق جسدهما الصغيران ثم التقيا وافترقا من جديد، وهي تعبر بيديها، بينما لاح هو بالغ الزهو والهدوء، واستمرت تتوسل وتدافع وتجادل وتحاول أن تغلو في التهكم، وإن صح أن التهكم تمكن متابعته إلى مدى نصف ميل، ولكي تبرز صفاتها المشابهة لصفات الأطفال تأخرت خطوتين إلى وراء... رشاش! ثم أخذت تتخبط في الجدول الصغير.

وكان هذا إيذانًا بانتهاء المهزلة، فخفف هاركورت إلى نجديتها، وتزاحم العمال من حولها كأنهم فرقة مرتلين، وعلا البلل حتى ركبتها كما توحل رسغها، واقتيدت صوبي، وهي في هذه الحال، وأخذت مع مرور الوقت أسمع عبارات: «أنفلونزا... عطس خفيف... لا أهمية للملابس إذا قيسست بالصحة... أرجوك ألا تقلقي يا أعز مخلوق... نعم لا بد من أنها كانت صدمة... الفراش الفراش!! أنا ألح في ذهابك إليه، أتعدين؟... أنت فتاة طيبة... فاصعدي الدرج إلى فراشك».

وافترقا على المرج، وأذعنت وصعدت الدرج، وقد أفعم وجهها

رعبًا وارتباكًا.

- «وهكذا أصابك البلبل يا مس بومنت!».

- «بلبل؟ نعم نعم، ولكنني يا مستر إنسكيب لست أفهم، فلقد أخفقت».

وأعربت عن عجبي.

- «يجب أن يذهب مستر فورد من فوره، فلقد أخفقت».

- «آسف».

- «لقد أخفقت مع هاركورت، فلقد أسيء إليه، وهو لن يضحك؟

ولن يخلي بيني وبين عمل ما أريد... كانت البداية اللاتينية والإغريقية...
رغبت في أن أعرف شيئًا عن الآلهة والأبطال، ولكنه لم يمكنني من ذلك،
ثم رغبت عن إقامة سور حول (عالم آخر) وعن إنشاء قنطرة وممر،
فانظر! وأنا أطلب الآن ألا يعاقب مستر فورد الذي لم يخطئ وحتم عليه
مع ذلك أن يذهب إلى الأبد».

- «الوقاحة ليست (لا شيء) يا مس بومنت، ويجب أن أتفاهم مع

هاركورت».

وصاحت: «الوقاحة ليست شيئًا! إذ لا وجود لها، إنها تمويه مثل

(المطالب) و(المقام) و(الحقوق)، إنها جزء من الأحلام الكبرى».

فسألت محاولاً عدم الابتسام: «آية (أحلام كبرى)؟».

- «خبر المستر فورد- هاك هاركورت آتياً- بأنني ينبغي لي أن

أذهب إلى فراشي، عبر له عن مودتي واطلب إليه أن يخمن، ولن أراه
ثانية، وهذا ما لا أحتمله، أطلب إليه أن يخمن، وأنا آسفة على أنني أسميته

(الطفل الباكي) وهو لم يكن يبكي كالطفل، بل كشخص ناضج، ولقد
نضجت الآن أنا أيضًا».

وقد رت أن من الصواب أن أعيد هذه المحادثة على مكدومي.

- ٤ -

شيدت القنطرة، وأكمل السور، وشد (عالم آخر) إلى بابنا الأمامي
بأشرطة من الأسفلت، وأما الثمان والسبعون شجرة المحاطة فقد بدت
بلا مرأ أكثر قربًا، وقد وسعنا- في الليالي العاصفة التي أعقبت سفر
فورد- أن نسمع تأوهات غصونها وأن نجد في الصباح أن ورق شجرة
الزان قد نفخ فيه حتى لطم الدار لطمًا، ولم تحاول مس بومنت الخروج-
وهذا ما خفف عن السيدات- لأن هاركورت حتم عليها ألا تخرج غير
متبوعة، ولا سيما أن الجو العاصف يشوش وزراتهن (أي الجونلات)،
فلبث داخل المنزل دون أن تقرأ أو تضحك، ولم تعد ترتدي الملابس
الخضراء بل البنية.

وأطل المستر وورترز على داخل المنزل- غير متنبه إلى وجودها-
وقال متنهّدًا في ارتياح: «الأمر على ما يرام، فلقد اكتمل الشمل».

فأجابت: «هو ما تقول من دون ريب».

- «أنت هنا، يا أيتها الفأرة البالغة الصغر! لقد رميت فقط إلى أن سادتنا
العمال البريطانيّين تعطفوا أخيرًا وأنجزوا أعمالهم، وعزلونا عن العالم بهذا

السياج. أما أنا فقد كنت أخيراً متجبراً مستبداً (عفريتاً) وعصيتك، ولم أقم الباب الكبير عند طرف الأجمة الآخر، فهلاً عفوت عني؟».

«أي شيء يروك يا هاركورت يسرني من دون ريب».

وابتسمت السيدات بعضهن للبعض، وقال المستر وورترز:

«عظيم هذا. وعندما تهبط الريح سنتقدم جميعاً إلى غابتك ونحتلها رسمياً؛ لأن المرة السابقة لم تدخل الحساب».

فرجعت مس بومنت الصدى قائلة: «كلا، في الحق إنها لم تدخل الحساب».

ولاحظت مسز وورترز قائلة: «تقول إفلين إن الريح لن تهبط أبداً، ولست أدري كيف عرفت هذا».

- «لن تهبط الريح ما بقيت بالمنزل».

فقال فرحاً: «أحقاً، وإذن فاخرجي الآن تهبط الريح».

ولفوا لفات قليلة مصعدين الشرفة ومنحدرين، وهجعت الريح لحظة غير أنها في أثناء تناول الغداء هبت في أعنف قوة، ولم نكد ننتهي منه حتى هدرت لنا وصفرت وهي تهبط المدخنة. وأرغى^(١) شجر (عالم آخر) كما قد يرغي البحر، وطار منه الورق والغصون، وعصفت بغصن كبير من أغصان الشجر على ممر الأسفلت الناعم، ثم ارتدت فعلاً فوق القنطرة وعلى المرج وعبر مرجتنا بالذات، وأجسر على تسميتها «مرجتنا»؛ لأنني حاضر الآن بوصفي كاتم سر هاركورت أي «سكرتيره»،

(١) أرغى هنا صوّت وضج.

ولولا الدرج الحجري لبلغ ذلك الغصن المنتزع الشرفة ولكن من المحتمل أن يكسي نافذة حجرة الطعام، ووثبت مس بومنت، وفوطة المائدة في يدها، وجرت إلى الخارج ومسته.

وصرخت السيدات: «أوه يا إفلين...».

وقال المستر وورترز في تسامح: «دعوها تمر، إنها بلا ريب حادثة جديرة بالاعتبار، ولتذكرها لنبلغها إلى رئيس الشمامسة».

وصرخت مع أول إيدان يعود اللون إلى خديها: «يا هاركورت، ألا يصح أن نذهب - أنت وأنا - إلى الأجمة بعد الغداء؟».

وفكر المستر وورترز.

- «يقينًا، إذا فضلت ذلك».

- «وما رأيك يا إنسكيب؟».

وأدركت رأيها وصرخت قائلاً: «أوه، فلنذهب! هذا وإن كرهت الريح بقدر ما يكرهها أي إنسان».

- «حسن جدًا، يا أمي، يا أنا، يا روث، يا مستر أوزجود، سنذهب كلنا».

ولم نعم أن خرجنا في موكب مكتئب، وأكرمنا الآلهة في هذه المرة، إذ لم نكد نبدأ المسير حتى سكنت العاصفة وصدر عن سكونها هدوء غير عادي. ومهما يكن فإن مس بومنت لا تكاد تخطئ في التنبؤ بالجو، فلقد أخذ روحها المعنوي في كل لحظة يزداد سمواً، وتقدمتنا على طول ممر الأسفلت، ولم تنفك في فترات جد متقاربة تزجي لمحبيها

عبارات كلها جمال وإغراء، وأثار ذلك عجبني، إذ يعجبني الناس الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف^(١).

- «تعالى إليَّ يا إفلين!».

- «بل تعال أنت».

- «أعطيني قبلة».

- «تعال وخذها إذن».

وأخذ يجري وراءها وهي تفلت بمنأى عنه، وأخذنا نحن نضحك على إيقاع عذب.

وصاحت: «أوه؟ أنا جد سعيدة، وأظن أنني نلت كل ما أبتغيه من هذه الدنيا. أوه يا عزيزي! يا لتلك الأيام الأخيرة التي قضيناها داخل المنزل! ولكن ما أسعدني الآن». وكانت قد استبدلت بثوبها البني ثوبها الأخضر القديم الفضفاض. وأخذت ترقص بوزرتها في المرح الرحب الذي استضاء بومضات مباغته من أشعة الشمس، وكان المنظر جميلاً حقاً. ولم يصوب المستر وورترز امرأته، ولعله استبشر بأنها بدأت تستعيد روحها المعنوي وإن تخلت عن صوتها. لم تكد قدماها تتحركان ولكن جسدها تمايل وثوبها انتشر من حولها في بهاء فاستخفنا الطرب... رقصت على أغنية عصفور شدا مشغوقاً في (عالم آخر) وكأن النهر كبح أمواجه ليرقبها، وكأن الرياح رقدت مسحورة في مغاورها، وكأن الغمام الكبرى انعقدت على السماء، رقصت بمنأى عن معشرنا

(١) الأصل الإنجليزي يقول: «الناس الذين يعرفون على أية ناحية من خبزهم يدهن الزبد».

وعن حياتنا وارتدت سابحة بين العصور السحيقة حتى بليت المنازل والأسوار وحتى أقفرت الأرض تحت الشمس، لقد كساها ثوبها كما يكسو الشجرة ورقها، ولاحت أطرافها كالفروع الكبيرة، وجيدها كالغصن الأملس العلوي الذي يحيي الصباح أو يتألق في المطر. والورق يتحرك ويخفي الغصن كما تحجب جيدها حركة شعرها، ويعاود الورق الحركة كما عاودنا صوتها مرة أخرى عندما زابلها الخيال واتجهت صوبنا صائحة: «أوه! أوه يا هاركورت! أنا لم أستشعر السعادة قط كما أستشعرها الآن؛ لأنني نلت كل ما في العالم».

أما هو فقد أضواه هيام الحب ونسي الطائفة الممتازة من تماثيل العذراء لرافاييل، ونسي نفسه فيما يخيل إليّ، فوثب ليطوقها بذراعه قائلاً: «إفلين! إفلين يا أيتها البركة السرمدية! يا من أملك أبد الأبدين!»، ولكنها أفلتت وزادت الألحان شاعرية الموقف عندما غنت: «أوه يا فورد، أوه يا فورد! بين جميع أفراد أسرة وورترز أجيء أنا إلى مملكتي عن طريقك. أوه يا فورد يا من تحبني! إنني - ما بقيت لي صفات النساء - لن أنساك، كلا، لن يكون نسيان ما بقيت لي أفرع تقيك الشمس بظلالها الوارفة». وفيما كانت تغني عبرت النهر.

أما لماذا تبعها مدفوعاً بكل تلك الحماسة فهذا ما لا علم لي به... لقد كانا يلعبان، وهي في أرضه الخاصة التي يطوقها السور وليس في وسعها أن تهرب منه، غير أنه استدار عند القنطرة وانقض عليها كأنما تعرض حبهما جميعه للخطر، ولاحقها فوق الجبل ملاحقة عنيفة، وهي تحسن الجري ولكن النتيجة مفروغ منها. وإنما قام الخلاف في التكهن

على: هل يقبض عليها داخل الأجمة أو خارجها؟ وأخذ يتداركها بوصة
بوصة حتى أضحيا تحت ظلال الشجر، وكاد أن يمسكها فعلاً لولا أنها
أفلتت واستخفت بين الأدواح، وهو في إثرها.

فقلت مسرّ أزوجود وأنا وروث: «هاركورت، روحه المعنوي
عالٍ».

وسمعناه يصيح من الداخل: «إفلين!».

وتقدمنا على ممر الأسفلت.

- «إفلين؟ إفلين!!».

- «جلي أنه لم يقبض عليها بعد».

- «أين أنت يا إفلين؟».

وبرز المستر هاركورت صائحاً: «لا بد من أن مس بومنت قد
استخفت في مهارة، اسمع هل رأيت إفلين؟».

- «كلا كلا! هي في الداخل، ما في ذلك شك».

- «هكذا أظن».

- «لا معدى عن أن تكون إفلين زائغة حول جذع دوحة من الأدواح،
اذهب أنت من هذا الاتجاه ولأذهب أنا من ذاك، وسنجدها من فورنا».

وبحثنا- مبتهجين أول الأمر- مستشعرين دائماً أن مس بومنت عن
كثب منا، وأن أطرافها الرقيقة وراءنا مباشرة خلف هذه الشجرة، وأن
شعرها وملابسها تترقرق بين أوراق الشجر هذي... إنها إلى جوارنا...

إنها فوقنا... ها هي ذي آثار خطواتها على الأرض البنية الأرجوانية... صدرها... جيدها... إنها في كل مكان وليست في أي مكان... وانقلب الابتهاج غيظًا وارتد الغيظ غضبًا وخوفًا... لقد تجلّى أن مس بومنت مفقودة، فلقد ظللنا ننادي: «إفلين! إفلين! أوه، إن هذا فوق حدود المرح».

ثم هبت الريح، وبرز عنفها بعد سكون، وساقتنا إلى البيت عاصفة مروعة، فقلنا: «ستعود الآن كيفما كانت الحال»، ولكن إفلين لم تؤب، وهسهس المطر، وعلا من المروج الجافة كالدخان الكثيف، وقرع ورق الشجر المرتعد فتلهل، ثم أشرق الكون فعلت صيحات السيدات، ورأينا (العالم الآخر) وكأنه شخص يصفق بيديه، وسمعناه وكأنه امرؤ يضج ضاحكًا بين الرعود... وإن رئيس الشمامسة نفسه لن يستطيع أن يتذكر عاصفة كهذي. لقد تلف كل ما شرع ينبت من زرع هاركورت، وطارت قوالب القرميد يمنة ويسرة من فوق السقوف الهرمية (الجمالونات).. إذ ذاك جاءني - أبيض الوجه شاحبه - قائلاً: «هل لي أن أعتمد عليك؟».

- «لك ذلك، يقينًا».

- «ساورني الريب، لقد هربت مع فورد».

فقلت لاهثًا: «ولكن كيف....؟!».

- «المركبة معدة، وستكلم إذ نسوقها»، ثم صرخ في مواجهة المطر: «ليس للسور باب كبير، وأعلم ذلك، ولكن ما رأيك في سلم؟».

وبينما كنت أبحث على غير هدى، كانت هي على الجانب الآخر من

السور وكان هو....

- «ولكنك كنت جد قريب، والوقت لم يتسع».

فقال وقد استثاره الضغن: «حيث توجد امرأة خائنة يتسع الوقت لكل شيء، لقد وجدت أنها ليست أفضل من امرأة همجية، فهزبتها وعلمتها... إني محطهما كليهما، وذلك في مقدوري، سأحطمهما روحًا وجسدًا».

- «لا أحد يقدر الآن على تحطيم فورد، هذا مستحيل... ولكنني ارتعدت من أجل مس بومنت».

فاتنا القطار، وقد استقله من الشباب أزواج، أزواج عديدون منهم، وقد سمعنا عن وجود أزواج من الناس في لندن، فكأن العالم يسخر من وحدة هاركورت.. وعندما يئسنا فتشنا في الضاحية القذرة التي يقطنها فورد الآن.. وانطلقنا مارين بالخدمة القذرة والخالة المرعوبة، وأسرعنا إلى الطبقة العليا لنقبض عليه متلبسًا بجريمته، فالفينا جالسًا إلى المنضدة يقرأ قصة أوديب في كولونيوس لسوفوكليس^(١).

فصاح هاركورت قائلاً: «هذا لن يخدعني، مس بومنت عندك وأعلم ذلك».

فقال فورد: «لم يواتني مثل هذا الحظ».

(١) سوفوكليس شاعر تراجيدي أغريقي ذائع الصيت، كتب سبع قصص قوية منها (أويديوس ملكًا)، وهي قصة مغترب ولى الملك لقوته وطرد منه لأنه تزوج امرأة تبين أنها أمه بعد أن أنجب منها طفلتين هما ابتناه وأختاه في وقت واحد، ومن ثم عرف مثل هذا التصرف بعقدة أوديب.

فقال متلجلجًا من الغضب: «يا إنسكيب! استمع إلى هذا (لم يواتني مثل هذا الحظ) اتل عليه البينة فما أستطيع كلاًماً».

فرددت أغنيتهما: «أوه يا فورد! أوه يا فورد! بين جميع أفراد أسرة وورترز أجيء أنا إلى مملكتي عن طريقك، أوه يا فورد يا من تحبني! إنني - ما بقيت لي أنوثتي - لن أنساك، كلا، لن يكون نسيان ما بقيت لي أفرع تقيك الشمس بظلالها الوارفة وقد فقدناها تَوَّأ عقب ذلك».

وفي مناسبة أخرى أرسلت مس بومنت رسالة بهذا المعنى، وإنسكيب على ذلك من الشاهدين، وكان عليه أن (يخمن) شيئاً.
فقال فورد: «لقد خمتته».

- «وإذن فأنت، على وجه التقريب...».

- «كلا يا مستر وورترز. أنت تخطئ فهمي، فأنا لم أضمن على وجه التقريب، بل لقد خمنت، ويسعني إخبارك إذا أردت، ولكن لا خير في ذلك؛ لأنها لم تفلت منك على وجه التقريب، بل أفلتت نهائياً ودواماً، وإلى أبد الأبدن، ما بقيت أفرع تقي الناس الشمس بظلالها الوارفة».



صديق ألفون

لم يعرف على وجه التحقيق كيف جاء ألفون^(١) إلى ولتشير^(٢)، وربما يكون قد وفد مع فرق جيش روما ليعيش مع صحبه في المعسكر متحدثًا إليهم عن لوكرتيليس^(٣) أو جارانجوس^(٤) أو عن منحدرات إثنّا^(٥) وقد أنساهم شدة فرحهم باستدعائهم إلى أوطانهم أن يعيدوه معهم على ظهر السفينة، فبكى في منفاه، ولكن وجد آخر الأمر أن تلالنا أيضًا تفهم أحزانه، فأمسى يتהלل كلما طابت نفسه، وربما تأتي وجوده هناك لأنه كان دائمًا هناك. ولم يعرف في الأدب القديم شيء عن ألفون على وجه التحقيق، وكل ما في الأمر أن الإغريق والإيطاليين تميزوا منذ الأزل بأنهم أحد الناس أبصارًا، وإنك لتجد ألفون في «العاصفة»^(٦) أو

(١) ألفون: إله الحقول والرعاة عند الرومان.

(٢) ولتشير: مقاطعة في إنجلترا شهيرة بمراعيها، حاضرتها ساليسبوري.

(٣) لوكرتيليس: اسم سيدة رومانية عظيمة، خلع الإمبراطور تاركوين العظيم بسبب جمالها ووفائها لزوجها.

(٤) جارانجوس: قمة جبل عالية في أبوليا بإيطاليا.

(٥) إثنّا: بركان في الشمال الشرقي من جزيرة صقلية كثير الثوران، وقد زعموا أنه موئل العمالقة والإعصار.

(٦) العاصفة (ذي تمبست) تمثيلية لشكسبير تعرض، فيما تعرض، للأرواح التي يخضعها السحر.

«صلاة البركة»^(١) وفي أي صقع يحوي أدغالاً من شجر الزان ومروجاً منحدره من الكلا، وقد تخلقه الجداول البالغة الصفاء.

أما كيف تأت لي رؤيته فأمر أكثر عسراً، ذلك أن رؤيته هناك تستلزم التوفر على خلة بذاتها، خلة لا تمكن تسميتها بـ (الاستقامة) لأن هذا الاسم فاتر جداً بالقياس إليها، كما لا يمكن وصفها بـ (الروح الحيواني) لأن هذه العبارة بالغة الغلظة.

وألّفون وحده يعرف كيف توافرت لي هذه الصفة، ومع أن أحداً ليس له أن ينعت نفسه بأنه (أحمق) فأنا أجسر على القول بأنني إذ ذاك شابهته كل المشابهة، إذ كنت مازحاً دون دعابة وجاداً دون اقتناع، وكنت - كل يوم أحد - أتحدث إلى أبناء (الأبرشية)^(٢) الريفين عن العالم الآخر بأسلوب شخص عاش خلف المشاهد أو أبين لهم أخطاء البلاجين^(٣) أو أنذرهم بعواقب الهرع إلى الإسراف بين ألوان الملذات، وفي كل ثلاثاء ألقى ما أسميته «أحاديث مباشرة إلى أبنائي»، أحاديث ترشد مباشرة إلى سبيل تنكب الحرج، وفي كل خميس أحاضر اتحاد الأمهات في واجبات الزوجات أو الأرامل مقدماً لمحات عملية عن إدارة الأسرة ذات العشرة الأشخاص.

حملت نفسي على الدخول، وفي فترة معينة حملت إملي - في يقين - على أن تدخل، وأنا لم أر قط فتاة تواظب على حضور مواعظي

(١) صلاة البركة (بينديسيتية) صلاة كاثوليكية لاتينية تتلى قبل الطعام مبتدئة بلفظ (البركة)، وفي متحف اللوفر بباريس صورتان بهذا الاسم من عمل لبران وشاردان.

(٢) الأبرشية (بفتح الهمزة) ما كان تحت ولاية أسقف من أماكن أو أشخاص.

(٣) أتباع بلاجياس الذي كفر بالخطيئة.

بمثل هذا الاهتمام، أو تضحك على دعاباتي من كل قلبها بمثل ذلك الإخلاص، فلا عجب إذا خطبتها وإذا أضحت زوجة ممتازة تمنع في تصويب سخافات زوجها، على ألا تتيح لغيرها كائنًا من كان أن ينال من هذه السخافات بكلمة واحدة، زوجة يتسنى لها في غرفة الاستقبال أن تتحدث عن ذات العقل الباطن وأن تعير مع ذلك سمعها الأطفال الباكين في غرفتهم الخاصة أو الأطباق المتكسرة في المكان المعد لغسلها ولحفظها، زوجة عظيمة بلغت شأواً هو أعلى من أي مستوى سبق لي تصوره على الإطلاق. غير أنها (من ناحية الانعطاف الروحي) لم تتزوجني.

ولو كنا لبنا داخل الدار في عصر ذلك اليوم ما حدث شيء، ولكننا خرجنا تلبية لرغبة والددة إملي التي ألحت في أن نشرب الشاي خارجها، وكان في مواجهة القرية، عبر الجدول، أرض كلسة (طباشيرية) واطئة تتوجها أجمة من شجر الزان وبضعة من متاريس التراب الرومانية (حاضرت في نشاط وحماسة عن تلك المتاريس، وثبت منذ ذلك الوقت أنها سكسونية)، وهنالك استخرجت سلة^(١) شاي وسحبت (بطانية) ثقيلة لوالدة إملي بينما تقدمت أمامنا إملي وصديق صغير لها، أما الصديق الصغير - الذي صرف الوقت كله في اللعب والذي هو أقل أهمية مما يزعم، إلى حد كبير - ففتى ظريف يفيض ذكاء وشاعرية وبخاصة فيما أسماه هو شعر الأرض، فهو مولع بأن يستخلص من الأرض أسرارها، وقد رأيتُه يضغط وجهه - في انفعال - على الكلاء حتى عندما كان

(١) السلة والسل (بفتح السين) الجون وهو ما يسميه العامة (السبت) والجمع سلال (بكسر وفتح).

يزعم أن أحداً لا يراه، وكانت إملي - إذ ذاك - مفعمة بالأمانى الغامضة. ومع أنني كنت أفضل أن تتركز كل هذه الأمانى في شخصي، فقد لاح من غير المعقول أن ننكر عليها فرصاً أخرى لتثقيف نفسها بقدر ما تسمح به ظروف البيئة.

وكان ديدني وقتئذ - كما بلغت ذروة أي مرتفع - أن أهتف متفكهاً: «ومن الذي سيقف إلى جانبي ويحمي القنطرة معي؟»، وفي الوقت نفسه أخذت أحرك ذراعي في عنف أو أصب جام يقظتي البالغة على عدو وهمي. وتقبلت إملي والصديق دعابتي بمثل ما درجوا على تقبلها، كما أنني لم أشك في إخلاصهم كلما داعبوني. وإلى ذلك كنت مقتنعة بأن شخصاً من الحاضرين لم يتبادر إلى ذهنه أنني مضحك... وأن أي خطيب ليقدر اضطرابي المتزايد.

ابتهجت بعض الابتهاج من والدة إملي التي أطرتني وهي تهتف: «كرم منك يا هاري أن تحمل الأمتعة، ما الذي كنا نستطيعه بدونك، حتى هذه اللحظة! أوه، ما أجمل المنظر! هل يسعك أن تتبين الأبرشية المحبوبة؟ كلا، فهي غير واضحة للرؤية، والآن، سأجلس على (البطانية) مباشرة»، وضحكت ضحكة غامضة ثم قالت: «يا لمنظر البراري في سبتمبر!» وأبدينا إعجاباً متكلفاً بالمشهد الذي لا يحلو إلا في عيون أولئك الذين تروقه الأرض والذين قد يحسبونها أروع مشاهد إنجلترا، فها هنا جسم العنكبوت الكلسي الكبير الذي يفج^(١) فوق جزيرتنا أرجله الخبوت^(٢)

(١) أفج ما بين رجليه: فتح وباعد.

(٢) الخبوت والأخبات جمع خبت (بفتح فسكون) وهو ما اتسع واطمأن من الأرض.

الجنوبية والخبوت الشمالية ومناطق تشلترز، وأطراف أصابع أقدامه تمتد في كرومر ودوفر. إنه كائن نظيف ينبت أشجارًا قليلة جهد استطاعته يربيه في أدغال أنيقة، وهو يتعشق أن تدغدغه الجداول المتدفقة، على أن جسده يتبثر^(١) بالمتاريس الترابية لأن الرجال في بدء التاريخ حاربوا ليستأثروا بالوقوف فوقه، وعلى ظهره يعلو أقدم معابدنا.

وأنا أحب بلادي كما كانت في تلك الأيام: مريحة جميلة تعج بيوت الكبراء وبالظلل الظليلة وبالناس الذين يلمسون قبعاتهم^(٢)، وأما الرحاب المعتمدة الكبيرة- التي قد يتمشى المرء فيها أميالًا فلا يكاد يجد تباينًا ملحوظًا في معالمها ولا يكاد يلقى واحدًا من السادة المهذبين- أما هذه الرحاب فقد ظلت، إذ ذاك، مما لا طاقة لي به، فانثيت- أول ما سمحت لي اللياقة بأن أنثني- قائلاً: «هل لي الآن أن أعدّ الفنجان المنعش؟».

فأجابت والدة إملي: «كرم منك أن تعينني أيها الرجل، وأنا ما أنفك أقول: إن تناول الشاي خارج المنزل يستحق المزيد من الجهد الذي يبذل في هذا السبيل. وكنت أتمنى أن تكون حياتنا أكثر بساطة مما هي عليه». وأمتًا على كلامها، ونشرت الطعام: «ألا تريد الغلاية أن تستقر؟ هيء لها الاستقرار!» فامتثلت، ثم سمعت صرخة ضعيفة، صرخة خافتة، ولكنها بينة، كأنما شيء يتألم.

وقالت إملي: «ما أكثر سكون كل شيء هنا!»

(١) البثر الدمل الصغير وجمعه بشور.

(٢) في الغرب لدى مرور المعارف بعضهم ببعض في الطريق يمس الرجل المهذب قبعته كأنه يهم برفعها للتحية.

وألقيت على الحشيش عود ثقاب مشتعل، وسمعت الصرخة الضعيفة من جديد.

واستفهمت: «ما هذا؟».

قالت إملي: «قلت (ما أكثر سكون كل شيء هنا!) ولم أزد».

فأجاب الصديق الصغير: «وأي سكون!».

سكون! المكان تملؤه الضوضاء، ولو أن عود الثقاب سقط في غرفة استقبال لما كانت الحال شرًا منها الآن، وكان أجهر الضوضاء يصدر عما يجاور إملي بالذات. وكنت أشعر تمامًا كأنني أقصد وليمة كبرى وأنتظر إعلان اسمي في البهو الذي ترجع إليه أصداء الضجة، حيث أسمع أصوات الأضياف ولما أر وجوههم، وتلك لحظة يهتاج لها أعصاب الرجل الهباب وبخاصة إذا كانت الأصوات جميعها غريبة عليه ولم يكن قد لقي رب الدار قط.

قالت كبرى السيدتين: «يا عزيزي هاري! لا عليك من عود الثقاب فسيحمد ولن يؤذي أحدًا... شا آ آي! إني أقول دائمًا- وستجد إملي مثلي تمامًا- إن الساعة الخامسة السحرية لا تكاد تقترب، كيفما حسن طعام الغداء، حتى يبدأ المرء في استشعار ضرب من الـ....».

وألْفون الآمن من النوع الذي ينط على الجهات الناتئة في أثيك^(١) الجديدة، فإذا لم ترقب أذنيه أو تر ذيله خلته رجلاً وتملكك الرعب.

(١) الأثيك هي اليونان القديمة- الواقعة في الشمال الشرقي من البيلوبونيز في مواجهة جزيرة أوبيه- وكانت عاصمتها أثينا، وكان يطلق عليها اسم (أكتي) وعلى سكانها (أكتينيين) وهذا مصدر اشتقاق كلمتي (أثينا) و(أثينيين).

فصرخت صرخة وحشية: «سباحة! شيء كهذا يناسب صبيان القرية، مع مراقبة أشد، أوافق تمامًا وأنحي باللائمة على نفسي، فارحل عنا أيها الولد السيئ، ارحل عنا».

قالت إملي وقد انتصب المخلوق الذي إلى جوارها واقفًا وأومأ إليّ: «ما الذي سيفكر فيه بعد ذلك!»، وتقدمت - مناضلاً معبراً بيدي - في خطوات جد قصيرة وصرخات مخوفة وأنا أطرّد الأشباح الشريرة بحركات من قبعتي، وهكذا كان شأني أمس عندما قادتني بنات أخت إملي لرؤية خنازير جينيا التي تربيتها، وقد لقيني بمثل ما لقيني به الآن من الضحك الصادر من أعماق القلوب، وإلى أن أطبقت عليّ الأصابع الغريبة كنت أظن أن هنا أحد أتباع أبرشيتي ولم أكف عن الهتاف: «دعني أذهب أيها الولد (العفريت)، دعني أذهب!»، فأجابت والدّة إملي وهي تظن أنها كشفت الدعابة: «نعم، يجب أن أقر بأنهم أولاد من (العفاريت) وأنه لا سبيل إلى انتقاء أذاهم».

وهنا وقع نظري على الذيل فصرخت صرخة عاتية وهربت في أجمة شجر الزان التي من خلفنا.

وفيما كنت أزايلهم قالت والدّة إملي: «لو أن هاري احترف التمثيل لأفلح».

أدركت أن أزمة كبيرة في حياتي على وشك أن تقع وأنني - إذا أخفقت - فقد أفقد إلى الأبد الاعتبار في نظر نفسي. وقد حدث قبلاً أن أقلقنتي مجموعة من الأصوات: أصوات التل من تحتي، والشجر فوق رأسي، والحشرات ذاتها المتداخلة في لحاء الدوحة، وقد وصل إلى

سمعي حتى صوت ماء الجدول يلحق بقع أرض من أطراف المروج،
والمروج تحتج وادعة، وفوق الطنين، الذي لا يزيد على طنين النحل
الطائر، علا صوت ألفون قائلاً: «أيها القسيس، كن رابط الجأش، ممّ
تخاف؟».

فقلت، ولم أكن في الحقيقة خائفاً: «لست فزعاً ولكني مغتم لأنك
أخزيتني على مرأى من سيدات».

قال وهو يتسم في تكاسل: «لم يرني غيرك أحد، فالنساء أحذيتهن
محكمة والرجل شعره طويل، وهذه الأصناف لا تتاح لها الرؤية أبداً،
وقد انقضت سنوات طويلة تحدثت فيها إلى الأطفال فقط، فإذا ما كبروا
غبت عن نواظرهم، أما أنت فلن أغيب على ناظرك وستكون صديقي إلى
آخر عمرك... وها أنذا أبدأ في إسعادك: استلق على ظهرك، أو اجر في
المسابقات، أو تسلّق الشجر، أم تراك تفضل أن آتيك بتمر العليق^(١) أو
الجريسات^(٢) أو بزوجات؟». فأجبت في صوت مرعب: «سر ورائي!»،
فسار ورائي ثم استأنفت الكلام قائلاً: «أمر حاسم: دعني أخبرك أن لا
جدوى من غواية شخص يجد سعادته في إسعاد الآخرين».

قال مهموماً: «إني لا أستطيع فهمك، وما الغواية؟».

فقال متحولاً عنه: «يا رجل الغاب المسكين! أنى لك أن تفهم؟».

(١) تمر العليق (بتشديد اللام) فاكهة في الغابة تشبه «التوت الأسود» كما ينم عليه الاسم الإنجليزي (بلاك بري).

(٢) الجريسات (بضم ففتح) جمع مصغر، والاسم الإنجليزي (أجراس الأرناب) وهي من نبات الغاب.

لقد كان زجري إياك باطلاً، فليس في طبيعتك الزهيدة ما يجعلك تفهم حياة إنكار الذات، آه ليتني أقدر على الوصول إليك!».

قال التل: «لقد وصلت إليه».

- «ليتني أقدر على لمسه!».

قال التل: «لقد لمست».

فصاح ألفون قائلاً في صوت مرتفع: «ولكني لن أخلي سبيلك: سأكنس لك كنيستك، وسأصحبك إلى اجتماعات النصف^(١) من المتزوجات، وسأوفر لك الغنى عن طريق التجارة».

فهرزت رأسي قائلاً: «تلك الأشياء لا تسترعى اهتمامي بتاتا، وفي الحق أنني كنت ميالاً لأن آبي كليةً ما عرضت من خدمات، وأنا في هذا كنت مخطئاً، لأنك ستعينني، ستعينني على إسعاد الآخرين».

- «أيها القسيس العزيز، أية حياة غريبة تلك! فيم أسعد أناً لم أرهم قط، أناً ليس في مقدورهم أن يروني؟».

- «يا ولدي المسكين، ربما تفقه السبب مع الوقت، أما الآن فانطلق، ابدأ.. فوق هذا التل بالذات تجلس شابة لها عندي مقام كبير.. ابدأ بها.. آها، إنك تغض من بصرك، وذلك ما قدرته فليس في مقدورك صنع شيء وهذا قصارى الأمر جميعاً!».

فأجاب: «يسعني إسعادها إذا أنت أمرت، وإذا ما صنعت أنا هذا فقد توليني ثقة أكبر».

(١) النصف (بسكون الصاد أو ضمها) والأنصاف: جمع نصف (بفتحها) من فات سن الشباب.

كانت والددة إملي قد بدأت تشق الطريق إلى بيتها، أما إملي والصديق الصغير فقد بقيا حتى ذاك الوقت إلى جوار أمتعة الشاي. وكانت - هي - تلبس ثوبًا من البيكة^(١) البيضاء وقبعة من القش الهش وهو في بذلته الصيفية الحسنة التفصيل وإن خشنت، وشمخت صورة ألفون الوثنية العظيمة فوقهما في صلف.

كان الصديق يقول: «أو لم تستشعري قط الوحشة المروعة لحشد من الغوغاء؟».

فأجابت إملي: «استشعرت كل هذا وأكثر منه».

ثم وضع ألفون يده عليهما... لقد استطاع أولئك الذين لم يرموا إلى أكثر من المغازلة المهذبة البسيطة أن يقاوموه ما وسعتهم المقاومة، ولكنهم دفعوا شيئًا فشيئًا إلى أحضان بعضهم بعضًا وتبادلوا قبلات الهيام الحلوة.

فانفجرت صارخًا من الغابة: «يا جاحد الجميل! لقد غدرتني».

فصاح الصديق الصغير قائلاً: «أنا أعلم ذلك ولا أهتم، تنح جانبًا وأنت الآن في حضرة من لا تفهمه، ولقد وجدنا أنفسنا في العزلة الكبيرة آخر الأمر».

فرعقت في ألفون: «ارفع يديك اللعنتين!».

فأطاع، واستأنف الصديق الصغير الكلام في مزيد من الهدوء: «من الباطل زجر الناس... وما مبلغ علمك، أنت أيها المخلوق الكهنوتي

(١) البيكة: قماش قطني.

المسكين، بسر الحب بين الرجل الأزلي والمرأة الأزلية، وبسمو النفس إلى الكمال؟».

وقالت إملي مغضبة: «هذا حق يا هاري... أنت لم تكن لتقدر على إسعادي، وسأتعامل وإياك على أنك صديق، إذ كيف يمكنني أن أسلم نفسي إلى رجل يمزح مزاحاً سخيفاً كهذا؟ وأنت عندما تصرف تصرف المهرج عند تناول الشاي قضيت على نفسك، والواجب أن تعاملني معاملة جدية: ينبغي لي أن أرى اللانهايات تنفسح حولي عندما أشرق (أو أتجلى)، قد لا يكون هذا رأيك ولكن هكذا خلقت، وأنا في العزلة الكبرى وجدت نفسي آخر الأمر».

فصرخت قائلاً: «العزلة الكبرى! أيتها الفتاة الشقية! أيتها الدميتان اللتان لا حول بهما ولا قوة».

وبدأ الصديق الصغير يحرس إملي في طريقها، وقد سمعتها تهمس في أذنه: «أيها العزيز، لا يمكننا بعد هذا أن نترك السلة لهاري، و(بطانية) أمي، هل يضيرك مسكها باليد الأخرى؟».

وعلى هذا ارتحلا، وألقيت أنا بنفسي على الأرض في كل مظاهر اليأس.

قال ألفون: «أهو يبكي؟».

فأجاب التل: «إنه لا يبكي، فعيناه أكثر ما تكونان جفافاً».

وجعلني معذبي أنظر إليه، وقال: «أرى السعادة في أعماق قلبك».

فأجبت قائلاً في جفاء: «أوقن بأن عندي موارد السرية»، وإذ ذاك

أعددت تشهيرًا مبرحًا، ولكنني - من بين كل الكلمات التي كان يمكنني قولها - لم أَلْفِظْ إلا واحدة تبدأ بحرف الشين.

فصرخ صرخة الفرح قائلاً: «أنت الآن تنتمي إلينا حقًا، وأنت، إلى آخر حياتك، ستلعن كلما غضبت وستضحك كلما سعدت، فاضحك الآن!». .

وكان سكون عميق، لقد وقفت الطبيعة كلها تنتظر، بينما يحاول خوري أن يخفي أفكاره، لا عن الطبيعة وحدها، بل عن نفسه كذلك. فكرت في كبريائي الجريحة، وفي أريحيتي المخيبة، وفي إملي التي أخذت أفقدها، مع أن خطأ لم يصدر عنها، لا ولا عن صديقها الصغير الذي اندس إذ ذاك تحت سلة الشاي الثقيلة، وهذا ما جعلني أبت في الأمر ثم أضحك». .

وفي تلك الأمسية سمعت، أول مرة، الخبوت الكلسية، يغني بعضها لبعض عبر الأودية كما يحدث في كثير من الأحيان عندما يهدأ الهواء، وقد قضت الخبوت يومًا طيبًا، واستطعت من نافذة مكتبي أن أرى صورة ألْفون، التي أضاءتها الشمس، جالسة أمام أجمة شجر الزان كما قد يجلس الرجل أمام بيته، ولما هبط الليل أدركت يقينًا أن الكرى لم يزره وحده بل خيم على التلال والغابات، أما الجدول فما عرف النوم قط بأكثر مما عرف التجمد. ولا ريب في أن مواقيت الإظلام هي بالضبط مواقيت الماء الذي تيسر بعض الشيء طول النهار نتيجة للنبضات الخافقة التي تصدر عن الأرض، ولهذا يسهل أن تحس بها وأن تسمعها ليلاً من مسافة مديدة، ولهذا يمسي الاستحمام بعد غروب الشمس من أعجب العجب.

على أن الابتهاج الذي استشعرته في تلك الأمسية الأولى لا يزال ماثلاً في ذاكرتي مع كل الأعوام الطويلة التي تلتها. لقد عاودتني ذكرى الابتهاج عندما كنت أرتقي منبر الخطابة في أبرشيتي (أما الآن فأنا بالمعاش) وأخفض بصري على صفوة الناس التي تشغل المقعد تلو المقعد كرماء راضين، وعلى حثالة الناس المحتشدة في مماشى الكنيسة، وعلى صادحي^(١) جوقة المرتلين ذوي الشوارب الكبيرة، وعلى القساوسة ذوي الحواجب العالية، وعلى وكلاء الكنيسة يرفعون أكياسهم من أربطتها بأصابعهم، وعلى الشمامسة المتشامخين الذين يردون عند الباب من وصلوا متأخرين. وتعاودني الذكرى كذلك عندما كنت أجلس في أبرشية غير المتزوجين المريحة بين أخفاف^(٢) البساط التي صنعها لي شباب السيدات الطيبات، ومساند البلوطية الكتب التي حفها من أجلي شباب الرجال الطيبون وسط مجموعات أباريق الشاي المهداة، وبين عطايا الشكر المضاعة وسائر القرابين من أولئك الذين يعتقدون أنني مددت لهم يد المعونة والذين هم في واقع الأمر، قد أعانوني على الخروج من الوحل. ومع أنني أحاول أن أنقل هذا الابتهاج إلى الآخرين، كما أحاول أن أنقل إليهم كل ما يبدو حسناً، ومع نجاحي أحياناً في ذلك، مع هذا لا يسعني أن أبين لأحد على وجه الدقة كيف يتأتى لي ذلك؛ لأنني إذا تنفست بكلمة واحدة منه فستنتهي حياتي الحالية الكبيرة النفع والربح. وإذ ذاك تذهب عني جماعة المصلين ويكون لزاماً

(١) الصادح: في الغناء ذو الصوت المثلث (تينور).

(٢) الأخفاف والخفاف (بكسر الخاء) جمع خف وهو هنا ما يلبس في القدم بالبيت وما يسمى بالشبشب.

عليّ أن أذهب أنا أيضًا، وقد أجد نفسي عبئًا على الأمة بدلًا من أن أكون
رصيدًا لأبرشيتي، ولهذا السبب فإنني - بدلًا من أعمد إلى الوجدانيات
وإلى البلاغة التي تناسب الموضوع وتوائم مهنتي - أكرهت على اللجوء
إلى الأسلوب القصصي وإلى تضليلكم بإعلاني أن هذه قصة صغيرة
تصلح للقراءة في القطار.



الطريق من كولوناس^(١)

- ١ -

لأمر غير جلي تمامًا هرع المستر لوкас متقدمًا جماعته، وربما يكون الآن قد بلغ السن التي فيها يصبح الاستقلال أمرًا ذا بال؛ لأنه فاقده عما قريب. ولما كان قد مل الدعاية والاحترام رغب في أن يفلت ممن يصغرونه منهم ليمتطي دابته ويترجل عنها دون عون من أحد. وربما يكون أيضًا قد استطاب ذلك السرور الخفي ألا وهو إجباره على انتظار الغداء، وإخبار الآخرين لدى وصولهم أن هذا لا يهمه.

لذلك عمد - في مثل ضجر الأطفال - إلى وخز جنبي الدابة بكعبيه وإلى استحثاث البغال على ضربها بعصا غليظة ونخسها بأخرى مدببة. وانحدر وهو يهتز فوق البغل على جوانب الجبل - عبر أدغال من الشجيرات الزهرة ورقع ممتدة من شقائق النعمان^(٢) والبروق^(٣) - إلى أن

(١) كولوناس: موطن شاعر المأساة الإغريقي سوفوكليس، وإلى هذا المكان وصل أوديب الملك بعد أن اعتزل الملك وفقًا عينيه تقوده أنتيجونا إحدى ابنتيه.

(٢) شقائق النعمان أو زهرة الريح: نبات أحمر مبقع بنقط سوداء.

(٣) البروق (بفتح فضم) أو السيراس: زهر بري.

سمع خرير الماء الجاري ورأى مجموعة من شجر الدلب^(١) كان متفقا أن يتناولوا غداءهم بينها.

وهذا الشجر يسترعى النظر حتى في إنجلترا، فهو هناك آية في الضخامة والتشابك وبهاء الانتشاح بالأخضر المتماوج، وهو هنا في اليونان منقطع النظير، إنه المكان الرطيب الوحيد في ذلك الصقع الخلوي المشرق الذي تلفحه حرارة الشمس حتى في أبريل. وكان يستتر في وسطه (خان) أو نزل قروي صغير واه بُني من الطين وله شرفة خشبية عريضة، وفي هذه الشرفة جلست عجوز تغزل، وإلى جوارها وقف خنزير بني صغير يطعم من قشر البرتقال، وعلى الأرض المبلولة تحت، جلس طفلان القرفصاء يلعبان بأصابعهما نوعًا من الألعاب القديمة، وأمهما- التي لم تكن بالغة النظافة كذلك- تطهو في الداخل خبيصًا من الأرز. وكان كل شيء- كما قالت مسز فورمان- يونانيًا بحثًا. وشعر المستر لو كاس- الذي يصعب إرضاءه- بارتياح عظيم إذ أحضروا معهم طعامهم ليأكلوه في الهواء الطلق.

وإلى ذلك كان وجوده هناك من دواعي سروره، فقد ساعده البغال على الترحل، كما سر لأن مسز فورمان لم تكن هناك فتقاطع آراءه، بل لأنه لن يرى (إثل) في مدى نصف ساعة على الأقل، وإثل هذه صغرى بناته، لم تتزوج بعد، ولا أثر عندها للأثرة، وكان مفهومًا بصفة عامة أنها وقفت حياتها على أبيها وعلى أن تصبح سلواه في سنه المتقدمة. وكانت المسز فورمان لا تكف عن الإشارة إليها على أنها أتييجونا، كما

(١) الدلب: شجر عظيم عريض الورق لا ثمر له.

كان المستر لو كاس يحاول أن يستقر على دور أوديب، ويبدو أنه الدور الوحيد الذي يخصص له به الرأي العام.

ووجه الشبه بينه وبين أوديب أنه أخذ يكبر، وتجلّى ذلك حتى بينه وبين نفسه، لقد زايّله خلة الاهتمام بشؤون الغير، وقلما ألقى باله إليهم وهم يتحدثون إليه. وكان مولعًا بالتحدث عن نفسه، إلا أنه كثيرًا ما ينسى ما يهم بقوله. وحتى في حالات التوفيق كان نادرًا ما يبدو أن حديثه يستحق ما يبذله فيه من جهد. وأصبحت عباراته وحرركاته جامدة آفلة، وفقدت نواصره رونقها بعد طلاوة، وأمسى سكوتها بلا معنى ككلامه. ولكنه إلى ذلك عاش حياة نشيطة، وثابر على العمل وريح أموالاً وربى بنيه. ولم يكن هنا ما - أو من - يعيبه، وكل ما هنالك أنه أخذ يكبر.

وها هو ذا الآن في بلاد اليونان، وبذلك تحقق أحد أحلام حياته، فقد انتابته حمى الهيام بتلك البلاد وتملكه طوأل حياته شعور بأنه ما يعيش عبثًا إذا أتحت له زيارتها. غير أنه وجد أثينا متربة ودلفي ممطرة وثرموبيلي منبسطة، وكان عليه أن يستمع - في دهشة وتهكم - لهتافات رفاقه التي تذهل العقل. ألا إن بلاد اليونان لتشبه بلاد الإنجليز. إنها كرجل أخذ يكبر، وظهور هذا الرجل على ضفاف التمس أو اليوروتاس سيان. وكان ذلك آخر أمل له في مناقضة منطق التجربة، ولكنه باء بالإخفاق.

ومع ذلك أفادته بلاد اليونان من حيث لا يدري إذ أثارت فيه التبرم، والتبرم يخلف في الحياة كثيرًا من الاضطراب والحركة، فلقد عرف أنه لم يكن ضحية سوء حظ مقيم، وأن شيئًا عظيمًا قد لحقه الاختلال، وأنه مسوق إلى منافسة عدو ليس من الناس العاديين ولا هو بالعدو العرضي،

وتملكته في الشهر الأخير رغبة غريبة في أن يموت مناضلاً.

قال لنفسه وهو واقف تحت شجرة الدلب: «بلاد اليونان هي البلاد التي تناسب الشباب، ولكنني سأدخلها وأفوز بها، وسيخضل ورق الشجر من جديد ويعذب الماء وتزرق السماء، هكذا كانت منذ أربعين سنة خلت، وإني لظافر بها مرة أخرى، إني آبه لكبر السن ولن أدعي بعد الآن».

وما إن خطا خطوتين إلى أمام حتى بقبت المياه الباردة فوق رصغيه وساءل نفسه: «من أين يجيء الماء؟ حتى هذا لست أعرفه»، وتذكر أن جوانب الجبل جميعها جافة بينما الطريق هنا تغطيها - على غير ما ينتظر - جداول متدفقة.

وقال وقد توقف ساكناً متحيراً: «ماء يخرج من شجرة، من شجرة جوفاء؟ أنا لم أر قط شيئاً كهذا ولم أفكر فيه».

ذلك أن شجرة الدلب الضخمة التي مالت صوب الخان كانت جوفاء، فقد أحرقوا ما تحتويه من خشب وحولوه إلى فحم، وكان يتفجر من جذعها القوائم ينبوع يتدفق منه ماء يكسو لحاء الشجرة خنشاراً (نبات السرخس) وطحالب ويفيض على الدرب الذي تمر منه البغال ليخرج فيما وراءه مروجاً خصيبة. وقد شارك القرويون - ما وسعتهم المشاركة - في زيادة حسننها وغموضها، فاحتفروا في قشر الشجرة مزاراً مقدساً ثبتوا فيه مصباحاً وصورة للعدراء وريثة المثوى المشترك بين إلهة البحيرات والأنهر وإلهة الغابات والأحراش.

فقال المستر لو كاس: «أنا لم أرق شيئاً يذهل إلى درجة كهذي، بل وفي وسعي أن أخطو إلى داخل الجذع لأتعرّف مصدر الماء».

وتردد لحظة في انتهاك حرمة المزار ثم تذكر، مبتسماً، ما كان يفكر فيه: «سيكون المكان مكاني، وإذن فسأدخله وأحوزه» ووثب - كما قد يشب المغتصب - على الحجر الذي في داخله.

وظل الماء - دون أن يحدث صوتاً - ينبثق من بين الأصول الجوفاء لشجرة الدلب ومما استتر من فجواتها، مكوناً بركة عنبرية بديعة، هنالك قبل أن تتكسر على شفة قشرتها وتسيل على الأرض التي تحيط بها... ذاق المستر لو كاس مياهها فوجدها حلوة، ولما رفع بصره إلى قمع الجذع رأى السماء، وكانت زرقاء، وبعض الأوراق، وكانت خضراء، وتذكر فكرة أخرى من أفكاره.

لقد سبقه آخرون، ولا ريب في أن أسلوبه في فهم معنى المرافقة أسلوب غريب، وكانت تقدم إلى صاحبة القوة المقدسة قرايين صغيرة مشدودة باللحاء: كالأذرع والأرجل والعيون الصغيرة المصنوعة من الصفيح وكنماذج المنح والقلب غير المتقنة وكل أنواع الأمارات التي ترمز لاستعادة القوة أو الحكمة أو الحب إلى حد ما. ولم يكن هناك ما تمكن تسميته عزلة الطبيعة؛ لأن أتراح الإنسانية أو أفراحها قد شقت طريقها إلى قلب الشجرة، وبسط ذراعيه وألصق نفسه بالخشب الذي تحول إلى فحم ثم أسند ظهره رويداً رويداً حتى استقر جسده على الجذع من خلفه، وأطبق عينيه وتملكه شعور غريب كأنه يتحرك مطمئناً حتى لكأنه السابح يغالب طويلاً لججاً تصطبخب ثم يجد آخر الأمر أن التيار سيجره إلى مقصده.

وعلى هذا رقد ساكنًا، متنبهاً فقط إلى تيار الماء الذي تحت قدميه،
وإلى أن كل ما حوله إنما هو تيار ماء يتحرك هو فيه.

وأيقظته آخر الأمر صدمة ربما كانت صدمة قدوم قادم، إذ، عندما
فتح عينيه، مر شيء ما- لا يمكن تصويره ولا تحديده- جمع الأشياء
وجعلها واضحة معقولة.

وكان انحناء العجوز على العمل وسرعة حركة خنزيرها الصغير
وتناقص كرتها الصوفية، كان كل أولئك لا يخلو من معنى. وجاء، على
بلغة، شاب يغني وهو يعبر الغدران وكان في مظهره جمال وفي تحيته
صدق. ولم يكن منظر أشعة الشمس، على جذور الشجرة المنتشرة،
من النماذج العرضية، كما كان في كتل البرواق^(١) المنكسة وموسيقى
النهر ما يدل على القصد. على أن المستر لوكاس- الذي لم يستكشف،
في فترة قصيرة من الزمن، اليونان وحدها بل استكشف كذلك إنجلترا
والعالم أجمع والحياة- لم يجد ما يدعو إلى السخرية في الرغبة في أن
يلقى في داخل الشجرة قرباناً آخر سبق نذره ألا وهو مثال صغير لرجل
بكامل هيئته.

- «ها هو ذا يا أبي يلعب دور صقر الجراد».

ووصلوا جميعهم من دون أن يلحظ مجيئهم أحد، وكانوا: إثل
والمسز فورمان والمستر جريهام والترجمان الذي يتكلم الإنجليزية،
ورمقهم المستر لوكاس كمن تداخله ريبة، وقد حلت بهم الكلفة فجأة
وبدا أن كل ما صنعوا كان متكلفاً خشناً.

(١) البرواق (بفتح فسكون) نبات يقال إنه يخضر من دون مطر كلما غامت السماء.

قال المستر جريهام، وكان شابًا دائم الأدب مع من يكبرونه سنًا:
«اسمح لي أن أمد لك يدي».

وشعر المستر لوكاس بحرج وأجاب: «شكرًا، في وسعي بمفردي
أن أتصرف على الوجه الأكمل»، ولم يكذ يخطو خارج الشجرة حتى
زلقت قدمه إلى ينبوع.

فقالَت إثل: «أبت، يا أبت! ما تصنع؟ أحمد الله على أنني استحضرت
لك فوق البغل تغييرة ملابس».

ورعته في عناية وأمدته بجوربين نظيفين وحذاءين عاليين ناشفين،
ثم أجلسته على البطانية إلى جوار سلة الغداء، وذهبت هي مع الآخرين
لارتياذ الغابة الصغيرة.

وعادوا تملكهم نشوة حاول المستر لوكاس أن يشاركهم فيها،
ولكنه ألفاهم لا يطاقون، فقد كانت حماسهم سطحية دارجة تشنجية،
إنهم لم يدركوا ما يحيط بهم من جمال مزدهر، ثم حاول على الأقل أن
يعبر عن شعوره وهاك ما قاله:

- «إن رؤية هذا المكان لتملأني سرورًا، فهو بالغ التأثير عليّ،
والشجر فيه بديع، بديع إلى درجة عالية بالنسبة إلى اليونان، وفي نبع
الماء الصافي شيء عظيم الشاعرية، ويبدو أن الناس أيضًا يتصفون بالركة
واللطف، والمكان جذاب، ما في ذلك شك».

ولامته المسز فورمان على مديحه الفاتر.

وصاحت: «أوه، هذا المكان هو الواحد في الألف! وإنني لأود أن

أعيش هنا، وأموت هنا! ولو لم يكن عليّ أن أعود إلى أثينا لبقيت حقاً!
فالمكان يذكرني بكونولوناس موطن سوفوكليس».

قالت إثل: «حسن، ينبغي لي أن أبقى. إني باقية يقيناً».

«نعم ابقِي! أنت وأبول! أنتيجونا وأوديب! يقيناً يجب أن تبقي في
كونولوناس!».

وكادت أنفاس المستر لو كاس أن تتوقف وتملكه الانفعال، لقد
خال - عندما احتواه جذع الشجرة - أن سعادته غير مرتبطة بمكان، غير أن
الحديث الذي جرى في تلك الدقائق القليلة أظهره على الحقيقة، فلم يعد
يأمن نفسه على أن يضرب في الأرض لئلا تدركه أفكار عتيقة ومتاعب
قديمة فور مزاييلته شجر الدلب وموسيقى الماء البكر. وإن ليلة يقضيها
في الخان مع القرويين الكرام ذوي العيون الرحيمة ويرقب فيها الخفافيش
تسبح هائمة في دنيا الظلام ويرى فيها القمر يرد النماذج الذهبية فضية،
إن ليلة كهذي لتتأى به عن الانتكاس وتثبتة أبداً في الدنيا التي استردها.
وكان قصارى ما استطاعت شفتاه أن تقولاً: «سأبقى لقضاء ليلة هنا».

- «أنت تعني أسبوعاً يا أبت، فقضاء ما يقل عن هذه المدة انتهاك
لقدسية المكان».

- «أسبوع إذن، أسبوع» بهذا نطقت شفتاه وقد ضايقه التصويب وإن
قفز قلبه من الفرح... ولم يعاود التحدث إليهم طوال فترة الغداء، بل
أخذ يرقب المكان الذي ينبغي له أن يعرفه كل المعرفة والناس الذين
سيغدون في القريب العاجل رفقاءه وأصدقاءه. وكان مجموع نزلاء

الخان: عجوزًا وامرأة نصفًا^(١) وشابًا وطفلين، ولم يوجه الحديث إلى أيّ منهم، ولكنه مع ذلك أحبهم كما أحب كل شيء تحرك أو تنفس أو وجد تحت ظل أشجار الدلب المبارك.

وهنا قالت المسز فورمان بصوتها الحاد: «إلى الطريق! يا إثل! يا مستر جريهام! إن أحسن الأشياء حتم أن تلقى نهايتها».

وفكر المستر لو كاس: «سيوقدون الليلة المصباح الصغير في المزار المقدس وقد يخبرونني - عندما نجلس كلنا معًا في الشرفة - أي قربان يعلقون».

وقال المستر جريهام: «عفوًا يا مستر لو كاس، إنهم يريدون أن يطووا البطانية التي تجلس عليها».

ونهض المستر لو كاس وهو يقول لنفسه: «ستذهب إثل إلى الفراش أولاً، وعندئذ أحدثهم عن قرابيني أنا أيضًا، وذلك شيء ينبغي لي القيام به، وأظن أنهم سيدركونه إذا تركت وإياهم بمفردي».

وربتت إثل خديه قائلة: «يا أبت، لقد ناديتك ثلاث مرات... البغال كلها حاضرة».

- «البغال؟! أيّ بغال؟».

- «بغالنا. كلنا في الانتظار، أوه يا مستر جريهام، أرجوك أن تعين أبي على الركوب».

«لست أعلم عم تتكلمين يا إثل».

(١) النصف (بفتحيتين) متوسطة العمر.

- «ينبغي لنا أن نبدأ الارتحال أيها الوالد العزيز، وأنت تعلم أن علينا أن نبلغ الليلة أولمبيا».

فأجاب المستر لو كاس في نغمة ملؤها الثقة والزهو: «طالما تمنيت يا إثل أن يصبح تفكيرك في تدبير المشروعات خيرًا مما هو الآن، أنت تعلمين كل العلم أننا سنقضي هنا أسبوعًا، والاقتراح من لديك أنت». فقالت إثل، وقد فرغت فرعًا أنساها أدبها: «ما أعظم سخافة هذه الفكرة! كان عليك أن تدرك أنني كنت مازحة، لقد عنيت يقينًا أنني وددت لو استطعنا البقاء».

فتنهدت المسز فورمان وقد ركبت بغلها وقالت: «آه ليتنا نقدر على أن نفعل كل ما نريد!».

واستأنفت إثل كلامها قائلة: «يقيني أنك لم تدرك أنني عنيت ذلك». - «أدركته بكل تأكيد ورسمت خطتي على افتراض بقائنا، ولا ريب في أنني يضايقني جدًّا، بل يتعذر عليّ كلية، أن أرتحل». ألقى هذه الملاحظة في هيئة المقتنع المثبت، واستدارت المسز فورمان والمستر جريهام ليخفيا ابتسامتهما.

«آسف على أنني تكلمت على هذا النحو من الإهمال، لقد كان ذلك خطأ، ولكنك تعلم أننا لسنا في حل من أن ننقسم على الجماعة، والبقاء هنا ولو ليلة يفوت علينا الباخرة في باتراس».

وانتحت المسز فورمان بالمستر جريهام ناحية ولفتت نظره إلى الأسلوب الممتاز الذي به ساست إثل والدها.

- «أنا لا آبه لباخرة باتراس، لقد قلت إن علينا أن نتريث هنا، وإنا لفاعلون».

ولاح أن نزلاء الخان تكهنوا بطريقة خفية بأنهم قد أصابهم مس من الخصام، فتوقفت العجوز عن غزلها بينما وقف الشاب والطفلان خلف المستر لو كاس وكأنهم يسندونه.

إلا أنه لم يحركه الجدل أو التوسل... تكلم قليلاً ولكنه بدا كمن عقد النية بعزم أكيد، إذ رأى - أول مرة - أن حياته اليومية قد استقامت له.. وما حاجته بالعودة إلى إنجلترا؟ ومن ذا الذي سيفتقده؟ فأصحابه ما بين ميت وشيخ، وإثل تحبه على صورة ما ولكنها تهتم لأشياء أخرى، وهذا من حقها. أما بنوه الآخرون فهو لا يكاد يراهم، وليس له بعد ذلك من ذوي قرباه غير أخته جوليا التي يمقتها ويخشأها في وقت معاً. فهو إذن في غنى عن مجاهدة نفسه، وإنه ليكون أحمق جباناً إذا انقلب عن المكان الذي جباه السعادة والسلام.

ولكي تلاطفه إثل - وهي غير كارهة أن تستعرض ما تعرف من اليونانية الحديثة - دخلت أخيراً إلى الخان، يرافقها الترجمان الحائر، لتلقي نظرة على الحجرات، فاستقبلتهما المرأة التي في الداخل بالترحاب في صوت عال. هذا بينما أخذ الشاب يجرب بغل مستر لو كاس إلى الإسطبل في غفلة من الجميع.

- «دعها أيها اللص!» بهذا صاح جريهام الذي طالما جاهر بأن الأجانب يسعهم أن يفهموا الإنجليزية إذا راقهم ذلك، وكان على حق لأن الرجل امتثل، وقد وقفوا جميعاً في انتظار عودة إثل.

وأخيرًا ظهرت وذيول ملابسها تطبق عليها وفي إثرها الترجمان يحمل الخنزير الصغير الذي ابتاعه بعد مساومة.

- «يا والدي العزيز، سأصنع من أجلك كل ما يسعني صنعه، أما المبيت في هذا الخان فلا».

فاستفهمت المسز فورمان: «أفيه براغيث؟».

فأشارت إثل إلى أن «البراغيث» ليست الكلمة الصحيحة.

وقالت المسز فورمان: «أخشى أن هذا يحسم الأمر فأنا أعرف كيف يدقق المستر لو كاس».

قال المستر لو كاس: «هذا يحسم الأمر. إثل، انطلقي فلا حاجة لي بك، ولست أعرف لماذا استشرتك، وسأبقى هنا بمفردي».

فأجابت إثل وقد فقدت صوابها: «هذا محض هراء. أيجوز تركك وأنت في هذه السن؟ كيف يتسنى لك أن تأكل أو تستحم؟ ثم إن كل خطاباتك تنتظرك في باتراس وستفوتك الباخرة. ومعنى هذا أنك ستحرم من أوبرات لندن وتشوش كل ارتباطاتك في هذا الشهر. إلا إنك لتتصرف كأنك تستطيع الارتحال بمفردك!».

وشاركها المحاولة المستر جريهام قائلاً: «قد يطعنونك بسكين».

ولم يقل الروم (اليونانيون) شيئاً إلا أنهم كانوا يومئون صوب الخان كلما اتجه المستر لو كاس ببصره إليهم. وود الطفلان لو سحبا من سترته. وكادت العجوز التي تعلو الشرفة أن تتوقف عن غزلها كل التوقف وصوبت إليه من عينيها نظرات تنم على الغموض والتوسل.

وفيما كان يناضل اتسع نطاق الخلاف اتساعاً كبيراً، وقد دخل في روعه أنه باق، لا لأنه استعاد الشباب ورأى الجمال ووجد السعادة فحسب، بل لأنه- في ذلك المكان ومع أولئك الناس- ينتظره أمر جلل يغير وجه العالم. وكانت تلك اللحظة هائلة إلى حد أنه تخلى عن الكلم والمجادلات على أنها لا غناء فيها، وأخلد إلى القوة الجبارة المقنعة التي لأحلافه وهم الرجال الصامتون والماء المدموم والشجر الهامس، ذلك أن المكان جميعاً نادى في صوت موحد يستبينه هو، بينما أخذ مناوئوه الثرثارون يزدادون في كل دقيقة تفاهة وسخفاً، وهم عما قريب سيكلون ويذهبون إلى الشمس مثرثرين وسيتركونه للغیضة الرطبة وضوء القمر والمصير الذي تنبأ به.

وكانت المسز فورمان والترجمان قد بدءا الرحلة فعلاً بين صيحات الخنزير الصغير الحادة، ولولا أن إثل أهابت بالمستر جريهام أن يتدخل لجاز أن يدوم النضال أبداً.

همست في أذنه قائلة: «أفي وسعك أن تعيني؟ إنه صعب المراس». - «لست من أهل الجدل، ولكن إذا وسعني مساعدتك بأية وسيلة أخرى...» وغض بصره ونظر نظرة راضية إلى هياته السوية. وتلعثمت إثل ثم قالت: «ساعدني بأية وسيلة في مقدورك ونحن على أية حال نصنع هذا لخيره».

- «وإذن فدعي بغله يقاد من ورائه».

وفيما كان يدور في خلد المستر لو كاس أنه غنم يومه، شعر فجأة أنه

رُفع عن الأرض وأجلس بالجنب على السرج، وفي الوقت ذاته انطلق البغل راكضًا، ولم يقل لو كاس شيئًا لأنه لم يكن لديه ما يقوله، حتى إن انفعاله كان يسيرًا عندما شعر بانتهاء الظل وسكوت صوت الماء، وكان المستر جريهام يجري إلى جواره معذرًا وقبعته في يده.

- «أعلم أنني لم أكن محققًا في التدخل، ولذا أتوسل إليك في حرارة أن تغفر لي، وآمل مخلصًا أن تشعر يومًا ما أنني كنت... إلى الجحيم!». وأدركه في وسط ظهره حجر رماه به الغلام الذي كان يتعقبهم في درب مسير البغال ومن خلفه أخته ترمي بالحجارة كذلك.

وصاحت إثل بالترجمان الذي تقدمهم - مسافة ما - مع المسز فورمان، ولكن قبل أن يلحق بهم ظهر غريم جديد، وهو اليوناني الشاب الذي انفصل عنهم متقدمًا عليهما، والذي عاد فانقض على الشكيمة (اللبام) التي بيد المستر لو كاس، ومن حسن الحظ أن جريهام كان ملاكمًا بارعًا، وما هي إلا لحظة حتى ضرب الشاب فحطم دفاعه الواهن وألقاه على زهر البروق فخرّ دامي الفم. وفي هذه اللحظة وصل الترجمان، وفزع الغلمان لمصير أخيهم فكفوا عن محاولاتهم، أما فرقة الإنقاذ - إن صح حساباتها كذلك - فقد ارتدت في غير نظام إلى الأشجار.

وضحك جريهام ضحكة الظافر قائلاً: «أيها الشياطين الصغار! هذا هو جماع اليونان الحديثة... إن بقاء والدك كان معناه حصولهم على مال، وهم يرون أننا نخرج المال من جيوبهم».

- «وما أفظعهم، إن هم إلا متوحشون... لست أدري كيف أشكرك

أبدًا وقد أنقذت أبي».

- «غاية ما أرجوه ألا تحسبيني فظًّا غليظ القلب».

فأجابت إثل في تنهيدة قصيرة: «كلا، فأنا ممن يعجبون بالقوة».

وفي غضون ذلك انتظم الركب، أما المستر لو كاس الذي احتمل في صعوبة خيبة أملة على صورة جد مرضية - كما قالت المسز فورمان - فقد نقل بطريقة مريحة إلى ظهر دابته، وقد عجلوا صعود صفحة الجبل خشية التعرض لهجمة أخرى، ولم توات إثل فرصة التحدث إلى أبيها وسؤاله أن يغفر لها أسلوب معاملتها إياه حتى زایلوا المكان المليء بالحوادث والوقائع ونأوا عنه مسافة سحيقة.

- «لقد بدا لي أيها الوالد العزيز أنك، إذ ذاك، تغيرت كثيرًا، ولقد رميتني بفزع كبير، ولكني الآن أشعر أنك عدت كدأبك».

فلم يجب، وحسبت هي أنه بطبيعة الحال كان متأثرًا من تصرفها.

وبخدعة من خدع النظر العجيبة التي كثيرًا ما تلوح في المناظر الجبلية، بدا كأن المكان الذي زایلوه منذ ساعة يقع تحتهم، واختفى الخان تحت القبة الخضراء، أما في العراء فقد ظلت ثلاثة أشباح واقفة، ومن خلال الهواء النقي سمعت صرخة واهية للتحدي أو التوديع.

وتوقف المستر لو كاس مترددًا وترك السرج يقع من يده.

فقالت إثل في رفق: «هيا يا والدي العزيز».

فأذعن، وما هي إلا هنيهة أخرى حتى ستر نتوء صخري، قائم في أعلى الجبل، ستر المنظر الخطر، إلى الأبد.

كان الوقت وقت الفطور، ولكن مصابيح الغاز كانت مضاءة بسبب الضباب... لقد غرق المستر لوكاس في لجة من الذكريات السيئة في الليلة التي قضاها. أما إثل - التي يحل موعد زواجها بعد أسابيع قليلة - فقد أسندت ذراعيها إلى المائدة مصغية.

- «أول ما حدث: دق جرس الباب... ثم عدت من الملهى (التياترو).. ثم بدأ الكلب... وتلاه القط... وفي الثالثة صباحاً مر (عصبي) يغني... أجل أجل، ثم أخذ الماء يبقب في القصبة (الماسورة) التي فوق رأسي». قالت إثل وقد بدت منهوكة القوى: «أحسب أن هذا لم يكن غير تصريف الماء».

- «مهما يكن من شيء، فإن أكره ما أكرهه هو الماء الجاري في القصب؛ لأنه يقضّ مضجع من يأوي إلى فراشه ويجعل مبيته في البيت مستحيلاً. وسوف أتخلص من هذه الحال، وسأرسل إشعاراً بذلك في ربيع السنة التالي، لأخبرن صاحب البيت في صراحة: إن سبب هجري المنزل هو هذا: المبيت فيه متعذر كل التعذر، فإذا قال... حسن.. ماذا عنده ليقوله؟».

- «كسرة أخرى من الخبز المجمر (توست) يا أبت؟».

- «شكراً يا عزيزتي» وتناولها، وحل فاصل من الوثام.

وما هي إلا هنيهة حتى استأنف الكلام قائلاً: «لن أذعن - في مثل ما
ينعتونني به من خلق ذلول - إلى التدريب الذي يجري في البيت المجاور،
ولقد كتبت وأخبرتهم بذلك، أليس كذلك؟!».

فقال إثل التي حرصت على عدم وصول الخطاب: «أجل لقيت
المربية فوعدت أن تصلح الأمر على خلاف ما هو جارٍ الآن، ثم إن عمتي
جوليا تكره الضوضاء، وسأعمل أنا على تصحيح الوضع».

وكانت عمتها - وهي عضو الأسرة الوحيد المنقطع الصلة بها -
قادمة لتشرف على منزل ولادها حينما تتركه، على أن إشارتها إلى هذا
الموضوع لم تكن من دواعي السرور، فقد أخذ المستر لو كاس يطلق
مجموعة من التهديدات التي لا يخفى مدلولها كثيراً، ولم يوقفها إلا ورود
البريد.

وهنا صاحت إثل: «أوه، أية رزمة (طرد) هذي؟! لي أنا؟! ما عساها
أن تكون؟! طوابع يونانية؟! شيء مثير جداً!!».

ثم ظهر أن الرزمة تحوي بصيلات زهر البروق أرسلتها المسز
فورمان من أثينا لتزرع في المستنبت الزجاجي.

- «ألا تعيد علينا هذه البصيلات كل الذكريات؟! أنت تذكر البروق
يا أبت، كل البصيلات مغلفة بجرائد يونانية، وإني لأتساءل هل أنا ما زلت
قادرة على قراءتها؟ لقد كان ذلك في مقدوري قبلاً، وتعلم ذلك».

وأخذت تثرثر بقصد أن تغطي ضحكات الأطفال الذين في البيت
المجاور لأنها قد تكون مصدرًا مألوفًا للمشاكسة وقت الفطور.

- «أصغ إليّ! (كارثة في الريف) أوه لقد أصبت خبرًا محزنًا، ولكن لا بأس (في يوم الثلاثاء الماضي، في بلاتانست، بمقاطعة مسينيا، وقعت مأساة فاجعة، فإن شجرة كبيرة) أأست أحسن الفهم؟ (وقعت في الليل و....) رويدك لحظة يا عزيزي! (وسحقت النزلاء الخمسة المقيمين في الخان الصغير القائم هناك، ويبدو أنهم كانوا جالسين في شرفته، وقد سهل التعرف على جثتي صاحبة النزل العجوز مارية روماييدس، وابنتها البالغة من العمر ستة وأربعين عامًا، أما جثة سبطها^(١) أوه، إن البقية لبالغة الفظاعة، ألا ليتني لم أحاول قراءة الخبر، وأنا فوق ذلك أشعر أنني سمعت قبلاً اسم بلاتانست، وأظن أننا لم نلبث هناك في الربيع، أم ترانا فعلنا ذلك؟».

فقال المستر لو كاس ووجهه الماسح لا يعبر إلا عن قلق بسيط:
«تناولنا غداءنا هناك، وربما كان ذلك هو المكان الذي اشترى الترجمان منه الخنزير».

فأجابت إثل في صوت منفعّل: «يقينًا، حيث اشترى الترجمان الخنزير الصغير. هذا فظيع!».

قال الأب، وكانت ضوضاء الأطفال في البيت المجاور تسترعى كل انتباهه: «فظيع جدًا!»، وعلى حين فجأة وقفت إثل على قدميها في اهتمام صادق.

(١) السبط (بكسر السين) يطلق في الأغلب على ولد البنت، وهذا غير الحفيد الذي لا خلاف في أنه ولد الولد.

وهتفت: «يا للرحمة! تلك جريدة قديمة، إن ذلك لم يحدث أخيرًا، بل في أبريل، في مساء الثلاثاء الموافق الثامن عشر من الشهر، ونحن.. لا بد أننا كنا هناك في فترة ما بعد الظهر».

فقال المستر لو كاس: «هكذا كنا»، فوضعت يدها على قلبها ولم تكذب تقوى على الكلام.

- «يا أبت، أيها الوالد العزيز، لا معدى لي عن أن أقولها، أنت رغبت في المبيت هناك، وحاول كل أولئك الناس، الناس التعساء أنصاف المتوحشين، أن يحملوك على البقاء، وها هم أولاء قد ماتوا جميعًا، والمكان - كما تقول الجريدة - أصبح كله خرابًا حتى إن الجدول غير مجراه... يا أيها الوالد العزيز، لو لم أحملك أنا على الرحيل ولو لم يساعدني آرثر لكنت أنت من الهالكين».

فهز المستر لو كاس يده مهتاجًا وقال: «لا خير إطلاقًا في التحدث إلى المربية، وسأكتب إلى صاحب البيت: «إن السبب في هجري المنزل هو هذا: الكلب ينبح، والأطفال في البيت المجاور لا يحتملون، ثم إنني لا أطيع صوت جريان الماء».

ولم تكبح إثل هذيانه، إذ شدهتها النجاة في الفرصة الأخيرة، بل سكتت طويلًا، ثم قالت آخر الأمر: «إن نجاة عجبًا كتلك لتبعث في المرء الإيمان بالقدرة الإلهية».

ولم يجب المستر لو كاس الذي كان لا يزال يصنف خطابه إلى صاحب البيت.

الآلة تتوقف

الجزء الأول

سفينة الهواء

تخيل - إذا استطعت - غرفة صغيرة سداسية الأضلاع كخلية النحل، لا تضيئها نافذة ولا مصباح وتملأ جوانحها مع ذلك أشعة خافتة، وليست فيها فتحات للتهوية ولكن هواءها نقي، ولا تحوي آلات موسيقية، إلا أنها - في اللحظة التي تنطلق فيها تأملاتي - تختلج بعزف بديع الإيقاع، ويتوسطها كرسي ذو مساند يجاوره قمطر للقراءة هما كل ما تضم من أثاث... وتجلس في هذا الكرسي كومة لحم مقمطة^(١) هي امرأة قد يبلغ ارتفاعها الخمسة الأقدام ولها وجه أبيض كالفطر^(٢) وهي صاحبة تلك الغرفة.

ودق جرس كهربائي.

ومست المرأة مفتاحاً محوَّلاً (سويتش) فسكتت الموسيقى.

(١) مقمطة: أي ملفوفة لفأ مشدوداً.

(٢) الفطر (بضم الفاء) عش الغراب.

وفكرت: «أظن أنه ينبغي لي أن أرى من الطارق»، وأمدت كرسيها بالحركة، وكان - كالموسيقى - تحرّكه آلة، فتدحرج بها إلى طرف الغرفة الآخر حيث ظل الجرس يرن في إلحاح.

فهتفت: «من الطارق؟» وكان صوتها منفعلًا؛ لأن الاستماع إلى الموسيقى قطع عليها مرارًا منذ بدء العزف... وكانت هذه السيدة تعرف بضعة آلاف من الناس، إذ سارت العلاقات الاجتماعية قدمًا في بعض المناحي.

وعندما أصغت إلى جهاز الاستقبال تجعدت أسارير وجهها الأبيض، وأسفر عن ابتسامة، وقالت:

- «حسن، فلتتحدث، وسألوذ بالعزلة، وأنا لا أتوقع حدوث شيء ما في الدقائق الخمس التالية وأستطيع يا (كونو) أن أخصك بخمس دقائق، ولكن بعد هذا ينبغي لي أن ألقى محاضرة عن الموسيقى في العهد الأسترالي».

ومست العازل لتقطع على الغير سبيل التحدث إليها، ثم مست جهاز الإضاءة فغرقت الغرفة الصغيرة في الظلام.

وهتفت وقد عاودها الانفعال: «البدار البدار يا كونو، فهأنذا أضيع وقتي في الظلام».

وانقضت خمس عشرة ثانية كاملة قبل أن يبدأ في التوهج القرص المستدير الذي كانت تمسكه بيديها، وقد انطلق عبره ضوء خافت أزرق لم يلبث أن ارتد أرجوانيًا داكنًا، وإذ ذاك تسنى لها أن ترى طيف ولدها الذي يعيش في الجانب الآخر من العالم، كما أنه استطاع أن يراها.

- «ما أبطأك يا كونو».
- فابتسم ابتسامة وقورة.
- «أعتقد حقاً أنك تستمرى التلكؤ».
- «لقد دعوتك من قبل يا أماه ولكنك كنت على الدوام في شغل أو عزلة، وعندي موضوع خاص أود أن أفضي به إليك».
- «وما ذاك أيها الابن العزيز؟ عجل به. ولماذا لم ترسله إليّ بالبريد النيوماتيكي^(١)».
- «لأن شيئاً كهذا أفضل أن أبلغك إياه مشافهة، أريد...».
- «حسن؟».
- «أريدك على أن تحضري وتشاهديني».
- وراقبت فاشتي وجهه في القرص الأزرق، وهتفت: «رؤيتك في مقدوري فما تريد فوق هذا؟».
- قال كونو: «أريد أن أشهدك ولكن لا عن طريق الآلة، وأود أن أتحدث إليك ولكن عن غير طريق الآلة المضنية أيضاً».
- قالت الأم وقد صدمت صدمة غامضة: «أوه، اسكت، ولا تتكلم بسوء عن الآلة».
- «ولم لا؟».

(١) البريد النيوماتيكي قصب به هواء مضغوط يجعل نقل الخطابات - فور وضعها فيه - من مكتب بريد إلى آخر.

- «لأن ذلك لا يصح».

فصاح الابن: «تتكلمين عنها كأنها من صنع الله، ولعلك تبتهلين إليها في الشدة، ألا إنها من صنع الإنسان، لا تنسي هذا، صانعوها عظماء ولكنهم بشر على كل حال. والآلة شيء عظيم ولكنها ليست كل شيء، فأنا أشاهد في القرص شيئاً يشبهك ولكني لا أشاهدك، وأسمع في التليفون صوتاً كصوتك ولكني لا أسمع صوتك، لهذا أريدك على أن تأتي إليّ، تعالي والقيني، زوريني نلتق وجهاً لوجه ونحدث عن الأماني التي تختلج في صدري».

فأجابت بأن وقتها لا يتسع للزيارة.

- «إن سفينة الهواء تقطع المسافة بيني وبينك في يومين».

- «أنا أمقت سفينة الهواء».

- «لماذا؟».

- «لأنني أمقت رؤية الأرض السمراء الداكنة المخوفة والبحر والنجوم، عندما تظلم الدنيا، ثم إنني - في سفينة الهواء - تنقطع أفكارى، إنها لا تخطر لي إلا في سفينة الفضاء».

- «أي نوع من الأفكار يمكن أن يوحى لك به الهواء؟».

فاستأنى لحظة.

- «ألست تعرفين أربعة نجوم كبيرة تشكل مستطيلاً تتوسطه ثلاثة أخرى متجاورة تتدلى منها ثلاثة أخرى؟».

- «كلا، لست أعرف، وأنا أمقت النجوم، ولكن هل توحى إليك

بأفكار؟ ما أكثر ما يشوقني هذا. خبرني».

- «كانت لي فكرة، هي أنها تشبه رجلاً».

- «لست أفهم».

- «النجوم الأربعة الكبرى منكبا الرجل وركبته، والثلاثة التي في الوسط تشبه الأحزمة التي درج الناس حيناً على لبسها، والثلاثة المدلاة تشبه السيف».

- «السيف؟».

- «كان الناس إذا خرجوا يحملون سيوفاً يقتلون بها الحيوان وغيرهم من بني الإنسان».

- «هذه الفكرة لا تدخل في روعي على أنها فكرة عظيمة، ولكنها مبتكرة يقيناً... متى هبطت عليك أول مرة؟».

- «في سفينة الهواء...».

فأنهى الحديث، وخالت هي أنه بدا مكتئباً وإن لم تستطع التثبت من هذا؛ ذلك أن الآلة لا تصور التفاوت في التعبيرات، ولكنها لا تزيد على أن تعطي فكرة عامة عن الناس، فكرة لا بأس بها في الأغراض العملية كافة، وهذا ما كان يدور بخلد فاشتي، ذلك لأن الآلة تنكر - بحق - الازدهار الذي لا يؤبه له والذي تجاهر في صده فلسفة فقدت اعتبارها قائلة إن جوهر العلاقات الاجتماعية تنكره الآلة تماماً كما ينكر أصحاب مصانع الفواكه الصناعية ازدهار الكروم الذي لا يؤبه له. وقد سلم الإنسان - بعد هذا، منذ أجل طويل - بالأشياء التي «لا بأس بها».

واستأنف الكلام قائلاً: «الحقيقة أنني أود رؤية هذه النجوم من جديد، إنها نجوم غريبة أود رؤيتها، لا من سفينة الهواء ولكن من سطح الأرض كما كان يفعل أسلافنا منذ آلاف السنين»، وصدمت مرة أخرى.

- «يا أماء، لا معدى عن أن تجيئني - على الأقل - لكي تبيني لي ما الضرر من زيارة سطح الأرض».

فأجابت وهي تضبط عواطفها: «لا ضرر منها ولكن لا فائدة، فسطح الأرض إن هو إلا تراب وطين، ولا بقاء لحياة فوقه، وستكون أنت عندئذ في حاجة إلى قناع تنفس وإلا قتلتك برودة الهواء الخارجي، إذ فيه يموت الإنسان من فوره».

- «أعرف ذلك، وسأخذ دونه جميع الاحتياطات».

- «والى هذا...».

- «حسن؟».

فتبصرت ودققت في اختيار ألفاظها، ولما كانت لدى ابنها سحبة شاذة رغبت في أن تشبه عن الرحلة.

فأكدت: «إنها تخالف روح العصر».

- «أبهذا تعين أنها تخالف الآلة؟».

- «نعم، من ناحية ولكن...».

وهنا حالت صورته التي على القرص الأزرق.

- «كونو؟».

لقد لجأ إلى العزلة.

وفجأة شعرت فاشتي أنها في عزلة.

ثم استنبطت النور فأنعشها منظر غرفتها وقد غمرها الضياء ورصعتها الأزرار، لقد وجد في كل مكان منها أزرار ومفاتيح محولة (سويتشات)، فأزرار تستحضر الطعام أو الموسيقى أو الملابس، وزر للحمام الساخن تضغطه فيطلع من أرض الغرفة حوض من رخام صناعي مترع بسائل دافئ منقى من الروائح الخبيثة، وآخر للحمام البارد، وزر يولد الإنتاجات الأدبية، وتوجد بطبيعة الحال الأزرار التي بها نتحدث إلى أصدقائنا. والغرفة وإن لم تحو شيئاً تتصل بكل ما يهمها الاتصال به في العالم.

وتلا ذلك أن فاشتي أقفلت مفتاح العزلة، فانهمر عليها كل ما تجمع في الثلاث الدقائق الماضية، وملأ الغرفة ضوضاء الأجراس والقصب الذي يستخدم في الكلام... ما حال الطعام الجديد؟ هل في وسعها أن توصي بما تريد منه؟ هل هبطت عليها أفكار جديدة في المدة الأخيرة؟ هل يستطيع امرؤ أن يبين لها أفكاره الخاصة؟ هل في مقدورها أن تحدد موعداً لزيارة الدور العامة لتربية الأطفال في أي تاريخ باكر، في هذا اليوم أو الشهر مثلاً؟

فأجابت عن أغلب الأسئلة في احتياج، والاحتياج صفة تتزايد مع السن التي تكرر كراً سريعاً، قالت إن الطعام الجديد شنيع، وإنها ما تستطيع أن تزور دور تربية الأطفال وذلك بسبب ضغط الالتزامات، وإنها ليست لديها أفكار من لديها وإن تكن واحدة قد أزعجت إليها، تلك أن تشبيه النجوم الأربع التي تتوسطها ثلاثة، ليست على كثير من الوجاهة، ثم أقفلت مفتاح مراسليها، فقد حل وقت إلقيائها المحاضرة عن الموسيقى الأسترالية.

وكان أسلوب الاجتماعات العامة الفج قد تبدل منذ زمن طويل، فلم يكن على فاشتي أو مستمعيها أن يتركوا غرفهم، ذلك أنها كانت تتحدث جالسة على كرسيها ذي المساند، كما أنهم، إذ يجلسون في مثل هذا الكرسي، يحسنون رؤيتها والاستماع إليها.. افتتحت محاضرتها ببيان فكاهي عن العهد السابق على العصر المغولي، ثم استطردت نصف انتشار المغاني الهائل الذي حدث في أعقاب الفتح الصيني، وقالت إنها تشعر بأن أساليب (إي- سان- سو) ومدرسة برزبين^(١) - مع أنها عتيقة أو من عهود القرون الوسطى - قد تجزي المشتغلين بالموسيقى في أيامنا هذه، ففيها نضرة وفيها أفكار عالية القيمة.

وقد حظيت محاضرتها- التي دامت عشر دقائق- بحسن الاستماع، وبعد ذلك أصغت هي ومستمعوها إلى محاضرة عن البحر- والبحر يلهم أفكارًا مفيدة- وكان المتحدث قد راده أخيرًا لابسًا قناع التنفس.

ثم طعمت، وتحدثت إلى الكثيرين من أصحابها، واستحمت، وتحدثت من جديد، ثم استدعت فراشها.

ولم يكن الفراش وفق مرامها إذ كان بالغ العرض بينما هي تميل إلى الفراش الضيق، وكانت الشكاة لا تجدي لأن الفرش كانت متساوية الأبعاد في العالم طرًا، ثم إن طلب حجم مغاير يستتبع إجراء تغيرات عظيمة في الآلة، وأخلدت فاشتي إلى عزل نفسها، ولم يكن بد من ذلك؛ لأنه لا وجود للنهار والليل تحت الأرض، واستعادت عرض كل ما

(١) برزبين: عاصمة مقاطعة كوينز لاند في أستراليا.

حدث منذ استحضرت سريرها آخر مرة... هل من أفكار؟ أفكار قليلة جداً.. أحداث؟ هل دعوة كونو تعد من الأحداث؟

وكان إلى جوارها على قمطر القراءة شيء من مخلفات عصر المحفة، وهو كتاب، وكان كتاب الآلة، وبه إرشادات لمعالجة كل ما قد يعرض لها من طوارئ، فإذا منيت بحرارة أو برد أو تخمة أو أعزها الكلم راجعت الكتاب لتعرف منه أي زر تضغط، لقد طبعت الكتاب اللجنة المركزية، وكان مجلدًا تجليدًا فاخرًا كما قضت بذلك عادةً آخذة في الرسوخ.

جلست في فراشها وتناولته بين يديها في تبجيل، وأدارت بصرها حول الغرفة المتوهجة كأنها ترتاب في أن أحدًا يراقبها، ثم تمتمت بين الاستحياء والابتهاج قائلة: «أيتها الآلة! أيتها الآلة!»، ورفعت المجلد إلى شفيتها وقبلته ثلاثًا وحنّت رأسها ثلاثًا واستشعرت ثلاثًا حمى الإذعان، ولمّا أنجزت طقوسها فتحت صفحة ١٣٦٧ التي تبين مواعيد سفر سفن الهواء من جزيرة نصف الكرة الأرضية الجنوبي، التي كانت هي تعيش تحت أرضها، إلى جزيرة نصف الكرة الأرضية الشمالي التي كان ابنها يعيش تحت أرضها.

وفكرت: «ليس لدي الوقت».

وأعتمت حجرتها، ونامت، واستيقظت، وأضاءت الحجرة، وطعمت، وبادت أصدقاءها الأفكار، وأصغت إلى الموسيقى، واستمعت إلى محاضرات، وأعتمت حجرتها، ونامت. وكانت الآلة تطن - من فوقها ومن تحتها ومن حولها - طنينًا أزليًا، غير أنها لم تلاحظ

الضوضاء لأنه في أذنيها منذ ولدت، وكانت الأرض التي تحملها تدوي إذ تنطلق بسرعة عبر السكون، تقلبها أنا صوب الشمس غير المرئية وآونة في اتجاه النجوم التي لا ترى، ثم استيقظت وأضاءت الغرفة.

- «كونو!».

فأجاب: «لن أكلّمك حتى تجيئني».

- «هل صعدت سطح الأرض منذ تحادثنا آخر مرة؟».

وتلاشت صورته.

وراجعت الكتاب من جديد فانفعلت انفعالا شديدا واضطجعت إلى خلف خافقة القلب... تخيلها وقد تعرت عن أسنانها وشعرها... وفي تلك اللحظة حولت الكرسي صوب الحائط وضغطت زرا قليل الاستعمال، فترجح الجدار مستائيا وانفلق، فرأت من خلال الفتحة نفقا انعرج قليلا بحيث تعذرت رؤية مؤداه، ولئن أرادت الذهاب لرؤية ولدها فهذا مبتدأ الرحلة.

لقد كانت تعرف بطبيعة الحال كل شيء عن جهاز المواصلات الذي لم يكتنفه أي غموض، وما عليها إلا أن تستدعي مركبة فتطير بها هابطة في النفق حتى توصلها إلى المصعد المؤدي إلى محطة سفن الهواء، وقد شاع استعمال هذا الجهاز قبل أن يعم العالم استعمال الآلة وذلك بمدة مديدة، ولا مرأى في أنها درست المدينة التي تقدمت مدنيته مباشرة، تلك المدينة التي أخطأت فهم خصائص الآلة فاستعملتها في نقل الناس إلى الأشياء بدلا من نقل الأشياء إلى الناس، حدث هذا في تلك الأيام المضحكة التي

فيها كان الناس ينتقلون بعيداً لتغيير الهواء بدلاً من أن يغيروا هواء حجرهم! ولقد كانت مع ذلك تخاف النفق الذي لم تره منذ ولادة ابنها. نعم كان النفق منعرجاً ولكن ليس بالصورة التي تعيها ذاكرتها، ومشرقاً ولكن ليس بالضبط وفق ما أشار إليه أحد المحاضرين.. وتملك فاشتي رعب التجربة المباشرة، فانكمشت متراجعة في الحجرة وانسد الحائط من جديد.

وقالت: «كونو، ليس في مقدوري الحضور إليك فصحتي ليست على ما يرام».

ولم تكذب تنطق بهذا حتى سقط إليها من السقف جهاز ضخّم، ووضع بين شفّتيها تلقائياً مقياس الحرارة، ووضعت على قلبها آلياً سماعة طبيب، ورقدت واهنة، ورطب جبينها طبابت باردة، حدث هذا فور اتصال كونو بطبيبها.

وكذلك ما انفكت أحاسيس الإنسان تتذبذب في الآلة بين صعود وهبوط، وشربت فاشتي الدواء الذي ألقاه الطبيب في فيها، ثم ارتدت الآلة إلى السقف وسمع صوت كونو يسألها عن حالها.

فقال في اضطراب: «أحسن، ولكن لم لا تأتي إليّ بدلاً من ذلك؟».

- «لأنني لا أستطيع مزايلة المكان».

- «ولم؟».

- «لأن شيئاً هائلاً قد يحدث في أية لحظة».

- «هل صعدت سطح الأرض بعد؟».

- «كلا، لم أصعد بعد».

- «فما خطبك إذن؟».

- «لن أنبتك بنبتة عن طريق الآلة».

واستأنفت عيشتها.

غير أنها فكرت في كونو طفلاً: في مولده وفي نقله إلى الدور العامة لتربية الأطفال، وفي زيارتها الوحيدة له هناك وفي زياراته إياها، تلك الزيارات التي توقفت عندما حددت له الآلة حجرة في الجانب الآخر من الأرض.. جاء في كتاب الآلة «الوالدان وسقوط واجباتهما لدى الولادة، صفحة ٤٨٣ ٤٢٣ ٢٧ ٤٢٣» صحيح أن هناك شيئاً بذاته اختص به كونو- وكذلك الحال مع سائر أبنائها- فلم يعد لها مفر من اجترائها على الرحلة إذا كانت تلك رغبتة. هذا فضلاً عن «أن شيئاً هائلاً قد يحدث»، فما معنى هذا؟ لا ريب في أنه هراء فتى غض الإهاب ولكن لا بد لها مع ذلك من الذهاب. وضغطت الزر القليل الاستعمال مرة أخرى فترجع الجدار من جديد ورأت النفق الذي ينخرج فلا ترى بقيته، وأقفلت الكتاب وشبكت دفتيه ونهضت وترنحت إلى الطوار (الرصيف) وطلبت مركبة، وانفلقت الحجرة من خلفها، وبدأت رحلتها إلى نصف الكرة الأرضية الشمالي.

وليس من شك في أن الرحلة كانت بالغة اليسر، دنت المركبة فوجدت فيها كراسي ذوات مساند تشبه كرسيها تمام الشبه، وعندما أومأت هي توقفت المركبة عن السير، ثم ترنحت السيدة حتى دخلت المصعد، ولم يكن به غير راكب واحد هو أول آدمي رأيته وجهاً لوجه منذ شهور، وقليل هم الذين كانوا يرتحلون في تلك الأيام؛ لأن البلاد- بفضل العلم- أصبحت كلها متماثلة، وقد أفضى الاتصال السريع- الذي

كان أمل المدنية السابقة فيه كبيرًا - أفضى إلى قهر نفسه. وما جدوى الذهاب إلى بكين ما ظلت تماثل شروزبري تمام التماثل؟ وفيم العود إلى شروزبري وهي لا تختلف عن بكين في كبيرة أو صغيرة؟ نعم... كثيرًا ما كان الناس يتحركون بأجسادهم، ولكن الاضطراب كله يتركز في الروح.

وسفينة الهواء من مخلفات العصر البائد، وقد أبقوا عليها لأن الإبقاء عليها أيسر من توقيفها أو الإقلال منها. وقد تجاوزت الآن - إلى درجة كبيرة - حاجة السكان.. وتقوم السفينة تلو السفينة في مراكز قذف الطائرات: في رأي أو في كرايستشرش (أستعمل هنا الأسماء العتيقة) وتسبح في السماء المزدحمة وتصطف فارغة في مرافئ الجنوب. وقد بلغ النظام من دقة الإحكام ومن الاستقلال عن الأحوال الجوية حدًا جعل السماء - صافية أم غائمة - تحاكي منظرًا للأشكال والألوان الجميلة شاسعًا تتواتر عليه نماذج متشابهة في مواعيد دورية. وقد درجت السفينة التي أقلت فاشتي على أن تقوم تارة لدى غروب الشمس وطورًا إبان بزوغها، ولكنها كلما مرت على ريمس^(١) جاورت سفينة تسبح بين هلسنغفورز^(٢) والمناطق البرازيلية، وكلما اعتلت جبال الألب، مرة في كل ثلاث رحلات، كان أسطول باليرمو^(٣) يتخذ سبيله في إثرها. ولم تعد

(١) ريمس: مدينة في مقاطعة المارن، موطن كولبير وجوبلان، وفيها رسمت جان دارك شارل السابع ملكًا على فرنسا في سنة ١٤٢٥. وفي الحرب العالمية الأولى دمرتها المدفعية الألمانية بما في ذلك الكاتيدراية الأثرية المشهورة.

(٢) هلسنغفورز: رأس في خليج فنلندا بفنلندا.

(٣) باليرمو: مدينة إيطالية كانت قديمًا عاصمة سيبيليا.

الرياح أو الزوايع، ولا حركة المد والجزر أو الزلازل، عقبة تعوق الإنسان لا في الليل ولا في النهار، ذلك لأنه أصبح يملك عنان حوت يونس، وبهذا أمسى الأدب القديم يرن رنينًا باطلاً كرهاً (ثرثرة) الأطفال.

غير أن فاشتي مع ذلك، عندما رأت أن جانبي سفينة الهواء الفسيحين قد تلطخا بسبب التعرض للهواء الخارجي، عاودها رعبها من التجربة المباشرة، ولم تكن وجوه الشبه كاملة بين تلك وبين سفن الهواء التي نراها في الصور السينمائية، ومن ذلك أن رائحة انبعثت منها، نعم إنها لم تكن قوية ولا كريهة، ولكنها رائحة على كل حال.. ولقد كان ينبغي لفاشتي - وهي مغمضة العينين - أن تدرك أن شيئاً جديداً قد دنا منها كل الدنو، وكان عليها أن تمشي إليه من المصعد وأن تدعن إلى نظرات غيرها من الركبان.. ثم سقط من الرجل الأمامي كتاب، وهذا الأمر، على قلة خطورته، أزعجهم جميعاً، ولو أن الكتاب سقط في الحجرات لرفع تلقائياً، ولكن السلم الموصل إلى السفينة لم يكن معداً، فبقي المجلد المقدس بلا حراك.. وتوقفوا، على غير المتوقع، وبدلاً من أن يلقط الرجل متاعه تحسسن عضلات ذراعه ليعرف لماذا لم تسعفه. ثم تكلم أحدهم مباشرة دون الاستعانة بجهاز ما، قائلاً: «سنتأخر».. وتزاحموا في صعودهم السفينة، وعندئذ وطئت فاشتي صفحات الكتاب.

وبعدما دخلت زاد همها، إذ وجدت الأنظمة عتيقة وعرة إلى حد أنه كانت هناك خادمة يطلب إليها الراكب ما قد يعوزه في أثناء الرحلة، وامتد على طول السفينة - بطبيعة الحال - طوار متحرك، ولكن كان على فاشتي أن تنتقل إلى غرفتها سيراً على قدميها. وكان بعض الغرف خيراً

من بعض، ولم تظفر هي بأحسنها، فظنت أن الخادمة لم تكن عادلة واهتزت من تشنجات الغضب، وانقفلت الصمامات الزجاجية فلم تستطع الرجوع، ورأت في آخر الدهليز المصعد- الذي صعد بها- يعلو ويهبط مسرعًا دون أن يكون به أحد. ووجدت- تحت هذه الممرات المصنوعة من القرميد اللامع- غرفًا تنخفض كل طبقة منها عن الطبقة التي تحتها حتى تبلغ بطن الأرض عمقًا سحيقًا، وقد جلس في كل غرفة آدمي يأكل أو ينام أو ينتج أفكارًا، ولما كانت غرفتها مدفونة على عمق مديد، فقد داخلها الخوف ودمدمت:

«أيتها الآلة! أيتها الآلة!» وربتت كتابها فهدأت نفسها.

ثم بدا أن جانبي هذا الدهليز يذوبان، كل منهما على الآخر، كما هي الحال في الممرات التي نراها في الأحلام، وتلاشى المصعد، وزلج الكتاب- الذي كان قد سقط- إلى اليسار واختفى عن النظر، وتدفق القرميد المجلو كأنه جدول ماء، ثم حدثت هزة يسيرة، وخرجت سفينة الهواء من النفق مدومة فوق ماء أوقيانوس استوائي.

وكان الوقت ليلاً فرأت- لحظة- شاطئ سومطرة الذي تحف به أمواج فوسفورية وتكلله منارات ما انفكت ترسل إلى بعيد، أشعتها التي لا يابها لها أحد، واختفت هذه أيضًا؟ ولم يبق لتسليتها غير النجوم التي لم تهدأ، بل أخذت تترجح فوق رأسها إقبالًا وإدبارًا، متدافعة من كوة إلى كوة كأنما الكون هو الذي يتمايل لا سفينة الهواء، وعلى نحو ما يحدث في الليالي الصافية كانت تلك النجم تلوح: تارة في مرمى النظر، وطورًا كأنها على مستوى مسطح، وأنا تراكم في الآفاق اللانهائية طبقة فوق

طبقة، وآونة تحجب الأبدية كأنها سقوف يحد، سرمدًا، أبصار الناس. وبدا في الحالين أنها لا نطاق، فهتف الركبان غاضبين: «هل يتحتم علينا أن نساfer في الظلام؟»، فما كان من الخادمة التي كانت قبلًا مهملة، إلا أن استنبطت الإضاءة، وأرخت الستائر المصنوعة من المعدن القابل للطي إذ إن الرغبة في النظر إلى الأشياء دون الاستعانة بآلة، كانت لا تزال تترث في العالم وقتما بنيت سفينة الهواء، وهذا هو السر في العدد البالغ الكثرة من النافذات وفي المضايقة النسبية التي يتعرض لها أولئك الذين كانوا متمدنين مترفهي. هذا إلى حد أن غرفة فاشتي أطل عليها نجم من ثلمة في الستر، وأزعجها- في أعقاب إغفاءة نوم مضطربة- ضياء غير مألوف، هو الفجر.

أسرعت السفينة غربًا، ودارت الأرض شرقًا في سرعة أكبر وجذبت فاشتي ورفاقها إلى وراء صوب الشمس، وتوصل العلم إلى إطالة مدة الضوء إلا أن الفرق كان وجيزًا، وانقشعت تلك الآمال الكبيرة التي استهدفت تجريد دوران الأرض، اليومي حول مركزها، من التأثير، انقشعت مع تبدد الآمال التي كان من المحتمل أن تربو على تلك الآمال، فلقد كان هدف المدينة التي تقدمت تلك هو «مسايرة الشمس» بل سبقها، فبنيت طائرات سباق- تقدر على الانطلاق في سرعة هائلة- يقودها أكبر مفكري العصر، دارت هذه الطائرات حول الأرض.. ودارت ثم دارت.. غربًا ثم غربًا ودارت ثم دارت وسط تهليل الإنسانية، غير أن كل ذلك كان عبثًا لا طائل تحته، فقد اتجهت الأرض غربًا في سرعة أكبر وحدثت حوادث مروعة، وأعلنت لجنة الآلة- التي أخذ نفوذها يعظم إذ ذاك- أن

هذه المطاردة تخالف القانون وأن ممارستها محظورة، وجعلت التشريد عقوبة من يقدم على ذلك.

وسأتحدث عن التشريد فيما بعد.

ولا مرأء في أن اللجنة كانت على حق، وإلى ذلك فإن محاولة «قهر الشمس» أثار الاهتمام العام الذي بدأ أخيراً، والذي باشره جيلنا، بالتجربة على الأجرام السماوية، أو على أي شيء إطلاقاً، وكانت تلك هي آخر مرة تعاهد فيها جيلنا على التفكير في قوة خارج الكرة الأرضية، كانت الغلبة للشمس، وأذن هذا بانتهاء سيطرتها الروحية، على أن الفجر والظهر والغسق ومدار منطقة البروج لم تؤثر جميعها لا في حياة الناس ولا في قلوبهم، وارتد العلم إلى الأرض ليركز جهده على القضايا التي يوقن من كسبها.

وتضايقت فاشتي عندما رأت بصيصاً من النور الوردي يغزو غرفتها، فحاولت أن تحكم إرخاء الستر، ولكن الستر ارتفع كله، وإذ ذاك رأت من الكوة سحباً وردية صغيرة تترجح تحت سقف أزرق، وكلما زحفت الشمس مصعدة إلى أعلى نفذ بهاؤها رأساً، مستفيضاً على سفح الجدار كأنه بحر ذهبي، وكان هذا يعلو ويهبط مع حركة السفينة، كما قد ترتفع الأمواج وتنخفض، ولكنه أخذ يتقدم رويداً رويداً كأنه المد، فكان عليها أن تلوذ بالحذر حتى لا يصفعها، وهزها تشنج الرعب فدقت الجرس في طلب الخادمة، وذعرت الخادمة كذلك ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً؛ لأن هذا خارج عن اختصاصها، وكان كل ما وسعها عمله هو أن تشير على السيدة باستبدال غرفتها، فعملت بمشورتها وتأهبت للتنفيذ.

ولقد كاد الناس أن يتمثلوا في العالم أجمع، ولكن خادمة سفينة الهواء تعدت المألوف بعض الشيء، بسبب واجباتها الاستثنائية، فداخل طباعها بعض الشذوذ... لقد اقتضتها واجباتها أن تخاطب الركبان مباشرة دون الاستعانة بآلة، فهيأ لها هذا نوعاً من الخشونة ومخالفة العرف، ومن ذلك أنها- عندما انحرفت فاشتيت صارخة لتتأى عن أشعة الشمس- تصرفت تصرفاً همجياً بأن وضعت عليها يدها لتهدئ من روعها.

فصرخت الراكبة: «ما أشد جرأتك! لقد نسيت نفسك!».

واستخزت المرأة واعتذرت عن عدم تركها إياها تسقط، فلقد درج الناس على ألا يمس بعضهم بعضاً على الإطلاق، وتقادمت العادة بفضل الآلة.

واستفهمت فاشتيت متعازمة: «أين نحن الآن؟».

فأجابت الخادمة مبتغية أن تتأدب: «نحن فوق آسيا».

- «آسيا؟».

- «أرجو أن تغفري لي أسلوبى الدارج في التكلم، فقد اكتسبت عادة

تسمية الأماكن- التي أمر فوقها- بأسمائها قبل عصر الآلة».

- «أوه، أذكر آسيا، لقد انحدر منها المغول».

- «تحتنا- في العراق- مدينة كنا نسميها سملا».

- «هل سمعت إطلاقاً بالمغول وبمدرسة برزبين؟».

- «كلا».

- «وبرزين أيضاً في العراء».

- «وتلك الجبال الواقعة إلى اليمين، دعيني أريك إياها»، ودفعت
الستر المعدني فانكشف أهم حلقة من سلسلة جبال الهملايا: «كانوا،
حيناً يسمون هذه الجبال سقف الدنيا».

- «ما أسخف الاسم!».

- «عليك أن تذكرني أنها- قبل بزوغ فجر المدينة- كانت تبدو
كالحائط الأصم يلامس النجوم، ولقد زعموا أن الآلهة وحدها هي التي
تستطيع أن تعيش فوق هذه الذرى، أما كيف تقدمنا فالفضل فيه للآلة!».
وقالت فاشتي: «أما كيف تقدمنا فالفضل فيه للآلة؟».

وردد الراكب الذي سقط منه الكتاب في الليلة الماضية، والذي كان
واقفاً في الممر: «أما كيف تقدمنا فالفضل فيه للآلة!».

- «وتلك المادة البيضاء التي في الشقوق؟ ما هي؟».

- «نسيت اسمها».

- «أرجوك أن تغطي النوافذ، فتلك الجبال لا توحى إليّ بأفكار
جديدة».

وكان وجه جبال الهملايا الشمالي في ظلام دامس، بينما انتشرت
الشمس لتوها على المنحدرات الهندية، ولقد أبيدت الغابات في أثناء
العصر الأدبي، وذلك لصنع لباب لورق الجرائد. غير أن الثلوج أخذت
تصحو استعداداً لبهاء الصباح، والسحاب لا يزال يتدلى على نهود
الكنشجنوجا. وفي السهل رأيت خرائب المدن، والأنهار المتضائلة

تزحف مجاورة حوائطها. وإلى جانب تلك كانت ترى أحياناً بعض معالم مراكز قذف الطائرات التي تشير إلى مدن هذا العصر، وتدافعت فوق المنظر جميعه سفن الهواء تعبر وتتقاطع في ثقة ذاتية لا تصدق، وترتفع متراخية كلما رغبت في تجنب اضطراب حركة السير بالهواء الجوي الأسفل كي تجتاز سقف الدنيا.

ورددت الخادمة بعد أن حجبت جبال الهملايا خلف الستر المعدنية: «لقد تقدمنا يقيناً، والفضل في ذلك للآلة».

وسار النهار إلى أمام متثاقلاً في كلال، وجلس الركبان، كل في غرفة منحنيين بعضهم بعضاً في ضجر يكاد يمتزج بدمائهم، يحدوهم الشوق من جديد إلى أن يعودوا تحت الأرض. وكانوا ثمانية أو عشرة - أغلبهم من شباب الذكور - أرسلوا من دور التربية العامة ليعيشوا في حجرات الذين ماتوا في أماكن شتى من الأرض، وكان الرجل الذي سقط منه الكتاب في سبيله إلى وطنه، وذلك بعد أن أوفد إلى سومطرة لتكثير الجنس، أما فاشتي فهي الوحيدة التي سافرت بمحض إرادتها.

وفي الظهيرة حذجت الأرض بنظرة ثانية، وكانت سفينة الهواء تعبر سلسلة جبال أخرى، ولكنها لم تتبينها كثيراً بسبب السحاب، وكانت تحوم تحتها كتل من الصخور السود انغمست في الغبش انغماساً مبهمًا، وكانت أشكالها خيالية، حتى إن إحداها شابه رجلاً منبطحًا.

قالت فاشتي: «لا أفكار جديدة» وحجبت القوفاز خلف ستر معدني.

وفي المساء أرسلت نظرة أخرى، وكانوا يحلقون فوق بحر ذهبي

ترقد فيه جزر صغيرة كثيرة وشبه جزيرة واحد.

وردت: «لا أفكار جديدة هنا» وحجبت بلاد اليونان خلف ستر معدني.

الجزء الثاني

جهاز الاستصلاح

توسلت فاشتي بدھليز ومصعد وبسكة حديد أنبوية وطوار وباب منزلق وبعكسها لمراحل رحلتها جميعاً، توسلت بهذا كله حتى بلغت حجرة ولدها التي شابهت حجرتها أيما شبه، وقد حدثتها نفسها بأن تجاهر بأن هذه الزيارة كانت نافلة لا تحتملها الضرورة، فالأضرار والأكر وقمطر القراءة الذي يعلوه الكتاب ودرجة الحرارة والهواء الجوي والإضاءة، كل أولئك يطابق نظائره في حجرتها تمام المطابقة. ولئن كان كونو نفسه - وهو من صلبها - قد وقف آخر الأمر إلى جوارها فأية فائدة من ذلك؟ فلقد بلغت من حسن التربية مبلغاً جعلها تمتنع عن وضع يدها في يده للسلام عليه.

حولت عنه بصرها ونطقت بما يلي:

- «هأنذي، قمت بأسوأ رحلة، وعوقت تطور روحي في معارج الارتقاء، وليس هناك ما يبرر هذا يا كونو، نعم ليس هناك ما يبرره، ووقتي أثمن من أن يضيع في شيء كهذا، ولقد كاد ضوء الشمس أن يمسني، ولقيت أزدل الناس، وما أستطيع البقاء أكثر من دقائق معدودات، فقل ما

ترغب في قوله وعليّ بعد ذلك أن أرجع».

قال كونو: «لقد هددت بالتشريد».

وإذ ذاك نظرت إليه.

- «لقد هددت بالتشريد، ولم أكن لأنبئك بشيء كهذا عن طريق الآلة».

والتشريد معناه الموت؛ لأن الضحية تعرض للهواء، وهو قاتلها.

- «منذ تحدثت إليك آخر مرة خرجت، ووقع الحدث العظيم،

وأحاطوا به علمًا».

فصاحت: «وما يمنعك من الخروج؟ إن زيارة الأرض لا تخالف اللوائح في شيء ولا تجافي قانون الآلة، وأنا خرجت أخيرًا وحاضرت عن البحر، ولا اعتراض على ذلك. وليس على المرء إلا أن يطلب جهاز تنفس ويحصل على رخصة بالخروج. نعم، ليس هذا من الأشياء التي يعتمد إليها الذين يفكرون تفكيرًا روحيًا، وقد توسلت إليك ألا تفعل، ولكن اللوائح لا تعترض على ذلك».

- «لم أحصل على رخصة بالخروج».

- «فكيف خرجت إذن؟».

- «استكشفت دربًا خاصًا فسلكته».

ولما لم تنقل إليها تلك العبارة أي معنى، كان عليه أن يعيدها عليها.

فهمست: «طريقًا خاصة؟ إن كنت فعلت هذا فأنت مخطئ».

- «لماذا؟».

وصدمها هذا السؤال صدمة تجاوز حد الوصف.

وقال في فتور: «لقد بدأت تعبدن الآلة وتظنين أنني خالفت الدين باستكشافي دربًا خاصًا، وهذا هو ما زعمته اللجنة تمامًا عندما هددتني بالتشريد».

غاضبا هذا فصاحت: «كلا، لست أعبد شيئاً! فأنا قد بلغت أبعد مراتب التقدم، ولست أتهمك بالخروج على الدين، فلم يبق هناك شيء اسمه الدين؛ لأن الآلة قضت على كل الخوف والخرافة الذي سيطر ردحًا من الدهر، وإنما رميت إلى استكشافك دربًا خاصًا كان... وإلى هذا فليست هناك دروب خاصة يتاح الخروج منها».

- «هذا هو الاعتقاد السائد».

- «إلا طريق مراكز القذف الذي لا يستطيع الخروج منها إلا بعد الحصول على ترخيص بالخروج، هكذا يقول الكتاب».

- «لقد أخطأ الكتاب؛ لأنني خرجت على قدمي».

ذلك أن كونو سيطر عليه نوع من قوة الجسد.

وكانت القوة في تلك الأيام قد أصبحت من عوامل النقص... يفحص عن كل الأطفال لدى ولادتهم ويباد منهم كل من يلوح عليه فيض من القوة. وقد يحتج المنتصرون للمثل الإنسانية، ولكن ليس من الشفقة الحق أن يسمح لمصارع بأن يحيا لأنه لن يجد السعادة إطلاقاً في ذلك الضرب من العيش الذي تنادي به الآلة، فلسوف يحن إلى أشجار يتسلقها، وأنهار يسبح فيها، ومروج وتلال يستعرض فيها قوة

جسده. هذا مع أن الإنسان قد فرض عليه أن يتكيف ليلائم بيئته. أليس كذلك؟ وإنه ليتحتم على الضعفاء في فجر دنياهم أن يعرضوا في جبل تايجيتاس^(١) وفي غسقها تكابد آذان الأقوياء من العبارة التي ما تنفك تعاد على أسماعهم دون انقطاع وهي: حتى تتقدم الآلة، حتى تتقدم الآلة، حتى تتقدم الآلة على الدوام.

- «وأنت تعلمين أننا فقدنا حاسة تقدير المسافات، ونحن نقول: «أفينا المسافة» إلا أننا في الواقع لم نفن المسافة نفسها وإنما أفينا المعنى الذي يرتبط بها، وبذلك فقدنا جزءاً من أنفسنا، فأزمنت على استعادته، وبدأت بالمشي ذهاباً وجيئة على طوار سكة الحديد خارج حجري، أخذت أسير وأعود حتى مللت، وبهذا استعدت معنى «قريب» و«بعيد»، فـ «القريب» هو المكان الذي يسعني بلوغه في وقت قصير على قدمي وليس هو المكان الذي ينقلني إليه القطار أو سفينة الهواء في وقت قصير. و«البعيد» هو المكان الذي لا يسعني بلوغه على قدمي في وقت قصير. ومركز قاذفات القنابل «بعيد» وإن استطعت - باستدعائي قطاراً - بلوغه في ٣٨ ثانية، فالرجل إذن هو المقياس، كان هذا أول درس: وقدا الإنسان مقياس المسافة، ويده مقياس الامتلاك، وجسده مقياس كل ما هو محبوب ومطلوب وقوي. ثم ذهبت إلى أبعد من ذلك، وإذ ذاك ناديتك أول مرة ولم ترغبي في الحضور إليّ.

وهذه المدينة - كما تعلمين - مبنية على عمق سحق تحت الأرض ولا تبرز منها إلا مراكز قذف الطائرات، وبعد أن قست الطوار خارج

(١) تايجيتاس: جبل في البيلوبونيز بالقرب من إسبرطة في بلاد اليونان.

حجرتي ركبت المصعد إلى الطوار الذي يعلوه وقسته كذلك، وهكذا وهكذا حتى بلغت الطوار الأعلى الذي فوقه تبدأ الأرض، وهذه الطوارات، كافة، متشابهة تمام الشبه، وقصارى ما كسبته هو إنما حاسة تقدير المسافة عندي وتربية عضلاتي. وأظن أن هذا كان حسبي - وهو ليس بالأمر البسيط - ولكن خطر لي فيما كنت أسير مفكرًا، أن مدائننا بنيت أيام كان الإنسان لا يزال يتنفس الهواء الخارجي وأنه كانت هناك أنابيب تهوية للعمال. وانحصر تفكيري في أنابيب التهوية تلك، فهل قضت عليها أنابيب الطعام وأنابيب الدواء وأنابيب الموسيقى التي استولدتها الآلة أخيرًا؟ أم ترى بقيت آثارها؟ على أن هناك أمرًا مؤكدًا وهو أنني إذا كنت صادفتها في أي مكان فهذا المكان هو أنفاق أعلى الطبقات، أما في غير هذا، فالأماكن كلها معروفة.

أنا أقص قصتي متعجلًا، ولكن لا تظني أنني لم أكن جبانًا أو أن إجاباتك لم تؤثر فيَّ إطلاقًا. إن ما فعلته ليس بالأمر الصائب ولا هو يطابق لوائح الآلة، وليس السير في محاذاة سكة حديد النفق مما يليق، وأنا لم أخش احتمال وطء قضيب متقد يودي بحياتي، وإنما خفت شيئًا آخر لا تدركه الحواس أبدًا، وهذا الشيء هو ارتكاب ما لم يدخل في حساب الآلة، وقلت لنفسي: «الرجل هو المقياس»، وذهبت، وبعد زيارات عديدة استكشفت فتحة.

- «وكانت الأنفاق مضاءة بطبيعة الحال، وكان كل شيء مضاءً إضاءة اصطناعية، والظلام هو الاستثناء.

ولهذا فإنني عندما رأيت فجوة سوداء بين قوالب القرميد عرفت أنها

استثناء وتهللت ابتهاجًا، ودست ذراعي فيها بعد أن تعذر ذلك أول الأمر، وأدركته في حماسة، المرة بعد المرة، وفككت قالبًا آخر، وأدخلت رأسي وزعقت في الظلام: «أنا آت، سأتم محاولتي بعد»، وتردد صوتي هابطًا ممرات لا نهاية لها. وخيل إليّ أنني أسمع أرواح أولئك العمال الذين كانوا يرجعون كل مساء على ضوء النجوم إلى زوجاتهم، وأن كل الأجيال التي كانت تعيش في الهواء الطلق تقول لي: «نعم، ستمها، وستأتي إلينا».

وتوقف لحظة، وهزها كلامه على سخفه؛ لأن كونو طلب في المدة الأخيرة أن يصبح أبًا ولكن اللجنة لم تجبه إلى طلبه بحجة أنه ليس من الصنف الذي ترغب الآلة في رعايته.

- «ثم مر قطار وقف بجواري، فغرزت رأسي وذراعي في الفجوة، وكنت قد فعلت ما يكفي يومًا ولذا زحفت عائداً إلى الطوار وهبطت بالمصعد واستدعيت فراشي، آه يا للأحلام! وطلبتك من جديد، ولكنك أبيت عليّ ذلك مرة أخرى».

فهزت رأسها وقالت: «اسكت لا تتكلم عن تلك الأشياء الفظيعة، فذلك يشقيني، إنك تطيح بالمدينة».

- «غير أنني استعدت حاسة تقدير المسافة، وفي مثل هذه الحالة ليس في وسع إنسان أن يهدأ، فأزمت ولوج الفجوة وصعود أنبوبة تجديد الهواء، ودربت ذراعي لهذا الغرض وأخذت، يومًا بعد يوم، أصنع حركات تدعو إلى السخرية حتى آلمني لحيي وحتى استطعت أن أعلق بيدي وأمسك بوسادة فراشي مبسوطة مدى دقائق عديدة، ثم

استدعيت جهاز تنفس وبدأت.

وكان الأمر ميسراً في أوله، فقد عطب الملاط (المونة) على صورة ما، فما لبثت أن دفعت إلى الداخل بعض قوالب الآجر وتسقلت وراءها في الظلام، وواستني أرواح الموتى. أنا لا أدري فحوى هذا وإنما أعبر عن إحساسي ليس إلا. استشعرت - أول مرة - أن احتجاجاً على الرشوة قد أودع وأُنني كنت أواسي من لم يولد بعد حتى وقتما كان الموتى يواسونني. أحسست أن الإنسانية باقية وأنها موجودة في غير كساء. فكيف أقدر على شرح هذا؟ لقد كانت الإنسانية عارية.. يلوح أن الإنسانية عارية وأن هذه الأنابيب والأزرار والعدد جميعاً لم تصحبنا في حضورنا إلى الدنيا ولن تتبعنا في خروجنا منها، وأنه ليس لها من هدف أسمى من حياتنا، ولو كنت قوياً لمزقت كل كساء لديّ ولخرجت في الهواء عارياً. ولكن شيئاً كهذا لن يتسنى لي وقد لا يتسنى لجيلي. وصعدت بجهاز التنفس وبملابسي الصحية وبأقراص التغذية الطبية! وكان هذا خيراً من عدم وجود شيء معي على الإطلاق.

ووجدت هناك سلماً مصنوعاً من معدن من معادن العصور الأولى يقع نور سكة الحديد على درجاته السفلى، ورأيت أنه يؤدي مباشرة إلى مكان علوي خارج الأنقاض التي في قاع قصبة تجديد الهواء. وربما كان أسلافي - في مدة بناء هذه القصبة - يجرون فوقه، مصعدين منحدرين، في كل يوم عشر مرات أو تزيد. وفيما كنت أتسلق قطعت حواشيها الخشنة قفازي وأدمت يدي، وأسعفني النور قليلاً ثم حل الظلام، وحل ما هو أسوأ منه وهو السكون الذي نفذ في أذني كما قد ينفذ السيف.

وللآلة مهمة! فهل عرفتها؟ ألا إن مهمتها لتغلغل في دماننا وتؤثر
فيها إلى حد أنها قد توجه أفكارنا. ومن يدري؟ فقد أخذت أخرج على
سلطانها»، وضحك قائلاً: «ثم دار في خلدي أن هذا السكون يعني أنني
خاطئ فيما أعمل، غير أنني سمعت في السكون أصواتاً بعثت في القوة
من جديد، وكنت في حاجة إليها. وفي اللحظة التي تلت ذلك اصطدم
رأسي بشيء ما وسمع له صوت كالطقطقة».

فتنهدت.

«وبلغت إحدى تلك السدادات النيوماتيكية التي تقينا الهواء
الخارجي، وربما تكونين قد لاحظتها في سفينة الهواء، ولست أستطيع أن
أشرح كيف عشت في تلك المرحلة في ظلام حالك كالزفت مع وجود
قدمي على درجات سلم غير مرئي ومع جرح يدي، غير أن الأصوات
ظلت تواسيني وشعرت بالحاجة إلى وثاق. وكان عرض السداة فيما
أظن يناهز الثمانية الأقدام، وقد أمررت يدي عليها قدر ما وصلت إليه
كفي، فوجدتها ملساء تماماً، تحسستها إلى ما يقرب من وسطها ولكني
لم أبلغه لأن ذراعي تقصر دون هذا، ثم نادى الصوت: اقفز فالأمر
يستأهل، وقد يكون في الوسط مقبض وقد تستطيع التعلق به والمجيء
إلينا بوضعك الخاص. وإذا لم يكن هناك مقبض سقطت واصطدمت
وتحطمت كسفًا - لهذا السبب - فالأمر يستأهل أيضاً؛ لأنك ستجيء إلينا
مع ذلك بوضعك الخاص، وعلى هذا قفزت، وكان هناك مقبض ف...».

وتوقف عن الكلام، وتزاحمت الدموع في عيني أمه، علماً بأن موته
محتوم - فهو إن لم يمت اليوم مائت غداً - وبأنه لا مكان في الدنيا لمثله،

وخالط نفورها منه إشفاقها عليه، واستحت من أنها ولدت ابناً كهذا وهي التي كانت على الدوام جد محترمة تفعمها الأفكار، أهذا حقاً هو الولد الصغير الذي علمته ممارسة سداداته وأزواره والذي لقنته الدروس الأولى التي في الكتاب؟ على أن الشعر الذي يعيب شفته ليدل بذاته على أنه أخذ يرتد إلى طراز من الأجناس الهمجية، والآلة لا ترحم الناس في حالات الارتداد إلى الأسلاف.

«وحدث أن كان هناك مقبض وأمسكته فعلاً، وتعلقت به مذهولاً فوق الظلام، وسمعت همهمة الآلات كأنها آخر همسات حلم أخذ يهمد، وبدالي أن كل الأشياء التي آبه لها والناس الذين كلمتهم مستعيناً بالقصب، بدا لي أنهم قليل عددهم إلى حد بعيد، وفي غضون ذلك دار المقبض لأن ثقلي قد حرك شيئاً، ودومت مستأنياً، ثم....»

لست أستطيع وصف ما حدث... كنت مستلقياً متجه الوجه إلى ضوء الشمس، وتصبب الدم من أنفي وأذني، وسمعت قصفاً عجاجاً، فالسدادة- وأنا عالق بها- نفخت خارج الأرض نفخاً، فأخذ الهواء الذي نضعه هنا- تحت- يتسرب من المنفذ إلى الهواء العلوي، وانبجس إلى علٍ كالنافورة، فزحفت راجعاً إليه لأن الهواء العلوي مؤذ، ورشفت منه رشفات كبيرة، إذ إن جهاز التنفس الذي كان معي طار إلى حيث لا يعلم أحد، وتمزقت ملابسي ولم يسعني إلا الرقاد بالقرب من الفتحة، وظللت أرشف حتى توقف النزف. ولن تستطيعي تصور شيء في مثل هذه الدرجة من الغرابة: تلك الفتحة التي في الكلاء، وإني محدثك عنها بعد لحظة... ولمعان الشمس فيها، لا في إشراق ولكن من خلال سحب

مرمرية... والأمان... والاسترخاء... وحاسة تقدير المسافات... والهدف على خدي... الذي تبعته نافورة هوائنا الصناعي الهادرة! ثم استطلعت على عجل جهاز التنفس يتذبذب صعودًا وهبوطًا في التيار الذي كان يعلو رأسي كثيرًا، وفوق علو أبعد، كان يطير عدد كبير من سفن الهواء، إلا أن أحدًا لم يكن يطل منها، وعلى أية حال فإنها لم تكن لتستطيع أن تلتقني، فلقد جنحت هناك، ثم إن الشمس لم تلمع تحت أنبوبة تجديد الهواء إلا إلى مسافة قصيرة، وقد أبانت عن أعلى عوارض السلم، ولم يكن ثمة أمل في محاولة بلوغي إياها، ولو فعلت لكدف بي من الفتحة أو لوقعت - تحت - ومت. فلم يسعني إذن إلا الرقاد على الكلاء ومداومة الرشف وإلا النظر حولي بين الحين والحين.

عرفت أنني في وسكس لأنني كنت قبل بدء الرحلة عنيت بالاستماع إلى محاضرة عن الموضوع، ووسكس تقع فوق الحجرة التي نتحدث فيها الآن، وكانت يومًا دولة ذات شأن، يحكم ملوكها الشاطئ الجنوبي جميعًا من أندردز وولد إلى كورنول، بينما كان آل فانسديك يحمون ذمارهم من الشمال الممتد فوق الأرض العالية. وقد قصر المحاضر كلامه عن دولة وسكس فلم أعرف إلى متى ظلت قوة دولية. على أن معرفة ذلك ما كانت لتسعفني. والحق أنني في هذه المرحلة لم أستطع غير الضحك، إذ كان هناك: أنا، والسدادة النيوماتيكية إلى جانبي، وجهاز التنفس يتذبذب فوق رأسي وكنا نحن الثلاثة محبوسين في فجوة يكسوها الكلاء ويحف بها نبات الخنشار».

ثم تجهم ثانية.

«ومن حسن حظي أنها كانت فجوة؛ لأن الهواء أخذ يهبط من جديد ويملؤها كما قد يملأ الماء الطاس. وكان من الميسور أن أزحف حولي، ولكنني إذ ذاك وقفت، وصرت أتنفس مزيجًا يغلب فيه الهواء المؤذي كلما جهدت في تسلق الجوانب، ولم يكن موقعي هذا بالغ السوء، فأنا لم أفقد أقراصي، وظللت مبتهجًا على صورة تثير الضحك. أما الآلة فقد نسيتها كل النسيان لأنني لم أستهدف في تلك اللحظة غير بلوغ القمة حيث كان الخنشار، وغير رؤية كل ما قد يكون هناك من أشياء.

واندفعت أصعد المنحدرات، وكان الهواء الجديد ما زال شديد المرارة بالنسبة لي، وعدت متدحرجًا إلى خلف بعدما رأيت - برهة يسيرة - شيئًا آخر، ووهنت الشمس، وتذكرت أنها وقتئذ في سكوربيو، فقد كنت استمعت أيضًا إلى محاضرة عن هذا، وإذا كانت الشمس في سكوربيو وكنت أنت في وسكس فمعنى هذا أنه ينبغي لك أن تسرع ما وسعك الإسراع، وإلا دهمك الظلام. (وهذه أول معلومة نافعة أفدتها من أية محاضرة على الإطلاق، وقد تكون الأخيرة)، وحدثني هذه المحاضرة إلى بذل جهد يقرب من الهوس، لتنفس الهواء الجديد، وإلى التقدم - قدر ما تسعفني به جرأتي - في الخروج من بركتي، وكانت الفجوة تمتلئ رويدًا رويدًا حتى خلت أن النافورة أمست أقل قوة في قذفها، وبدا أن جهاز التنفس يتراقص على علو هو أقرب ما يكون إلى الأرض، كما أن الهدير أخذ يتناقص».

ثم انقطع لحظة.

«ولا أظن أن هذا يسترعى اهتمامك، ولعلك أقل اهتمامًا بما بقي

إذ ليست فيه أفكار، وكم كنت أتمنى ألا أتعبك في الحضور، فنحن مختلفان يا أماء».

وطلبت إليه أن يستمر.

«وحل المساء قبل أن أصدع الجرف، وإذ ذاك كادت الشمس أن تفلت من السماء، فلم أحسن الرؤية، وأنت يا من فرغت تَوًّا من عبور سقف الدنيا ما تودين أن تستمعي إلى بيان عما رأيته من تلال صغيرة، تلال واطئة لا لون لها، ولكنني كنت أحسب أنها على قيد الحياة، وأن العشب الذي يغطيها جلد تتموج تحته العضلات، وأن تلك التلال تنادي الغابرين من بني الإنسان في قوة لا تدخل تحت حصر، وأن الناس قد أحبوها. أما الآن فهي في سبات قد يمتد أبد الأبد. ألا إنها لتشارك الإنسانية أحلامها، فطوبى للرجل الذي يوقظ جبال وسكس أو طوبى للمرأة التي تفعل هذا. إن هذي التلال تنام ولكنها مع ذلك لن تموت».

وعلا صوته منفعلًا وهو يقول:

«ألا تستطيعين أن تري - أو لا يستطيع محاضروك أن يروا - أننا نحن الذين نهلك وأن الشيء الوحيد الذي يعيش حقًا هنا، تحت، إنما هو الآلة. لقد خلقنا الآلة لكي تنفذ مشيئتنا، ولكننا الآن لا نستطيع دفعها إلى تنفيذ تلك المشيئة؛ فلقد سلبتنا حاسة تقدير المسافة ولوثت كل العلائق الإنسانية وهبطت بالحب إلى مرتبة العمل البهيمي وعطلت منا الجسد والإرادة، وهي الآن تكرهنا على عبادتها، وهي تتطور ولكن على غير ما نرسمه لها، وهي تسير قدمًا ولكن لا إلى أهدافنا، ونحن موجودون فقط مثل كرات الدم التي تجري في شرايينها، ولو أمكن أن تعمل بدوننا

لتركنا نموت. أوه، لا علاج عندي، أو عندي علاج وحيد وهو أن أنبئ الناس مرارًا وتكرارًا أنني رأيت تلال وسكس كما رآها ألفرد^(١) عندما طرد الدنماركيين.

وهكذا غربت الشمس، ولقد نسيت أن أخبرك أن نطاقًا من الضباب المنخفض وجد بين تلي والتلال الأخرى وأنه كان لؤلؤي اللون.

وانقطع عن الكلام للمرة الثانية.

فقال أمه متضجرة: «امض في حديثك».

فهز رأسه.

- «امض في حديثك، فلا شيء مما تقول يمكن أن يحزنني الآن لأن قلبي قد قسا».

- «أردت أن أنبئك بما بقي ولكني لا أقدر على ذلك، نعم أنا أعرف أنني لا أقدر عليه، فوداعًا».

ووقفت فاشتي حائرة لأن كفره خدر أعصابها جميعًا، ولكنها إلى ذلك تملكها الفضول.

وشكت قائلة: «أنت لم تنصفي، لقد جئت بي عبر الدنيا لأسمع قصتك وإني لسامعتها. خبرني في غاية ما يسعك من إيجاز لأن هذه مضیعة للوقت تجلب النوائب، خبرني كيف رجعت إلى المدينة».

فانطلق يقول: «إنك - يقينًا - تودين أن تسمعي شيئًا عن المدينة، فهل كنت وصلت إلى حيث سقط جهاز تنفسي؟».

(١) ألفرد الكبير (٨٤٩ - ٩٠١) أشهر الملوك الأنجلوسكسونيين، وهو مؤسس جامعة أكسفورد.

- «كلا، ولكنني أدرك كل شيء الآن: لبست جهاز التنفس واستطعت أن تمشي على طول سطح الأرض حتى بلغت مركزاً من مراكز قذف الطائرات، أبلغوا اللجنة المركزية ما اقترفت».

- «لا لا، مطلقاً».

وأمرّ يده على جبهته كأنما يصرف انطباعاً قوية، ثم أجمل قصته واستعاد ذكراها من جديد.

- «سقط جهاز التنفس حوالي وقت الغروب، ولقد سبق أن ذكرت أن النافورة بدت أقل في قوة القذف. أليس كذلك؟».

- «أجل».

وحوالي الغروب تركت جهاز التنفس يسقط، ونسيت تماماً كل شيء عن الآلة - كما سبق القول - ولم أعرها التفاتاً كبيراً لأنني انشغلت بأشياء أخرى. كان لدي حوض الهواء الذي غطست فيه كلما صارت الحدة الخارجية غير محتملة، والذي يمكن بقاءه أياماً إذا لم تهب ريح تبدده. ولم أدرك - إلا بعد أن تأخر الوقت - فحوى إعاقة الهرب، فقد استصلحت الثغرة التي حدثت في النفق، أي: جهاز الاستصلاح، أي أن جهاز الاستصلاح جاء في إثري.

وقد تلقيت إنذاراً آخر ولكنني لم آبه له، أمست السماء ليلاً أصفى مما أضحت نهاراً بينما لمع القمر - الذي كاد أن يتوسط السماء خلف الشمس - في الوهدة لمعاً بالغ البهاء في بعض الأحيان. وكنت في مكاني المعتاد - وهو الحد بين الهواءين الجويين - وقتما زعمت أنني

رأيت شيئاً قاتمًا تحرك عبر قاع الوهدة ثم اختفى في أنبوبة تجديد الهواء، فهبطت جاريًا في رعونة، وانثنت، وخيل إليّ أنني سمعت ضوضاء خافتة تجري في الأعماق.

وعندئذ - وإن تأخر الوقت - تنبّهت، وأزمعت أن ألبس جهاز التنفس وأن أمشي رأسًا إلى الهوة، ولكن هذا الجهاز ذهب، وعرفت بالضبط أين سقط - بين السدادة والفتحة - حتى إنني استطعت أن أتحسس الأثر الذي تركه في الكلاء، فلما ذهب الجهاز أدركت أنني أوشك أن أقع في مكروه وأن الإفلات إلى الهواء الآخر خير لي، وإذا لم يكن من الموت بد فلأمت جاريًا صوب السحاب الذي كان لؤلؤي اللون، ولم أبدأ قط. وقد خرج من أنبوبة تجديد الهواء شيء بالغ الفظاعة، فلقد زحفت منها دودة، دودة طويلة بيضاء، وأخذت تنسل فوق الكلاء الواقع تحت ضوء القمر.

فصرخت وصنعت كل ما كان ينبغي لي ألا أصنع، دست هذه المخلوقة بدلًا من الهرب منها، فالتفت من فورها حول رسغي، وتعاركنا، وتركتني الدودة أعدو في كل مكان من الهوة، ثم حفّت برجلي إذ كنت أجري فصرخت: «النجدة!» (هذا الجزء مخيف جدًّا وهو من المرحلة التي لن تعرفيها أبدًا) فصرخت: «النجدة!» (ولكن لماذا لا نقوى على المكابرة صامتين؟)، وعدت فصرخت: «النجدة!» ثم لويت رجليّ الواحدة على الأخرى، وسقطت، وسحبت من فوق نبات الخنشار العزيز ومن التلال التي على قيد الحياة ومررت بالسدادة المعدنية الكبيرة (ويمكنني أن أحدثك عن هذه الرحلة)، وفكرت في أنها قد تجدني مرة أخرى إذا أمسكت بالمقبض، وكانت ملفوفة هي الأخرى. أوه، كم

كانت الهوة جميعاً تملؤها الأشياء، وكانوا يفتشونها من كل مناحيها، ويعرونها، وأطلت الخراطيم البيضاء لمخلوقات أخرى تطل من الخرق متأهبة لوقت الحاجة إليها، وكل ما يمكن تحريكه أحضره كأغصان الخنشار المبتورة وغيرها، ووصلنا جميعاً إلى الجحيم متشابكين، وكان آخر ما رأيته - قبل إقفال السدادة من خلفنا - نجوم معينة، وشعرت أن رجلاً على شاكليتي يعيش في السماء؛ لأنني جاهدت فعلاً، جاهدت إلى آخر النهاية، ولم أنبته إلا عندما اصطدم رأسي بالسلم، تلاشى الدود، ووجدتني وسط الهواء الصناعي، والضوء الصناعي، والهدوء الصناعي يناديني أصدقائي مستعينين بقصب الكلام ليعلموا هل عثرت على أفكار جديدة في المدة الأخيرة.

وهنا انتهت قصته. وكان الجدل في موضوعها متعذراً، واستدارت فاشتي لتصرف.

وقالت في هدوء: «سيتتهي الأمر بتشريك».

فأجاب كونو: «ليت ذلك يحدث».

- «لقد كانت الآلة رحيمة جداً».

- «أوثر رحمة الله».

- «هل تعني بهذه العبارة (الخرافية) أن في وسعك العيش في الهواء

الخارجي؟».

- «نعم».

- «ألم تر قط، حول مراكز قذف الطائرات عظام أولئك الذين رموا

بعد العصيان الكبير؟».

- «أجل».

- «لقد تركوا يهلكون من أجل تهدينا، وزحف بعضهم بعيداً ولكنه هلك كذلك، ومن ذا الذي يستطيع أن يماري في هذا؟ ومثل هذا جزاء المتشردين في أيامنا هذه، فسطح الأرض لم يعد يحتمل الحياة».

- «فعلاً».

- «قد يعيش الخنشار وبعض الكلا ولكن كل ما هو أرقى من ذلك مقضي عليه بالهلاك، هل كشفتهم أية سفينة هواء؟».

- «كلا».

- «هل ألقيت أية محاضرة في صددهم؟».

- «كلا».

- «ففيما إذن هذا التصلب في الرأي؟».

فانفجر قائلاً: «لأنني رأيته».

- «رأيت ماذا؟».

- «لأنني رأيته وقت الغسق، إذ خفت لنجدتي عندما ناديت، وقد كانت هي الأخرى، تشابك مع الدود، وفاق حظها حظي لأن دودة وخزت حلقها، وقضت عليها».

لقد جن، وانصرفت فاشتي، ولم تر وجهه قط في الاضطرابات التي تلت.

الجزء الثالث

الشريد

وفي خلال الأعوام التي تلت إفلات كونو، منيت الآلة بتطورين هامين ثوريين في مظهرهما، وإن مهدت لهما قبلاً عقول الناس بحيث لا يعبران إلا عن رغبات كامنة.

التطور الأول إلغاء أجهزة التنفس.

وكان المفكرون المتنورون، أمثال فاشتي، يرون أن في زيارة سطح الأرض حماقة. نعم، قد تكون سفن الهواء ضرورية ولكن ماذا يجدي الخروج لمجرد إشباع الفضول والزحف ميلاً أو ميلين في محرك آلي دنيوي؟ فتلك عادة سوقية وقد تعد غير لائقة هوناً ما؛ لأنها عقيم لا تلد أفكاراً ولا تمت بصلة إلى العادات التي يؤبه لها. وهكذا ألغيت أجهزة التنفس ومعها بالطبع المحركات الآلية الدنيوية. وقد تقبلوا هذا التطور في هدوء اللهم إلا نفرًا قليلاً من المحاضرين الذين اشتكوا من أنهم قد حيل بينهم وبين جمع البيانات عن موضوعاتهم. أما أولئك الذين ظلوا يرغبون في معرفة شكل الأرض فلم يكن عليهم، والحالة هذه، إلا أن ينظروا إلى جهاز السينما، وحتى هؤلاء المحاضرون أذعنوا عندما وجدوا أن محاضرة عن البحر لم يقل تأثيرها وهي مستندة إلى ما جمعته من محاضرات أخرى في الموضوع ذاته، فقد هتف واحد من أرقاهم: «احذر الأفكار المبتكرة! فالأفكار المبتكرة ليس لها وجود حقيقي، وما

هي إلا انطباعات جسدية مبعثها الحب أو الخوف. ومن ذا الذي يسعه - على هذا الأساس غير المكتمل - أن يقيم فلسفة، فحسبك الأفكار المنقولة عمن سبقك. وليكن النقل - إذا استطعت - عن مصدر قد يتابع تسلسله عن سابقه عشر مرات؛ لأنك بذلك تباعد كثيرًا بينها وبين ذلك العنصر المقلق ألا وهو المشاهدة المباشرة. وعلى سبيل المثال: لا تحفظ شيئًا عن موضوع (الثورة الفرنسية) ولكن احفظ بدلًا عنه ما أظن أنا من أن إنييتشارمون ظن أن يورايزن ظن أن جوتش ظن أن هويانج ظن أن شيبوسنج ظن أن لافكاديوهيرن ظن أن كارليل ظن أن ميرابو قاله عن الثورة الفرنسية. فإن الدم الذي أريق في باريس والنوافذ التي حطمت في فرساي ستبلور - بعد توسط هذه العقول العشرة الكبيرة - في فكرة قد تفيد منها كثيرًا في حياتك اليومية. ولكن كن على يقين من أن المصادر عديدة منوعة، والمصدر الوثيق في التاريخ إنما يوجد ليعارض مصدرًا آخر. فيورايزن يجب أن يعارض شكوك هويانج وإنييتشارمون، وأنا يجب أن أعارض حدة جولش. وأنت - يا من تستمع إليّ - أنت في موقف يفضل موقعي للحكم على الثورة الفرنسية. وستكون سلاتك في موقف يفضل موقفك، ذلك لأنك ستعرف ما أظن أنني أظنه، وسيضاف - بعد - إلى السلسلة وسيط جديد، ثم ارتفع صوته قائلاً: «وفي الوقت المناسب سيأتي جيل لا تؤثر فيه الوقائع أو الانطباعات، جيل لا لون له إطلاقًا، جيل «مظهر من شائبة الشخصية طهارة الملائكة» يرى الثورة الفرنسية، لا كما حدثت ولا كما كان يود لها أن تحدث، بل كما كانت تحدث لو أنها قامت في عصر الآلة».

وقد قوبلت هذه المحاضرة باستحسان عظيم لأنها عبرت عن شعور يكمن فعلاً في عقول الناس، شعور بأن الحقائق الدنيوية يجب إنكارها، كما عبرت عن أن إلغاء أجهزة التنفس كسب لا شك فيه. وقد قدمت اقتراحات حتى بإلغاء سفن الهواء أيضاً، ولم ينفذ هذا لأن سفن الهواء قد أدمجت نفسها في نظام سير الآلة، على صورة ما، غير أن استعمالها أخذ يقل سنة بعد سنة كما أن المفكرين أخذوا يقللون من ذكرها.

أما التطور العظيم الثاني فكان العود إلى التمكين للدين، وهذا ما جاهر به أيضاً المفكرون الذائعو الصيت، وقد قدر الجميع الأسلوب الوقور الذي انتهى به حسن الختام والذي أيقظ في كل امرئ روح الاستجابة. فما كان من أولئك الذين عبدوا في سكون إلا أن بدأوا في الكلام. ووصفوا شعور السلام العجيب الذي يرفرف عليهم كلما استعملوا كتاب الآلة واستشعروا الرضى الذي بداخلهم كلما رددوا منه أرقاماً معينة على قلة ما تنقله تلك الأرقام إلى الأذان الموجهة إلى الخارج من معان ومدلولات، كما وصفوا النشوة التي تملكهم كلما لمسوا زراً ولو قلت أهميته، أو كلما دقوا جرساً كهريئاً كيفما قلت الحاجة إليه.

وهتفوا: «الآلة تطعمنا وتكسوننا وتؤوينا، وعن طريقها يتحدث كل منا إلى الآخرين ويرى بعضنا بعضاً، وفيها وجودنا، وهي تصادق الأفكار وتعادي الخرافة، ولها القدرة والدوام ومنها البركة، وقد طبعت هذه العبارة - قبل أن ينقضي وقت طويل - في أول صفحات الكتاب، وفي الطبعات اللاحقة تضخم هذا الشعار حتى صار سلسلة معقدة من التسبيح والابتهاال. أما كلمة «الدين» فقد اجتنبوا في مواظبة وإصرار.

وقد بقيت الآلة، من الناحية النظرية، خلقة الرجل وأداته، ولكنها من الناحية العملية معبودة الجميع عدا نفر قليل من الرجعيين. على أنه لم يكن هناك توحيد في العبادة، فمؤمن تؤثر فيه بصفة خاصة أقراس الإبصار الزرقاء التي يرى بها غيره من المؤمنين. وثان يسيطر على إحساسه جهاز الاستصلاح الذي شبهه بالدود كونو الآثم. وثالث يأبه للمصاعد، ورابع يتأثر بالكتاب، ويصلي كل منهم لهذا أو ذلك مبتهلاً أن يشفع له عند الآلة بوصفها كلاً. والاضطهاد الديني موجود أيضاً، ولكنه لم يتفش للأسباب التي ستقدم بعد قليل. غير أنه مضمهر حتى إن جميع من لم يعترفوا بالحد الأدنى المعروف بـ «الآلة غير الطائفية» كانوا يعيشون تتهددهم عقوبة التشريد الذي يعني الموت كما تعلم.

وعزو هذين التطورين إلى اللجنة المركزية يعد نظراً إلى المدنية من أضيق زواياها. صحيح أن أعضاء اللجنة المركزية هم الذين أذاعوا نبأ التطورات ولكنهم لم يسببوا بأكثر مما سبب الحرب ملوك عهد التوسع الإمبراطوري. والأقرب إلى الحقيقة أنهم أذعنوا إلى ضرب من الضغط لا سبيل إلى قهره أتى من حيث لا يعلم أحد، ولما بلغ الضغط غايته جاء في أثره ضغط جديد لا سبيل إلى قهره كذلك، ومن الملائم أن نسمي مثل هذه الحال تقدماً. ولم يعترف أحد بأن الناس فقدوا السيطرة على الآلة، فلقد كانوا يخدمونها- عامًا بعد عام- في فاعلية متزايدة وذكاء متناقص. وكانت معرفتهم بواجباتهم نحو جيرانهم تتناقص بقدر تزايد معرفتهم بواجباتهم نحو الآلة. ولم يوجد في الدنيا قاطبة من فهم الكائن الجبار على أنه وحدة؛ لأن تلك العقول المسيطرة قد بادت. على أنها-

في الحق- قد تركت إرشادات مكتملة، ولكن خلفاءهم أتقن كل منهم طائفة من تلك الإرشادات. غير أن الإنسانية- وهي ترغب في توفير الراحة- جاوزت أغراضها وبالغت في استغلال ثروة الطبيعة، ولهذا أخذت تعزق في حمأة التدهور في هدوء ورضى وأصبح التقدم يعني تقدم الآلة.

أما فاشتي فقد ظلت حياتها تتقدم في سلام، إلى أن حلت الكارثة الأخيرة، أطفأت أنوار حجرتها ونامت، واستيقظت وأضاءتها، وحاضرت واستمعت إلى محاضرات، وتبادلت وأصدقاءها العديدين أفكارًا، واعتقدت أن روحانيتها آخذة في التقدم، وبين الفينة والفينة كان أحد الأصدقاء يمنح حق الانتحار تخلصًا من العذاب ويترك حجرتة- أو تترك حجرتها- للمشرد الذي جفاه كل تفكير إنساني. ولم تكن فاشتي تأبه لهذا كثيرًا، بل كانت في بعض الأحيان، بعد محاضرة مخففة، تطلب لنفسها حق الانتحار تخلصًا من العذاب، غير أن نسبة الوفيات لم يسمح لها أن تربو على نسبة المواليد، فكانت الآلة- حتى ذاك الوقت- تنكر عليها هذا الطلب.

وفي هدوء بدأت المتاعب قبل أن تتنبه لها بوقت طويل:

عجبت يومًا إذ تسلمت رسالة من ولدها، ولم يكن أحدهما يتصل بالآخر إذ لم يكن بينهما وازع مشترك، وقد سمعت، عن طريق غير مباشر، أنه على قيد الحياة وأنه نقل من نصف الكرة الشمالي- حيث تصرف تصرفات شريرة- إلى نصفها الجنوبي في حجرة لا تبعد كثيرًا عن حجرتها.

وفكرت: «أريدني على أن أزوره؟ لن أفعل قط، أبدًا أبدًا، ثم إن وقتي لا يتسع لذلك».

لا، لقد كان جنونًا من نوع آخر..

لقد أبى أن يظهر صورة وجهه على القرص الأزرق، وتكلم من خارج الظلام في خشوع قائلاً:

- «الآلة تتوقف».

- «ما تقول؟».

- «الآلة تتوقف، إنني أعرفها وأعرف مقدمات توقفها».

فانفجرت مقهقهة، وسمعها كونو وغضب، وانقطع الحديث إلى غير رجعة.

وصاحت تقول لإحدى صديقاتها: «هل يسعك أن تتصوري شيئاً أسخف من هذا؟ رجل - كان ولدي - يعتقد بأن الآلة تتوقف... هذا إلحاد.. هذا جنون».

فأجابت صديقتها: «الآلة تتوقف؟ ما معنى هذا؟ هذه العبارة لا تنقل إليّ أي معنى».

- «ولا إليّ».

- «لا أظنه يشير إلى الاضطرابات التي حدثت أخيراً في الموسيقى».

- «هل شكوت إلى السلطات؟».

- «نعم، فقالوا إنها في حاجة إلى استصلاح، وحولوني على

لجنة استصلاح الجهاز.. فشكوت من تلك الأنات اللاهثة التي تشوه سيمفونيات (إيقاعات) مدرسة برزبين فتجعلها كتأوهات المتألم، فقالت لجنة الاستصلاح إنها ستعالج الجهاز عما قريب».

وانزعجت انزعاجًا خفيًا واستأنفت حياتها، أولًا؛ لأن خلل الموسيقى يضايقها، وثانيًا؛ لأنها لم تستطع أن تنسى كلام كونو. ولو علم قبلًا أن جهاز الموسيقى غير مستصلح - وهو لم يكن ليعرف ذلك لأنه يكره الموسيقى - ولو علم أن بها خللاً فإن عبارة «الآلة تتوقف» هي بالضبط النوع من الملاحظات الآفكة التي تفوه بها، وقد تفوه بها جزافًا بطبيعة الحال. ولكن ضايقها حدوث ذلك اتفاقًا فخاطبت لجنة استصلاح الجهاز في شيء من المشاكسة.

فأجابت - كما أجابت قبلًا - بأن العيب سيستصلح عما قريب. فردت بقولها: «عما قريب! في الحال! ولماذا أترك حتى أضيق بالموسيقى المعيبة؟ وقد جرت العادة باستصلاح الأشياء على الفور، فإذا لم تصلحوها حالًا شكوت إلى اللجنة المركزية». فأجابت لجنة استصلاح الجهاز بقولها: «اللجنة المركزية لا تتلقى الشكاوى من أصحابها رأسًا».

- «فعن طريق من إذن يكون لي أن أتقدم بشكواي؟».

- «عن طريقنا».

- «إذن فأنا شاكية».

- «ستقدم شكواك عندما يجيء دورها».

- «وهل شكا آخرون؟».

وكان السؤال مخالفاً للوائح الآلة، فأبّت لجنة استصلاح الجهاز أن تجيب عنه.

وهتفت فاشتى بأخرى من صديقاتها: «هذا سيئ إلى حد بعيد! لم تبلغ قط امرأة ما بلغت من سوء الحظ، إذ ليس يمكنني أبداً أن أطمئن إلى سلامة موسيقي، وكلما استدعيتها انتقلت من سيئ إلى أسوأ».

فأجابت الصديقة: «لديّ متاعبي أنا أيضاً؛ لأن أفكاري تعترضها أحياناً ضوضاء مرتجة».

- «وما تلك؟».

- «لست أدري أفي داخل رأسي هي أم في داخل الجدار؟».

- «قدمي شكواك في الحاليين».

- «وتقدمت بشكواي، وسترسل في دورها إلى اللجنة المركزية».

- «ومر الوقت، ولم تعد تستنكر العيوب، لم تعالج العيوب ولكن نسيج أجساد الناس، في ذلك اليوم الأخير، أخضعت بحيث تطوع نفسها لكل أهواء الآلة. ولم تعد الأنات التي تأزمت بسببها سيمفونيات مدرسة برزبين تضايق فاشتى؛ لأنها تقبلتها على أنها جزء من الإيقاع. وكذلك لم يعد يضايق صديقاتها الضوضاء المرتجة، في رأسها كانت أو في الجدار. وقس على هذا الفواكه الصناعية المتعفنة، وماء الحمام الذي أخذت رائحته تخبث، والقوافي المعيبة التي أخذت آلة الشعر تصدرها. فلقد تقدمت في صدها شكواي مرة في البداية ثم أذعن الناس ونسوا.

وأخذت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، من دون أن يعترض على ذلك معترض.

أما خيبة جهاز النوم فكانت على غرار آخر إذ كان عطله أفدح، فلقد أتى حين من الدهر في العالم أجمع - في سومطرة وفي وسكس وفي مدائن فوق الحصر في كورتلند والبرازيل - فيه يطلب الأسرة أصحابها المتعبون فتعجز عن الظهور، وقد يبدو أن هذا الأمر مما يبعث على الضحك، ولكننا من بدء حدوثه نستطيع أن نؤرخ لتدهور الإنسانية، فلقد هاجمت الشكايات اللجنة المسؤولة عن التعطل فحولتها كالمعتاد على لجنة استصلاح الجهاز التي أكدت بدورها بأن تلك الشكايات ستقدم إلى اللجنة المركزية، غير أن التبرم أخذ يتزايد إذ إن النوع الإنساني لم يكن قد طوع بعد بما يكفي للاستغناء عن النوم.

وأخذوا يتحداثون: «بعضهم يتحرش بالآلة...».

- «بعضهم يحاول أن ينصب نفسه ملكًا وأن يدخل في الآلة من جديد، عنصر الشخصية».

- «فليعاقب ذلك الرجل بالتشريد».

- «إلى الخلاص! خذوا الثأر للآلة! خذوا الثأر للآلة!».

- «الحرب! اقتلوا الرجل».

ولكن لجنة استصلاح الجهاز تقدمت الآن وهدأت حدة الذعر بكلمات مختارة، واعترفت بأن جهاز الاستصلاح هو نفسه في حاجة إلى الاستصلاح.

وكان تأثير هذا الاعتراف الصريح باهراً.

قال محاضر ذائع الصيت - وهو الذي تكلم عن الثورة الفرنسية والذي كان يخلع على كل فساد ثوب الجلال: «بطبيعة الحال، بطبيعة الحال سوف لا نلح في طلب الاستجابة لشكاياتنا الآن، إذ إن جهاز الاستصلاح قد عاملنا في الماضي معاملة طيبة إلى درجة تدعونا إلى العطف عليه، بل سنتنظر إبلاله مصابرين، وسوف يستأنف الاضطلاع بواجباته في الوقت الملائم. فلنستغن - إلى أن يحل ذلك الوقت - عن أسرتنا وأقراص دوائنا وعن حاجتنا الصغرى - ويقيني أن تلك هي رغبة الآلة».

وأثنى عليه مستمعوه على بعد آلاف الأميال، فالآلة لا تزال تربط أواصر العلاقة بين بعضهم بعضاً، إذ تحت البحار وتحت أعراق (أصول) الجبال كانت تمتد الأسلاك التي بها يرون ويسمعون، ثم إن العيون والآذان الضخمة التي أورثتهم إياها، ودوي المنشآت الآلية العديدة ألبست أفكارهم زياً واحداً من التبعية، ولم ينكر فضل الآلة غير الشيوخ والمرضى بعدما ذاع من أن حق الانتحار تخلصاً من العذاب أيضاً لم يعد يمنح، وبدأ الألم يظهر بين الناس.

وأصبحت القراءة من الأمور العسيرة؛ لأن الهواء الجوي داخلته آفة أعتمت إشراقه، حتى إن فاشتي عجزت في بعض الأحيان عن الرؤية عبر الحجرة، وكذلك فسد الهواء، ورفع الناس عقيرتهم بالشكوى، وقصرت الأدوية عن شفاء الناس، وأخذ المحاضرون ينادونهم البطولة ويهيئون بهم: «تذرعوا بالشجاعة! تذرعوا بالشجاعة! ولا تأبهوا لشيء ما دارت

الآلة، فالظلام والنور يستويان في نظرها»، ومع تحسن الأحوال بعد مرور بعض الوقت فإن الإشراق القديم لم يعد سيرته الأولى، كما أن الإنسانية لم تتعاف من الإعتماد الذي أحاط بها.

وقيل كلام «هستيري» عن «التدابير» و«الدكتاتورية المؤقتة»، وطلب إلى سكان سومطرة أن يوطنوا أنفسهم على أن يألفوا الأوضاع التي تخلفها محطة القوى المركزية، ومحطة القوى هذي مركزها فرنسا... غير أن الغالبية تملكها الفزع، وانصرف الناس بكل قواهم يصلون لكتبهم، وهي البراهين الملموسة على أن الآلة تقدر على كل شيء، وكان فزعهم درجات: أمل في بعض الأحيان، جهاز الاستصلاح كاد أن يتم استصلاحه... أعداء الآلة غلبوا على أمرهم... «مراكز عصبية» جديدة تشتغل بحيث يصدر العمل كما كان، بل أفخم مما كان، وفي ذات يوم - من دون تنبيه وبغير إشارة إلى حدوث أي وهن - تقوض نظام الاتصال كله في العالم أجمع، وحلت نهاية العالم كما يفهمونه..

وكانت فاشتي إذا ذاك تحاضر، وقد رُقمت ملاحظاتها الباكرة بالاستحسان، وفي تلك الأثناء خيم الصمت على السامعين، ولدى الخاتمة انقطعت الأصوات، فلما استاءت بعض الشيء طلبت صديقاً كان إخصائياً في الجاذبية فلم يجب، الصديق نائم بلا ريب.. وتكررت النتيجة نفسها مع الصديق التالي الذي حاولت طلبه، وهكذا مع الذي يليه، إلى أن تذكرت ملاحظة كونو المستترة: «الآلة تتوقف».

وبقيت العبارة لا تنقل أي معنى، وإذا كانت الأبدية في سبيلها إلى التوقف فالآلة دائرة عما قريب...

فمثلاً: ظل هنالك قليل من النور والهواء، ظل الكتاب موجوداً، وما دام الكتاب موجوداً فالأمان باق.

ثم أمست لا تقوى على العمل لأن زوال النشاط قد صاحبه فزع غير مرتقب، وهو الصمت.

على أنها لم تسبق لها قط معرفة الصمت، ولذا كادت تهلك من حدوثه، وهو الذي قضى على الآلاف العديدة قضاء مبرماً. فلقد أحاطت بها منذ ولادتها همهمة دائبة كانت تقع من أذنها موقع الهواء الصناعي من الرئتين، ولذا خرقت رأسها الآلام المبرحة، وتعثرت إلى أمام- وهي لا تكاد تدري ما هي فاعلة- وضغطت الزر القليل الاستعمال فانفتح باب الحجرة.

وكان هذا الباب يدور على محور بسيط خاص به لا يتصل بمحطة القوى المركزية القائمة على بعد سحيق هنالك في فرنسا، انفتح باب الحجرة ففتح معه آمال فاشتي المتجاوزة الحد، وقد خالت أن الآلة قد أصلحت، وبفتحه رأت النفق المعتم الذي انعرج إلى مكان يؤدي إلى الحرية، ألقت نظرة واحدة، ثم انكششت مترجعة؛ ذلك لأن النفق كان يعج بالناس، ولعلها كانت آخر من تنبه في تلك المدينة.

وكانت في أي وقت تشمئز من الناس وكان كل منهم يمثل كابوساً من أسوأ أحلامها، فقد قفلوا يجوسون زاحفين، يتصايحون، أو يشجعون ويتصايحون ابتغاء التنفس، ويلامسون بعضهم بعضاً، ثم يلفهم الظلام، ويدفعون، دون انقطاع في لحظات متقاربة، خارج الطوار إلى القضيب الحي. وكان بعضهم يتعارك حول الأجراس الكهربائية ابتغاء استدعاء

القطرات التي لم تكن سبيل إلى استدعائها، والبعض يصرخ في طلب حق الانتحار تخلصاً من العذاب أو في أجهزة التنفس أو يسفه الآلة. ووقف آخرون - مثلها - على أبواب حجرهم يخيفهم تركها ومزايلتها على حد سواء. ومن خلف الجلبة ساد الصمت، الذي هو صوت الأرض والأجيال البائدة.

لا لا، لقد كان ذلك شراً من العزلة، فأقفلت الباب من جديد وجلست تنتظر النهاية. واستمر التفكك يصحبه تشقق وقهقهة مروعان. ولا بد من أن الصمامات التي تكبح الجهاز الطبي كانت قد وهنت، ذلك لأنها تفسخت وتدلّت من السقف على صورة مرعبة. واضطربت الأرضية وقذفت بها من فوق كرسيها، ونضحت قصبية وانسابت صوبها كما قد ينساب الثعبان، وأخيراً دنا الفزع النهائي، فقد بدأ الضوء يتضاءل وأدركت أن يوم المدنية الطويل أخذ يطبق.

ودومت حول الحجرة تضرع بالنجاة مما هو جار، على حال ما، وشرعت تقبل الكتاب وتدق الجرس تلو الجرس. أما الجلبة الخارجية فقد أخذت تتزايد حتى نفذ عجيجها من الحائط، وبدأ إشراق حجرتها يعتم رويداً رويداً، وحال بريق الانعكاسات الذي كان يشع من مفاتيح التحويل المعدنية، وتعذرت عليها الآن رؤية قمطر القراءة ورؤية الكتاب مع أنه كان في يدها. وأخذ الضوء يتبع مسار الصوت والفضاء الأصيل يرتد إلى الكهف الذي طرد منه كل ذاك المدى من الوقت. واستمرت فاشتي في التدويم - كأنها من نساك دين من الأديان الباكرة - وهي تصرخ وتصلّي وتدق الأزرار بيدين دامتيتين.

وهكذا فتحت الباب وفرت - فرت بروحها، أو هذا على الأقل ما لاح لي قبل ختام تأملاتي - أما فرارها بجسدها فهذا ما لا أقدر على إدراكه. وشاءت الصدفة أن تصطدم فاشتي بالمفتاح الذي يفك الباب، فأخبرها تدفق الهواء الفاسد على جسدها والخفق القوي الذي يهمس في أذنيها بأنها تواجه النفق من جديد والطوار الهائل الذي فوقه رأّت الناس يتعاركون قبلاً. ولكنهم لم يكونوا يتعاركون الآن، ولم يبق إلا الهمسات والأنات الناشجة... لقد كانوا يموتون في الظلام الخارجي بالمئات.

وتفجرت منها الدموع.

وأجابتها دموع.

وكان الاثنان يكيان الإنسانية ولا يكيان نفسيهما، إذ لم يستطيعا أن يحتملا أن النهاية تكون على هذا النحو، ولقد انفتح قلباهما قبل أن يسود الصمت، وعلمتا ما هو أهم شيء في هذه الدنيا، لقد كان أهم شيء هو الإنسان - وهو النخبة من بين كل ذي لحم ودم، وأنبل جميع المخلوقات المرئية، وهو الذي صنع الله يوماً على غراره، والذي رفع مقدرته فوق النجوم - لقد كان الإنسان الجميل العاري يموت مختنقاً بالحلل التي نسجها. لقد كدح القرن تلو القرن وكان هذا جزاءه... لقد بدا حقاً أن الحلة كانت في مبدأ أمرها علوية، صبغتها ألوان التهذيب ونسجتها خيوط إنكار الذات، لقد كانت علوية ما بقيت حلة فحسب وما استطاع الإنسان أن يطرحها مختاراً وأن يعيش بالجواهر الذي هو روحه، وكان الجواهر العلوي الآخر جسده. أما الإثم في حق الجسد - وكان هذا هو

السبب الأكبر في بكائهم، وكذلك تردبهم قرونًا في الإضرار بالعضلات والأعصاب وبذلك الأبواب الخمسة العالية التي بها يتم الإدراك من دون مساعدة^(١) - أما الإثم في حق الجسد فقد درجوا على أن يبرروه بكلام بحجة التطور حتى صار الجسد كاللباب الأبيض وموئل أفكار لا تصطبغ بلون ما ونهاية منقلبات روح سيطر على النجوم.

ونشجت قائلة: «أين أنت؟».

وقال صوته في الظلام: «هنا».

- «وهل من أمل يا كونو؟».

- «لا أمل لنا».

«أين أنت؟».

وزحفت صوبه فوق جثث الموتى، وانبجس دمه على يديها.

فلهثت قائلة: «زد السرعة فإنني أموت..».

قال: «ها نحن أولاء نتلامس ونتحدث من دون أن تستعينين بالآلة».

وقبلها.

- «لقد عدنا إلى أنفسنا، نحن نموت الآن ولكن بعد أن غنمنا - من

جديد - الحياة كما كانت في وسكس وقتما طرد ألفرد الدنمر كيين، وبعد

أن أصبحنا نعلم ما يعلمونه في العالم الخارجي، أصبحنا نعلم ما يعلم

أولئك المقيمون في السحاب ذي اللون اللؤلؤي».

(١) يقصد الحواس الخمس.

- «ولكن، أحقًا يا كونو؟ أحقًا أن رجالًا يعيشون فوق سطح الأرض؟
أو ليس هذا- هذا النفق وذاك الظلام المسموم- آخر دنيانا حقًا؟».

فأجاب:

«لقد رأيتهم، وحدثتهم، وأحببتهم. إنهم يستخفون في الضباب
وفي الخنشار حتى تنتهي مدينتنا. هم اليوم المشردون، ولكنهم في الغد
سيصبحون».

- «أوه، في الغد... في الغد سيعمد مخبول ما إلى إدارة الآلة من
جديد، في الغد...».

فقال كونو: «لا سبيل إلى ذلك أبدًا، فقد وعت الإنسانية درسها».

ولم يكذب تكلم حتى تقوضت المدينة جمعاء كما قد يتقوض قرص
الشهد. فقد طارت سفينة الهواء داخل مراكز قذف الطائرات إلى مرفأ
مخرب، وتهشمت غائرة وفرقت في طريقها وهي تشق الرواق تلو
الرواق بجناحيها الفولاذيين. ورأيا- لحظة- أمم الموتى، ورأيا- وقبل
أن يلحقا بها- كسفًا من السماء التي لم يدب إليها الفساد.



بيت القصير

- ١ -

قال ميكى - فى خلال كثر من الضحك الأبله: «لا أستطع أن أتبين بيت القصيد».

واستمر هارولد يجدف، وكانا قد قضيا وقتاً طويلاً على كئبان الرمل، والتيار قد أخذ ينحسر عن مصب النهر انحساراً شديداً، كما كانت الشمس قد أخذت تغرب، والحقول التي على الشاطئ المقابل تلمع لمعاناً بهيئاً، وبيت المزرعة - الذي استراحا فيه - يتوهج من نوافذه العليا كأنه قد امتلأ نارا.

واستأنف ميكى الكلام قائلاً: «سنحمل إلى خارج البحر، ولن نفوز حتى تسري عن نفسك قليلاً بشيء من المرح ولا سيما أنك عليل هزيل، ويطيني أن ركوب البحر مفيد».

وكانوا على وشك الوصول إلى البوغاز الأوسط، وهو - من المياه الآخذة في الانحسار - في منزلة العمود الفقري. ولم يكادا يزايلانه حتى هزلت قوة التيار، وسهل ذهابهما حتى بلغا شاطئ الرمل الممتد تحت

المزرعة... وكانت أمسية رائعة سبقها يوم أروع. فلقد خرجا يجدفان في هوادة إلى الكثبان، وابتردا واستبقا وطعما وناما ثم ابتردا واستبقا وطعما من جديد. وكان ميكي مرحاً جم النشاط والابتهاج إذ إن الأقدار لم تقم في سبيله العقبات حتى ذلك الوقت، وهو لم يكن يتصور أن تياراً من تيارات الجزر قد يؤخرهما عن العشاء تأخيراً كبيراً. فلما وصلا إلى البوغاز وأخذ القارب - الذي كان يحاذي، في أناة الخطر المضاد للتيار - يتوقف بلا حراك بين الأمواه المتحركة، عندئذ فقد كل مظاهر التعقل وصاح يردد شعراً فحواه: «قد تغرقنا دوامات البحر وقد نبلغ الجزر السعيدة ونرى أخيل^(١) العظيم الذي عرفناه».

ولم يزد هارولد - الذي لم يكن يعنى بالشعر - على أن صرخ وكان كذلك مرحاً جم السرور، فلم يبد عليه أنه عليل، كما أنه لم يشعر بالمرض والضعف. وكان العلم قد تحدث إليه أخيراً حديث الجد، وهز رأسه لجسده الذي لوحته الشمس، ولكن ما الذي يمكن أن يعرفه العلم؟ فلقد أنزله إلى البحر ليتتعش وأرسل ميكي ليرقه كي لا يتعب نفسه. نعم كان ميكي أول الأمر مصدرًا للانزعاج ولكن حسن الإدراك واتاه كما هو شأنه دائماً مع الشباب. فهو منذ أسبوعين لم يكن يرخص للعليل أن يمسك المجدف، أما الآن فقد أمره بأن يسري عن نفسه، وقد أخذه هارولد بكلمته وفعل ذلك. وتحول بكليته إلى إرادة وعضل. وبدأ لا يعرف أين هو، ثم إن قوة تأثير أداة الشد على قدميه والمد الذي أثقل ذراعيه اندمجت في صوت صاحبه في اتجاه شعور واحد غير مسمى.

(١) أخيل: اسم بطل الإلياذة هوميروس.

وأخذ يناهز الحالة الغامضة التي هي المطلب الحقيقي الذي يستهدفه كل من يقوي نفسه برياضة البدن وإن لم يعترف به، فلقد أخذ يحس بوجوده.

وأنشد ميكي: «١، ٢ - ١، ٢» محاولاً أن يستعين بجذب الدفة، ولكن ميكي كان واسع الخيال.. نظر إلى النوافذ المتوهجة وتخيل أن المزرعة نجم وأن القارب تابعه الذي يدور في فلكه وأن المد هو المجرى الأثيري المتدافع للكون والتجول بين الكواكب التي لا تني عن الخفقان أبد الآبدين. ما أفكه هذا! إنه لم يكيف مظاهر سروره في تحفظ كما يفعل الشيوخ، ورفرت عليه سعادة بالغة أنسته واجب الشكر. وكانت «اذكر خالك في أيام شبابك»، كلمات امرئ ترك وراءه شبابه، وكان كل ما أنشده ميكي هو: «١، ٢».

وضحك هارولد دون أن يسمع، وتصيب العرق من جبينه، وتدفق كما يتدفق المد.

وصاح ميكي: «بودي لو تفحصك الطبيب».

فلم يجب وضغط أسنانه وجن جنونه. لقد أهاب به أسلافه بأنه أولى به أن يموت من أن يقهره البحر.

فجذف وهو يلهمف ويصرخ صرخات قصيرة غاضبة بينما كان صوت مدير الدفة يسلقه بلسانه ويؤجج غضبه.

«مضبوط: ١، ٢. ادفع المجذاف بمزيد من الجد. اسمع. هذا شاق بعض الشيء. ربما يحمل بنا أن نكف أيها الرجل المسن».

وفي تلك اللحظة اقتربت منهم طيور النورس^(١) ودار بعضها فوق رأسيهما وأخذ بعضها الآخر في الصعود والهبوط فوق المياه المتجمدة، وترامى إليهم من فوق الأرض غناء قنبرة خافتاً ورأى ميكي مركبة الطبيب سائرة على طول الطريق المؤدية إلى المزرعة فشعر بالخجل.

- «اسمع يا هارولد، كان يجب عليك ألا... وكان يجب عليّ ألا أرخص لك... إنني لم أتبين بيت القصيد».

قال هارولد في وضوح المستقصي: «ألا تتبين أنت بيت القصيد؟ حسناً، لسوف تتبينه يوماً ما»، وترك المجدفين، وإذ ذاك أخذ القارب يدور واختفت المزرعة ومركبة الطبيب وأغنية القنبرة، ووقع بثقله على بيت المجدف فأمسك به ميكي.. لقد أجهد قلبه، ومات، ونصفه داخل القارب والنصف خارجه، ذلك أمر وبيل.

- ٢ -

أمر وبيل. حدث هذا عندما كان ميخائيل في الثانية والعشرين من عمره، وقد توقع أنه لن يعرف السعادة مرة أخرى. وقد أثر فيه صدى صوته وهو يزقق عندما حملوه، وصوت الطبيب إذ يقول: «أعدك مسؤولاً»، ومجيء أبوي هارولد، وصوت القس إذ يلخص صلات هارولد بالعالم الآخر، أثر فيه كل هذه الأشياء تأثيراً بالغ العمق حتى زعم أن هذا التأثير سوف يلزمه إلى الأبد. ولكن ذلك لم يحدث في الواقع لأنه عاش إلى

(١) النورس (بفتح النون المشددة) طائر مائي في حجم الحمام أو أكبر يعلو في الجو ثم يزج نفسه في الماء ولا يأكل غير السمك، ويسميه بعضهم زمج الماء.

ما بعد السبعين، ولن يتسنى كائناً لمرئى من كان - مهما قويت إرادته - أن يظل متذكراً في وضوح إلى مدى بعيد كهذا. فالعقل ومهما بلغ من الحساسية والود تكسوه في كل يوم تجارب جديدة، وليس في مقدوره أن يتحلل من النمو المتصل، ولذا يضطر إما إلى نسيان الماضي وإما إلى تحريفه. وهذا ما حدث لميخائيل، فهو مع مرور الزمن لم تبق في ذاكرته سوى الأحداث الدرامية... وتذكر آخر حركات هارولد (وهو يقبض على يده بيد ويدلي الأخرى عميقة في البحر). تذكرها لأنها أبانت عن جمال الجسم وليس لأنها آخر حركات صديقه. وللأسبب ذاته تذكر آخر عبارة نطق بها: «ألا ترى بيت القصيد، حسن، ستره يوماً ما»، واستثارت العبارة خياله وامتزجت بما لديه من ذكريات. وبعد ثلاثين عاماً أو أربعين نسي مردها، ولا تثريب عليه في هذا لأن شواغل الحياة تكاثرت عليه حتى غلبته على أمره.

وهناك أيضاً ما يقال غير هذا: لم يكن بينه وبين هارولد من أوجه الشبه غير الشباب، ولم يكن بينهما من الروابط الروحية ما يمكن أن يظل في الذاكرة. فهما لم يتباحثا قط في اللاهوت ولا في الإصلاح الاجتماعي ولا في أية مشكلة من المشكلات التي تزحم ذهن ميخائيل. وعلى هذا لم يبق ما يمكن تذكره عنه مع أنهما كانا صديقين حميمين إلى حد ما. وكان كلما فكر في هارولد انمحي من ذاكرته كل شيء عنه، وحينما فقد هارولد جسده صار طيفاً، ولم يكن في وسع المرء أن يتصوره روحاً قد رحلت، إذ إن العالم الذي وراء الموت مهيب ما في ذلك شك. وليس في الجنة ولا في جهنم مكان لرياضة البدن، ولا للخلق الهادئ الذي لا هدف

له، فإذا جرد هارولد منهما فما الذي يتبقى؟ وحتى إذا ثبت أن الحياة في العالم الآخر المجهول تطابق حياتنا كل المطابقة وحتى إذا وجدت به شمس ونجوم خاصة فإن تلويح شمسنا لوجوهنا لا بد من أن يزول عنها كما لا بد من أن تهن العضلات الدنيوية قبل أن نتمكن من الذهاب مجدفين في بحرها النهائي. وأسلم ميخائيل صديقه، والحزن يضويه، إلى رحمة الله، ولم يستطع شيئاً غير هذا؛ ذلك لأن الناس لا يسعهم أن يخلدوا إلا من خلف وراءه أثراً من الشعر أو الحكمة.

أما بالنسبة لنفسه فقد توقع حظاً آخر، إذ عرف - في تواضع جم - أنه لم يكن مثل هارولد، وهو في هذا ليس صاحب الفضل لأنه انحدر من أروقة أعلى إدراكاً وورث طاقات جعلته جديراً بالحياة وبكل ما قد يجيء بعدها. وكان يأبه للعالم وللعقدة الطفيفة التي فيه والتي نسميها المدنية كما يأبه لإخوته من بني الإنسان الذين يصنعون العقدة والذين يذودون عنها. ثم إنه يستدفي بالحب، حب الإنسانية. وحتى عندما يفكر في غير هذا من الشؤون ويتطلع إلى الجوزاء - وقد يحدث ذلك في أمسيات الشتاء الباردة - حتى عندئذ كانت تهز مشاعره غمرة من الفرح تجل عن الوصف، ويملؤه اليقين بأن أسمى خلجاتنا الفكرية لها قيمة خالدة ستكمل فيما بعد. وإن طبيعته تمتلئ إلى هذا الحد ما يكون لها أن تعكف على الموت.

ولإجمال حياته العملية:

بعد المأساة بوقت قصير، عندما كان يستشفى بدوره، لقي المرأة التي قدر لها أن تمسي شريكة حياته مدى العمر، وكان قد سبق له لقاءها

ولم يمل إليها إذ بدت جافة قاسية. غير أنه تبين الآن أن قسوتها تردّ إلى فضيلة تعوزه، ولئن آمن بالحب فإن جانيت تؤمن بالصدق. وقد خبرت كل الرجال وكل الأشياء ولم يسعها أن تحتمل العاطفي الذي يستخفى من قسوة الدنيا وغدرها. ولما كانت إذ ذاك خطيبة رجل آخر تحدثت إلى ميخائيل في صراحة تفوق صراحتها لو أن الظرف كان غير الظرف. قالت له إنه لا يكفي أن يشعر الإنسان بأنه طيب وأن يشعر بأن الآخرين طيبون، وأن رسالة الإنسان هي أن يحسن من حال الآخرين، وأهابت به أن يبحث عن عمل. وفيما كانت تتحدث إلى الشاب تبلج له جمال العمل الشريف واكتملت رجولته العقلية والجسدية. وبعد أن أعد نفسه الإعداد المناسب دخل الخدمة المدنية موظفًا في المتحف البريطاني.

وانخرط في مهنة حرية بأن توصف بأنها وجيهة وعميمة النفع للإنسانية. ولم يرض ميخائيل عن اطراد نسق الرسميات (الروتين) في العمل بسبب المثل العليا التي ينتهجها في التصرف والتهذيب، وذلك لأنه يحب مساعدة الآخرين. ولما كان لبقًا بالفطرة حظيت تصرفاته بالموافقة، وأصبح - بعد مرور وقت غير طويل - مصدر وئام في القسم الذي يشتغل فيه. فلقد وسعه أن يخفف عن رؤسائه ويشحذ عزم مرؤوسيه ويرضي الأجانب من طلاب المعرفة ويرى أن لكل رأي ما يبرره. وقد درجت جانيت - التي كانت ترقب تقدمه - على اتهامه بعدم الثبات، وكانت في هذا مخطئة، إذ إن الشاب لم يكن مجرد شخص نهاز للفرص، بل كان ينهج دواءً وفق تفكير صادق خاص به، وإلا لما استطاع أن يستبقي احترام زملائه. ومرد ذلك في الحقيقة إلى عذوبة طبيعته في

العمل التي وجهها تأثير امرأة صوب الغايات المثمرة.

وبعد معرفة دامت عشر سنين تزوجا، وفي هذه الفترة كابدت جانيت ألما كثيرة، إذ ظهر أن خاطبها ليس أهلاً لها، ولكن سجيته استقرت عندما جاءت ميخائيل، وكانت أخلاقها نقيض أخلاقه إلى حد كبير، وقد يكون أنهما تبادلا كل ما قدرا عليه من خير. وكان زواجهما متين الأواصر في ظل قدر كاف من السعادة، فقد أبدى هو، بصفة خاصة، تسامحاً في أشياء كثيرة لا تعد؛ لأن الاعتدال والعطف كانا في طريقها إلى أن يصبحا العنصرين الرئيسيين في أخلاقه، وعندما وجد أن امرأته لا تنظر بعين الإنصاف إلى العقلية الرسمية، وعندما تنكر صهره للدين وأعلن كفره، وقال لنفسه: «ليست لهما من حيلة فهكذا خلقا وهما لا ينكران ما بهما من عيوب. والأولى بي أن أفكر في عيوبي أنا وأن أكافح في سبيل أفق أوسع دون انقطاع». وأخذ يزداد في كل يوم لطفاً.

وكان لأمله في ارتقاب أفق أوسع بعض الأثر في تحوله صوب الأدب فقد عن له - عندما أخذ يتخطى الأربعين من عمره - أن يكتب مقالات، مقالات تتحدث عن الماضي هوناً ما وتنم عن التأمل أكثر مما تدل على عمق المادة. وقد حظي بعض تلك المقالات بالإقبال عليه، فقد حرك حسن الذوق ووضوح العبارة وآداب المسيحية المعتدلة بها شهية أنصاف المتعلمين من الجماهير وجعلهم يفكرون ويشعرون، على أن تلك المقالات لم تكن - ولم يقصد بها أن تكون - أدباً عالياً. غير أنها فتحت الباب دونه كما كانت بلا ريب قوة في سبيل الخير، وقد اتبع ميخائيل الجزء الأول بـ «اعترافات كهل» وأودعه تحية لعهد الصبي

وإن ذهب إلى أن النضج هو كل شيء. والحكمة- في رأيه- هي سبيل التهذيب الوحيدة، أما العطف والاتزان وتعدد الجوانب فلا تأتي للرجل حتى تتقدم سنه. وإن المرء ليسر دواءً أن يسمع، أن الأحسن هو الذي سيكون.. وراج الكتاب. وربما جاز أن يصبح مؤلفاً مرموقاً، غير أن امرأته أثرت عليه ومنعته عن أن يكتب شيئاً لا يحس به إحساساً صادقاً. وقد ولدت له- حتى ذلك الحين- ثلاثة أطفال هم هنري وكاترين وآدم، وكانوا في الجملة أسرة سعيدة، فهنري لم تصدر عنه متاعب من أي نوع، وسلكت كاترين سبيل أمها، أما آدم- الذي كان خشناً فظاً- فقد سبب لوالده بعض القلق، ولم يتسن للأب أن يفهم الابن مع الملاحظة الدقيقة، ولذا لم يمسيا قط صديقين حقيقين.. ومع هذا كانت تلك المسألة سحابة صغيرة في أفق واسع، فقد كان ميخائيل- في بيته وفي عمله- أكثر نجاحاً من معظم الرجال.

وعلى هذا فقد انزلت إلى الحلقة الخامسة من عمره، وعندما مات أبوه ورث بيتاً في تلال (ساري)، وهناك استقرت جانيت لأنها كانت في قرارة نفسها تهوى فلاحه الحداثق. ومهما يكن فإنها لم يبد عليها أي أثر للثقافة العالية، غير أن شراستها أضلته، وربما تكون قد أضلتها هي أيضاً، حتى اعتقد أنها مثقفة. وكانت على شيء من اللباقة في مجتمعات لندن، غير أن هذه المجتمعات أضجرتها إذ كانت تنقصها مرونة زوجها كما كانت أكثر منه تأثراً بتزايد السن، ثم إن الريف لم يناسبها. ولذا أضحت شكسة تخاصم سيدات أخريات بسبب الاختلاف في أسماء الأزاهير... ولم تخل السنون- بطبيعة الحال- من التأثير عليه كذلك،

فقد أصبح إذ ذاك واهناً بعض الشيء، وتخلّى عن كل الألعاب الخارجية. ومع أن صحته ظلت حسنة فقد أمسى أصلح أقرب إلى البدانة والخجل. وكان يكره السهر والرياضة البدنية العنيفة والتنزه ليلاً مشياً على الأقدام والسباحة في الحر والسير بالقوارب المكشوفة بغير غاية معلومة، وكثيراً ما كبح نفسه عن استثارة الأطفال. وكان هنري - وهو صبي ظريف جذاب - يعصر يده ويقول: «حسن يا أبتاه». أما كاترين وآدم فكانا يعبسان أحياناً.. وظل تفكيره في الأطفال يزداد اطراداً. والآن، وقد أخذت امرأته تضعف، فإن بنيه هم المستقبل، فصمم على أن يظل متصلاً بهم، وذلك بعد أن تذكر كيف أخفق أبوه معه. وكان يؤمن بالكياسة، وكثيراً ما وقف بينهم وبين أمهم. وعندما اشتد ساعد بنيه تركهم يتخIRON أصدقاءهم. وعندما استأذنت كاترين، في التاسعة عشرة من عمرها، في الذهاب لكسب عيشها بوصفها بستانية لدى سيدة نبيلة رخص لها ذلك. ولكنه في هذه الحالة بالذات ظفر بمثوبة لأن كاترين عادت إليه بعد أن قتلت الزهر. وكان من شيمها التبرم والتجهم، ولذلك كانت محنة لأمها التي لم تستطع أن تتصور المصير الذي ينتظر الفتيات. ثم تزوجت وحسنت حالها كثيراً، فقد أصبحت حقاً أكبر سند له في سنيه التالية.

ذلك أنه عقب زواجها أصابه رزء كبير، إذ أمست جانبيت طريجة الفراش، وبعد مرض طال أمدّه انتقلت إلى العالم المجهول. وأعلن السير ميخائيل - لأنه حاز لقب فارس - أنه لن يعيش بعدها، فقد تعود كل منهما على الآخر وأصبح لا غنى له عنها إلى درجة أنه توقع أن يمضي في إثرها، وكان في هذا مخطئاً، فلقد ماتت عندما بلغ الستين، وعاش هو

إلى ما بعد السبعين. وتغلبت سجيته على قبضة الظروف وظل يحتفظ
برغباته القديمة وترفقه الذي لا يقهر.

ولم يكد ذلك يحدث حتى أصابه مكروه آخر، فقد اتضح أن آدم
كان يحنو على أمه حنوًّا شديدًا، وأنه إنما كان يطبق حياة البيت إكرامًا له
فقط، فهجره بعد مشادة عنيفة، ثم كتب من الأرجنتين أنه آسف، غير أنه
يود أن يبدأ الحياة معتمدًا على نفسه، فارتجف السير ميخائيل وقال: «لا
أرى وجه الصواب في ذلك، إذ هل منعه يومًا- أو هل منعت أيًا منكم-
من مثل ذلك؟» وأقر كلامه هنري وكاترين. ولكنه مع هذا استشعر أنهما
يفهمان أخاهما أكثر منه فاستطرد يقول: «لقد أعطيته الحرية، فماذا يبتغي
أكثر من ذلك؟» فقال هنري بعد تردد: «من الناس من يحس بأن الحرية
لا تعطى، هذا ما سمعته على أية حال، وربما كان آدم من هذا القبيل، وقد
لا يشعر بالحرية حتى أخذها بنفسه»، فاعترض السير ميخائيل وأجاب
بقوله: «لقد درست المراهقة سنوات طوًّا، وأرى أن حكمك يا ولدي
العزيز موجب للسخرية».

ومازح الاثنان أباهما مزاحًا كيسًا. ومهما يكن فلقد سلخ الأب عمرًا
مديدًا موقرًا. وبعد أن اعتزل عمله في المتحف البريطاني قدم طائفة
قليلة ثانية من الإنتاج الأدبي. لقد نسيته جمهرة الناس ولكن تطفه في
كتابه «تأملات متقاعدة» ساعد على ذبوعه بعض الشيء بين جمهور
الكبار في السن والمتعلمين، وبذلك وجد سلوى روحية جديدة. وهو
لم ينجز قط الكنيسة التي استقر نفوذها، وعندما ندب بقسوتها في صدد
التعلق بالدينويات- وذلك يحدث أحيانًا- تكلم على أنه رجل خارج عن

نطاقها وليس في الواقع رجلاً يناصبها العداء. وقد فقد - بعد وفاة امرأته وبعد هرب ولده - كل ما تبقى عنده من ميل إلى التفكير. ثم إن تجاريب السنين جنحت به إلى أن يتقبل تجاريب القرون وإلى أن يتابع الأغلبية في تقاليدها. أجل، شيخوخة موقرة هادئة وقليلون هم الذين نقموا عليه ذلك. وكان له - بطبيعة الحال - خصوم زعموا أنهم فهموه وأن آدم فهمه كذلك. ولكن هذا الرأي لم يحظ بموافقة أي ناقد منصف؛ لأن السير ميخائيل لم يجنح به قط دافع مستتر، ثم إن صفاء سجل أعماله لم يكن وليد المصادفة، بل كان وليد صفاء نفسه، كما أن ميله إلى المسالمة مرده إلى سلام روحه. فلقد كان في مقدوره أن يفكر في كل ما ألم به من خيبة أو خطأ وهو يذكر أنه لم يتح له إنجاز المثل العليا التي كان يستهدفها في صباه. ومن ذا الذي استطاع أن يفعل ذلك؟ على أنه بز معظم الرجال في تكييف تلك المثل بحيث تسير دنيا الواقع. ولئن كان الحب قد حُول إلى عطف، والعطف إلى تراض، فليتقدم أحد أترابه ويرمي أول حجر.

بقيت حقيقة واحدة هي الموت. إلى ذلك الوقت لم يمت السير ميخائيل قط، ولقد كان أحياناً يخاف الموت خوفاً بهيمياً. غير أن الموت كان يلوح له في أغلب الأحيان وكأنه امتداد لعمله الراهن. وكان يرى نفسه وهو ينشئ في هدوء ولباقة - تساعده امرأته - ركنًا في اللانهاية. ولسوف تحظى جانيت بتحسن عظيم... رأى نفسه ينتقل من عالم كان له فيه اقتدار إلى عالم جمع بين السرمدي والمألوف، عالم يكون له فيه مثل ذلك الاقتدار، عالم ينتقل إليه في وقار من دون أن يتألم، ليست هذه الحياة سوى تمهيد للحياة التالية، وعلى هذا فالذين تزاد حياتهم

امتدادًا يصبحون أتم استعدادًا، فالتجربة هي المعلم العظيم... وطوبى للمحنكين لأنهم ليسوا في حاجة إلى تعديل مثلهم العليا.

وقد جاء موته على النحو الآتي: وقع له - هو أيضًا - حادث: كان يمشي من بيته في البلدة إلى بيت كاترين بطريق مختصرة عبر حي قذر وبيء، وكان بعض النسوة يتعاركن من أجل سمكة، فلما مر بهن اختصمن إليه، ولما كان الشيخ دائم المجاملة توقف، وقال إنه ليس لديه من المعلومات ما يكفي للفصل في الموضوع، وأشار عليهن بأن يطرحن السمكة جانبًا، أربعًا وعشرين ساعة، واتفق أن يضايقهن هذا وأربى غضبهن منه على غضبهن من بعضهن لبعض، واتهمنه بـ «خداعهن» وبـ «التحايل عليهن»، فقالت من بزتهن قبحًا بسبب سكرها: «انظرن هل يستطيع أن يتحايل على هذي»، وصفعته بالسمكة على وجهه فخرّ مغشيًا عليه. وعندما أفاق ألقى نفسه راقدًا في فراشه مع إحدى نوبات صداعه.

وقد استطاع أن يسمع صوت كاترين وقد ضايقته، ولئن لم يفتح عينيه فإنه قضي بالآ يفتحهما، وليس من سبب غير هذا.

وقال صوت هنري: «هو على هذه الصورة منذ ستين تقريبًا».

حدث هذا - على أكبر تقدير - بعد عشر دقائق من وقوعه في الحي القذر الوبيء. وقد اختار ألا يجادل.

وقال صوت ثالث وهو في الواقع صوت آدم: «لقد أصبح عديم النفع» ولكن كيف ومتى عاد آدم؟ «على أنه كان هكذا في السنوات الثلاثين الأخيرة».

فقال هنري: «رويدك أيها الصبي الكبير».

قال آدم: «أجل، وإنه كذلك... إنني لا أؤمن بما يقوله الناس. إنه - منذ وفاة والدتي بل قبلها بفترة قصيرة ملعونة - لم يصنع قط شيئاً. ولقد نسوا كتبه لأنها ليست مبتكرة، وهم يعيدون ترتيب صناديق المعروضات التي سبق له ترتيبها في المتحف البريطاني. وهذا قصارى أمره. وما الذي فعله غير هذا اللهم إلا نصحه الناس بأن يستدفئوا في ملابسهم على ألا يبالغوا في الاستدفاء؟».

- «آدم، يجب عليك حقاً ألا...».

- «بما أن أحداً لا يرفع صوته بالنقد الصريح فإن رجلاً من شاكلة الشيخ يذيع صيتهم، وهذا من علامات مدنيّتك القدرة، أنتم جميعاً تخافون، تخافون الابتداء، تخافون الكد، تخافون أن تجرحوا شعور بعضكم بعضاً. إنكم تسمحون لأي امرئ لا يؤذيكم أن يرتفع إلى القمة، وتنسونه بموته، ثم تستبدلون به علماً آخر من بين من لا يستأهلون».

قال صوت مجهول: «مخجل يا مستر آدم، مخجل. أتنال من شيخ كهذا عزيز وذائع الصيت كذلك؟».

- «ستعتادين عليّ عما قريب أيتها الممرضة».

وضحكت الممرضة.

قالت كاترين بعد تريث: «من الفرج وجودك معي يا آدم، فأنا أريدك وولدك على أن تساعداني على ولدي»، وبدا صوتها أكثر كلاً، وانثنت عن أبيها دون كلمة توديع: «على المرء أن يفيد من أخطاء الآخرين... مزيد

من الشجاعة على كل حال.. إني أعتزم أن أظل على صلة بولدي...».

قال آدم: «اجلديه، وهذا هو السر» وتبع أخته خارج الغرفة.

ثم رنت ضحكة هنري المبهجة آخر مرة وقال: «أنت تجعلنا جميعاً نشعر بأننا صغرنا عشرين سنة ولا سيما عندما...».

وأوصد الباب.

شعر السيد ميخائيل بالبرد من شدة الغضب، إذ هكذا كانت الحياة وهكذا كان رأي الجيل الأصغر سنّاً. نعم إنه كان يتجاهل آدم غير أنه عندما تذكر هنري وكاترين أزمع الموت. ولقد كان من الجائز أن ينهض من فراشه وأن يطرد الزمرة جميعاً إلى الشارع لو أنه اختار ذلك، ولكنه لم يختره، وإنما أثر أن يزايل هذه الدنيا العاقبة المهلهلة. غلبت عليه آخر الأمور، السخرية التي تفوق قدرة البشر والتي تكمن فينا جميعاً، وبدلت أحواله، فرأى سخافة الحب، ودغدغته الرؤية إلى حد أنه أخذ يضحك، واثنت عليه الممرضة - التي كانت تلقبه بالشيخ العزيز - وفي اللحظة ذاتها دخل صبيان غرفة المريض.

واستفهم أحدهما وهو ابن كاترين: «كيف حال جدي؟».

وأجابت الممرضة: «ليس على ما يرام تمامًا».

وكان سكون. ثم قال ثاني الصبيين: «ها فلنفلت».

- «ولكنهم نبهونا إلى ألا نفعل هذا».

- «لماذا نعمل برأي الشيوخ والعجائز؟ إن أبي جد متعب وكذلك

والدتك».

فقالَت الممرضة: «مخجل. انطلقا كلاكما». وفي شيء من ترنم الإعجاب تبع ولد كاترين ابن خاله إلى خارج الغرفة، وزاد طرب جدهما وتدحرج في مناحي فراشه، وفيما هو آخذ في إدراك مدى ما في الموقف من سخرية مات وهو يتابعها إلى المجهول.

- ٣ -

كان ميكي لا يزال في فراشه، وقد تنبه إلى كثير من الأمور بسبب أحلام طويلة كئيبة، غير أنه عندما فتح فاه ليضحك ملاء التراب. ولما اختار أن يفتح عينيه ألقى نفسه وقد انتفخ انتفاخًا شديدًا ورقد في رمل سهل منبسط لا حد له، على أنه - كما توقع - لم تواته الفرصة ليحور مثله العليا تحويرًا بعيد المدى. فلقد حلت اللانهاية محل غرفة نومه ومحل لندن. ولم يتحرك على سطحها شيء ما اللهم إلا أعمدة رمل قليلة تتسامر أحيانًا فيندمج بعضها في بعض ثم تسقط في هسهسة خافتة، وفيما خلا هذا فلا حركة ولا ضوضاء، كما أنه لم يكن في مقدوره أن يحس بأية ربح.

كم من الزمن رقد هنا؟ ربما يكون قد رقد أعوامًا، وربما يكون قد رقد قبل موته بزم من مديد، بينما كان يلوح أن جسده يمشي بين الناس. والحياة قصيرة تافهة إلى حد أن أحدًا لا يعرف هل نحن نقبل عليها بكليتنا وهل يوقظ قبس من الروح ليكسوه اللحم؟ إن البرعم والنوار يهلكان في لحظة، أما خباء الثمرة (قشرها) فيدوم. أفلا يصح أن يكون الروح خباء؟

لقد لاح لميكي أنه راقد في التراب إلى الأبد وهو يتألم ويستهزئ وأن خلاصة كل شيء ليست إلا خرفاً... لقد شاخ وأمسى أدرد (بلا أسنان) وبلغ سن الاستسقاء^(١) وأضحى بخيلاً على العمر وعلى الشباب... لقد ولد قبل بدء أعمار الجميع وعاش بعد نهايتها حتى أصبح يطاول الكون عمراً.

وفيما كان يتعذب انحط مقام المكان في عينيه، كان المكان شاسعاً ولكنه كربه مع ذلك. ولقد مال منحدرًا في الظلام ومصعدًا في السحاب، ولكن أي ظلام وأي سحاب! ليس هناك من جلال فاجع يمجدهما، ولقد أدرك سبب تعاسته عندما رنا إليهما، إذ كانا ينظران إليه، ويسخران منه فيما كان يستهزئ. وكان قذرهما أقدم من تقلب الليل والنهار كما كان تهكمهما أعمق. على أنه كان جزءًا من دعابتهما حتى عندما كان الشباب يكون جزءًا منه. وأدرك رويدًا رويدًا أنه نزيل جهنم وأنه هبطها منذ سنوات.

وكانت ترقد حواليه من كل ناحية أشكال أخرى ضخمة إسفنجية، ولاح كأن الوادي تكسوه القرح. وكان في وسع بعضهم أن يجلس بينما البعض لا يكاد ينتو من الرمل. وقد علم أنهم ارتكبوا في حياتهم مثل الغلطة التي ارتكبها هو وإن لم يعرف بعد ما هي. وربما كانت هفوة مما يسهل اجتنابه، لو نبه أحدهم المرء إلى اجتنابه.

كان الكلام مسموحًا به، وفي تلك اللحظة قال صوت: «أليست سماءنا علوية؟ وأليست جميلة؟».

(١) الاستسقاء في الطب: تجمع سوائل مصلية في تجويف أو أكثر من تجاويف الجسد أو في خلاياه.

فأجاب ميكى وهو يحسب كل كلمة طعنة ألم: «بالغة الجمال». وإذ ذاك علم أن أحد الآثام التي يعاقب عليها هنا هو التقدير. فكان يشقى هنا عقاباً له على كل أنواع الشاء التي أزجها إلى المتخلفين والعاديين في الدنيا. وحينما امتدح بدافع الكسل أو رغبة في إدخال السرور على الناس أو تشجيعهم، لكل أنواع الثناء التي لم تؤيدها العاطفة، وأعاد قوله: «بالغ الجمال»، وهنا رجفت السماء إذ كان الآن مقبلاً على عذاب أشد. ولم يتخلف لديه من السعادة إلا شعاعة واحدة وهي أن امرأته لا يمكن أن تكون في ذلك المكان. ذلك لأنها لم تأثم مع أهل الوادي ولا محل لأن تتحمل نتائج انحرافهم. وقد وضع آخر الأمر أن نظرتها إلى الحياة كانت صائبة وكان ذلك سلواه في تعاسته المطبقة. وسوف تكون جانيت بعد الآن الدين الذي يدين به. فإذا تحركت الأبدية متناقلة إلى أمام ورجعت أدراجها وتحركت متناقلة إلى أمام فستريه أن الشيخوخة - إذا حسنت قيادتها - يمكن أن تكون جميلة وأن التجربة إذا فهمت على وجهها الصحيح يمكن أن ترشد روح الناس إلى النعيم، ثم استدار نحو جاره الذي كان يتلو نشيد الحمد.

وكان يقول: «يسعني الرقاد هنا إلى ما لا نهاية. فأنا عندما أفكر في القلق الذي انتابني طوال حياتي - أي طوال ما يسميه الناس خطأ بالحياة، وما هو في الحقيقة غير الموت... أما الحياة فهي هذي - عندما أفكر في قلقي في الدنيا يتملك مشاعري فيض من الإحسان والرحمة، لهذا يسعني الرقاد هنا إلى ما لا نهاية».

فاستفهم ميكى: «أو فاعل أنت هذا؟».

- «آه، هذا لعمرى أتم النعمة، أجل سأفعل، وستفعل أنت أيضًا».

وهنا فات بينهما عمود من رمل، ومر وقت طويل قبل أن يستطيعا الكلام أو الرؤية، وهنا عمد ميكى إلى ترتيب الأغنية التي هاجتها الذرات التي كانت تعتمل في فؤاده.

- «وأنا كذلك أبكي ساعاتي المضیعة ولا سيما ساعات الشباب، أبكي الوقت الذي قضيته في الشمس جميعه. ولقد ندمت فعلاً بعد ذلك، وهذا هو سبب قبولى هنا حيث لا شمس ولا ريح ولا نجم من النجوم التي دفعت بي يومًا إلى الجنون. وإنه ليكون من المروع - أليس كذلك؟ - أن أرى من جديد الجوزاء (أوريون)، التي ليست نجمة سيفه الوسطى نجمة من النجوم، وإنما سديمًا مضيئًا، هو البذرة الذهبية للدنا (جمع دنيا) التي ستكون. ولكم كنت أخاف الخريف كلما علمت الجوزاء لأنها كانت تذكرني بالمغامرة وبشبابي. هذا مروع، وإني لأحمد إلى نفسي عدم رؤيتي إياه - بعد - حمدًا لا يقف عند حد».

وصاح الآخر قائلًا: «غير أن الأسوأ من ذلك كان أن أنظر إلى أعلى على يسار الجوزاء وأن أرى التوأمين (ذي توينز)، لقد كان كستور^(١) ورأس هرقل (بولكس) أخوين، أحدهما آدمي والثاني إلهي. ومات كستور، أما رأس هرقل فقد هبط جهنمًا لعله يكون في رفقته».

- «إنه كذلك، فلقد ذهب رأس هرقل إلى جهنم».

- «ثم رثت الآلهة لهما ورفعتهما إلى الأعالي ليمسيا نجمين يعبدهما

(١) كستور: ابنة «جوبيتر» و«اليدا» وتوأم رأس هرقل.

الملاحون وكل المحبين والشباب. وكان زيوس^(١) أباهما، وكانت هيلين^(٢) أختهما التي جاءت بالإغريق ضد طروادة، لقد خشيتهما أكثر مما خشيت الجوزاء».

وسكتا يرقبان سماءهما، ووافقت السماء، ولقد كانا في الأرض رجلين مهذبين مثقفين في وسعهما أن يحتملا الأخف من ألوان العذاب في الحياة الأخرى. وإن ذاكرتهما لتشكلا صورًا شائقة تزيد من أهمهما. وقال ميكى لنفسه: «لن أزيد في الكلام بل سأصمت مدى الأبدية» ولكن الظلام أرغمه على فتح شفتيه، وأخذ يتكلم من فوره.

وسأل: «زدني علمًا بمقام النعيم هذا، هل فيه درجات؟ وهل في سمائنا مراتب؟».

فأجاب الآخر: «هناك سماءان: سماء الخشنيين وسماء الناعمين، ونحن نرقد هنا في سماء الناعمين. وهذا نظام يفني بالغرض؛ لأن الناس جميعًا إذ يكبرون يصيرون إما خشنيين وإما ناعمين».

ولم يكدميكى يتكلم حتى تقشعت السحب، فلما رفع بصره إلى أعالي منحدر الوادي رأى أنه يحيط به عن بعد- جبال حجرية، وعرف- من دون أن يخبره أحد- أن جانبيت ترقد متصلة بين تلك الجبال وأنه لن يراها أبدًا وأن الخلاص لم يكتب لها وأن الظلام أيضًا يسخر منها أبد الآبدين... وكان الذين يرقدون معه هم العاطفيون والمسالمون ودعاة السلام والإنسانية وكل من غلبت عليهم الأخيلة الحادة. أما الذين يرقدون

(١) زيوس: رب الأرباب عند قدماء الإغريق.

(٢) هيلين أميرة أفريقية اشتهرت بجمالها، وهي ابنة ليدا وأخت كستور ورأس هرقل.

مع امرأته فهم دعاة الإصلاح والنسك وذوو النفوس التي تشبه السيف. ورأى ميكى الآن ما كانت تخفيه ضوضاء الحياة، وأنه لا معدى للسنين عن أن تذيب المرء أو أن تزيده صلابة وأن كلاً من (الحب) و(الحق)- اللذين يبدو أنهما يناضلان كالملائكة في سبيل أرواحنا- يحمل بذور فنائنا.

وقال: «ولا شك في أن هذا ناموس يفى بالغرض، فكلاهما وافٍ بسيط. ولكنى أجبني عن سؤال آخر واحد يكتمل نيمي: أي هذين السماءين يؤدي إلى الشباب؟».

فأجاب جاره: «لا هذا ولا ذاك، إذ لا وجود للشباب».

ولم يزد في الكلام، بل استقر في التراب أكثر عمقاً، وكذلك فعل ميكى. ومرت بخاطره ذكريات مبهمة عن رجال ونساء ماتوا قبل سن الرشد وعن صبية وفتيات لم تزف وشباب أنزلوا إلى القبر تحت أبصار والديهم. فأين ذهبت تلك الأقلية التي لم تنضج؟ وما كان يقصد بحياتهم القصيرة؟ وهل تلاشوا نهائياً أم أتيحت لهم فرصة أخرى للاستزادة من التجارب حتى يصبحوا مثل جانيت أو مثله؟ هناك شيء واحد مؤكد: لا وجود للشباب في الجبال ولا في السهل. وربما كانت ذكريات مخلوقات كتلك هي في ذاتها خيال يغذيه السحاب.

وإذ ذاك نضج الوقت لاستعراض حياته على الأرض، فترسم تحليله: كان عمله لطيفاً وكتبه لطيفة وعلاقاته بغيره من الناس كذلك لطيفة. وكان يرى الخير في كل شيء، وهذا في ذاته دليل الفناء. ثم إنه - مهما حدث من أمر - كان مقدراً لكل الناس متسامحاً لين العريكة، ولهذا لازمه

التوفيق... ولقد صدق آدم إذ كانت تلك الحقبة هي حقبة المدنية التي تصلح لهذا النوع من الناس. وقد أخطأ فهم نقد المرء نفسه وعده ترويضاً لها، فأخفى من نفسه ومن الآخرين سيف البطولة الحاد. ومع ذلك حرم من نعمة الترفيه عن نفسه بالتوبة. نعم كانت الغلطة غلطته، أما المصير فغلطة الإنسانية لأن كل إنسان - بتقدمه في السن - يصبح صلباً أو ليناً.

وفكر ميكى: «تلك حياتي، وقد خيم النسيان على كتبي وعفت أعمالي. هذا هو جماع حياتي»، ثم ازدادت كربيته؛ لأن تلك الحياة كانت فيها - مع ذلك - بهجة رواغة لو أنه استقطرها لجاز أن تفيض حلاوة على الأبدية. وكان من بعض الدعابة أن يحاول وأن يترجح أبداً بين النفور والرغبة، ذلك لأن الجحيم ليس فيه شيء نهائي، ولن يتخلى الناس - لدى دخوله - عن كل أمل وإلا لتمتعوا براحة اليأس، على أن نظم قصيدة عن الجحيم خطأ بالنسبة لحقيقتها، وما تصويرها كالثلج أو اللهب إلا وليد خيال الناس الذين يتعشقون الجمال... ورقد ميكى - وهو الشيخ الذي يجوز أن يصبح أكثر شيخوخة - في ذاك الصقع الرملي يتذكر أنه في ذات يوم قد تذكر صقعاً غير رملي... وأيقظته دمدمة الأرواح من حوله، ولاح شيء يضطرب لم يلحظه معها قبل. فقال أحدهم: «عمود رمل» وقال آخر: «ما هو كذلك لأن مصدره النهر».

فاستفهم: «أي نهر؟».

- «أرواح الملعونين تقطن فوقه، ونحن لا نتكلم مطلقاً عن هذا النهر».

- «أعريض هو؟».

- «شديد السرعة واسع العرض».

- «أو يعبره الملعونون إطلاقًا؟».

- «إنهم في حل من أن يعبروه بين الحين والحين، ولسنا نعرف السبب».

ووجد في هذه الإجابات نعمة جديدة كما لو كان رفاقه قد ارتاعوا وأتيحت لهم وسيلة التعبير عن ارتياحهم. وعندما قال: «بعد الاستئذان ليس في مقدورهم أن يلحقوا بنا أي أذى»، أجابوه بقولهم: «إنهم يؤذوننا بالضوء وبإحدى الأغنيات» وبقولهم: «يؤذوننا لأنهم يتذكرون ويحاولون أن يحملونا على التفكير».

- «وما الذي يحملوننا على تذكره».

- «على الساعة التي فيها كنا مثلهم».

وفيما كان يستفهم سمع همس من المناطق المتاخمة تحتهم، وكانت الأرواح تتصايح تصايحًا خافتًا، وسمعهم يقولون: «إنه آت، اطروده وأعيدوه على عقبه إلى النهر، ألزموه بأن يصير شيئًا».

ثم انشق الظلام، وتحطم في روحه نجم من نجوم الألم، والآن فهم، فلقد أتاه عذاب يتضاءل إلى جانبه كل عذاب.

وجاءت الأغنية: «وجدت قبل أن يكون لي حق الاختيار، وجدت قبل أن تنفصل الخشونة عن النعومة، وجدت في الأيام التي فيها كان الحق هو الحب، وما أزال موجودًا».

وارتج السهل جميعًا، غير أنه لم يكن في الوسع تحطيم الغازي، إذ

عندما هجم هو تفرق الهواء وسقطت أعمدة الرمل وغص دربها ببيكاء الشيخوخة.

- «كنت أنا الناس قاطبة، ولكن الناس قاطبة نسوني، وقد بدلت من أجلهم الدنيا تبديلاً جعلهم يؤثرونها. وجاءوني أطفالاً خائفين، ولما علمتهم استخفوا بي على أن الطفولة رؤيا من حولي، والتجربة نسيان بطيء. وأنا أهيمن على الأعوام السحرية، وما أزال».

وناحت الأشباح قائلة: «فيم تقلقوننا! لقد وسعنا أن نطيق عذابنا- إطاقة هي أقصى درجات الاحتمال- حتى ظهر الضوء والأغنية... عد أدراجك إلى النهر مرة أخرى. هذه هي الجنة. لقد كنا نقول إن الظلام هو الله، ولقد تسنى لنا أن نسبح بحمدهما حتى وافيت أنت. وقد أقفل كتاب أعمالنا ففيم فتحه؟ واللعنة حلت بنا منذ ولادتنا. فخلها هناك واتركها أيها المهرج الأكبر. نحن أئمتنا ونعلم ذلك، وهذا المكان هو الموت والجحيم».

ولعلع الصوت قائلاً: «يجيء الموت، وما الموت بحلم أو نسيان، وإنما الموت حقيقة. غير أنني - أنا أيضاً- حقيقة وأنا أنقذ من أشياء. وإني لأرى نهج الأشياء وليس بينها مكان لي، إذ إن العقل والجسد يعادياني، ولهذا أشق النهج شقين وأصطنع لنفسني مكاناً. واتخذت أسماء كثيرة حتى تمكنت من تقويض الجحيم. فإليّ إليّ»، ثم استأنف الكلام في نغمة عدوبتها تفوق الوصف: «إليّ يا من تتذكرون جميعاً، اخرجوا من أبديتكم وادخلوا أبديتي وهذا ميسور؛ لأنني ما زلت في أعينكم في انتظار أن أرى من خلالها وفي قلوبكم في انتظار أن أخفق. والأعوام التي

قضيتها وإياكم تبدو قصيرة، غير أنها كانت سحرية، وإنها لتسبق الزمن».

وصمتت الأشباح، إذ لم يكن في مقدورها أن تتذكر.

«من ذا الذي يرغب في أن يتذكر؟ الرغبة تكفي، وليس للقوة والجمال بين الرجال مُقام. إن الزهرة لتذبل، وإن البحار لتجف في الشمس، وإن الشمس والنجوم جميعاً لتذبل كما تذبل الزهرة. أما الرغبة في أمور كهذي فسرمدية تستطيع أن تنوى. وكل من يرغب فيّ فهو مني».

ثم مات ميكى ميتة ثانية، وفي هذه المرة ذاب من ألم مبرح يلفحه الوهج ويخزه الصوت. غير أنه قال وهو يموت: «لي رغبة أكيدة»، وفي الحال تلاشى الغازي. وكان واقفاً وحده في السهل الرملي، ولم يكن الأمر إلا حلمًا، ولكن ميكى كان واقفاً، فكيف كان ذلك؟ ولماذا لم يفكر قبلاً في الوقوف؟ كان تعساً في جهنم وكان كل ما ينبغي له عمله أن يزايلها إلى مكان آخر... فانتقل إلى أسفل وهناك لم يعد سحاب جهنم يسخر منه، ومستته الأعمدة ثم سقطت، ومر الظلام السفلي فوق رأسه، وجدَّ في السير حتى بلغ شاطئ الغدير الجهنمي. وهنا زلت قدمه وسقط على قطعة من خشب. ولم تكن تلك من المواد المبهمة وإنما قطعة من خشب كانت يوماً جزءاً من شجرة... لم يكد يصطدم بها حتى تحركت وبقبق دونها الماء. هبط السفينة وكان أحدهم يجدف، وقد تسنى له أن يرى من خلال الزبد صفحتي المجدافين تواجهاه. إلا أن المجدف نفسه سترته السحب، وعندما بلغ منتصف البوغاز تباطأ القارب في سيره لأن التيار بدأ يتعرض للجزر، وعلم ميكى أنه لن يكاد يحمل إلى عرض البحر حتى يضيع هباء، إذ لم يكن هناك أمل في خلاص ثان، ولم يستطع الكلام وإنما

كان قلبه يخفق مع دقات المجدافين: واحد، اثنان، ... لقد بذلت جهنم ما وسعها من جهد في خلق الشر، وجاء ما يهتاجنا- مما في الحب والحق من تحريف وحقيقة- جاء كل هذا في أسفل المصب وتدلى القارب دون أن يتحرك، وسمع ميكي لهث التنفس من خلال القصف كما سمع قعقة العضل. ثم سمع صوتًا يقول: «بيت القصيد...» وسقط شيء ثقيل بعيدًا عن جسده وعبر منتصف البوغاز.

وكان هذا مساءً مجيدًا وأسرع القارب- دون تمهيد- ودخل في ضوء الشمس. وكانت السماء صافية، والأرض ذهبًا، والنورس يعلو ويهبط فوق الماء المخدد، على أنه عند الشاطئ طار إلى حيث ترتفع بعض كثران الرمل إلى تلال فخمة، وكانت على الشاطئ المقابل ضيعة أحاط سرادق اللهب بها جميعًا.



التناسق

قالت مس هادون: «لا تخبطي، ويجب أن يكون كل إيقاع معزوفة متناسقًا كعقد اللؤلؤ، وليست حالك كذلك مع أنه لا يحول بينك وبين هذا شيء».

- «إلن، يا أيتها الداية: (نوتتي) الموسيقية عندك».

- «لا ليست عندي، بل عندك نوتتي».

- «فلمن النوتة إذن؟».

وفتشت هادون بين الملفات وقالت جازمة: «إنها نوتة ملدريد. عودي إلى غرف الفاصلة المزدوجة ولا تخبطي».

ورجعت البنات. وعادت الإصبع الصغيرة من يد ملدريد اليمنى تعارك الإصبع الصغيرة من يد إلن على المقام الأوسط.

ثم قالتا: «لا يمكن عزفها، والرجل هو الذي أخطأ التدوين».

وقالت الآنسة هادون: «يمكنك يا إلن أن تؤدي في سهولة إذا لم يطل عزفك إلى مثل هذا الحد».

ودقت الساعة الرابعة، وذهبت ملدريد وإلن وحل محلهما روز وإيند

وكان أدائهما للمعزوفة أسوأ من أداء ملديريد وأقل سوءاً من أداء إللن. وفي الرابعة والربع جاءت مرجريت وجين وكان أدائهما أسوأ من أداء روز وإيند وأقل سوءاً من أداء إللن. وفي الرابعة والنصف جاءت دولوريس وفيولت وكان أدائهما أسوأ من أداء إللن. وفي الخامسة إلا ربعا ذهب مس هادون لتناول الشاي مع المديرة التي أبانت عن سبب رغبتها في أن تحفظ تلميذاتها جميعاً المعزوفة الثنائية - الأداء نفسها، إذ إنها جزء من طريقتها في التنسيق، وقد اختارت المدرسة لهذا العام مبحثاً واحداً - واحداً ليس غير - وهو نابليون، على أن تكون الدراسات كلها متصلة بموضوعه. وعلى هذا الأساس كانت الطالبات تدرسن في مقرر النصوص - فيما عدا اللسان الفرنسي والتاريخ - الشعر السياسي لـ (ورد زورث)، وفي الأدب تطالعن مقتطفات من (الحرب والسلام)^(١)، وفي الرسم تنقلن شيئاً عن دافيد وفي أشغال الإبرة «تصممن» أثواباً إمبراطورية الطراز (أمبير) أما فرقة الموسيقى فتتمرن - بطبيعة الحال - على سيمفونية^(٢) إيرويكاً لبتهوفن^(٣) التي بدأ في تلحينها تكريماً للإمبراطور (وإن لم يتمها)، وهتف عدد من المدرسات - وكن يتناولن الشاي - بهوايتهن التناسق وأثنين على تلك الطريقة، فالتناسق يزيدهن - كما يزيد التلميذات - حباً في العمل. غير أن مس هادون لم تجب إذ لم يحدث في يومها تناسق ولم يكن في مقدورها فهم السبب. وكان قصارى علمها أنها آخذة في الكبر وأن تدريسها الموسيقى يسوء باطراد، وأنها تسائل نفسها متى تكشف المديرة هذه الحقيقة وتخليها من العمل.

(١) الحرب والسلام: قصة كبيرة لتولستوي تبين كيف غزا نابليون روسيا وباء بهزيمة نكراء.

(٢) يلاحظ في السيمفونية انساق الأصوات وتآلفها مع الوحدة الكاملة.

(٣) بتهوفن: موسيقار ألماني كبير (١٧٧٠ - ١٨٢٧).

وفي غضون ذلك الوقت كان بتهوفن في أعلى عليين يجلس تحفّ به كتيبه وقد صفوا- فوق سحب أصغر- كل عند رتبته. وكان كل منهم يدون في دفتر من دفاتر الحسابات الجارية. أما الذي وضع على دفتر حساباته عنوان (سيمفونية إيرويكّا) وهي تلك التي نظم كارل مولر عزفها من أربع أياد- أما هذا فكان يدون الملاحظات الآتية:- الساعة ٤٥, ٣ ملديريد وإلّن وقادت الفرقة مس هادون- ٤ روز وإيند وقادت الفرقة مس هادون- ١٥, ٤ مرجريت وجين وقادت الفرقة مس هادون- ٣٠, ٤...».

وقاطع بتهوفن مستفهمًا: «ومن تكون مس هادون تلك التي تواتر اسمها كدق الطبلّة؟».

- «فسرتك وشرحتك سنوات طوالًا».

- «وفرقتها الموسيقى؟».

- «صبيات من صفوة الطبقة الوسطى يؤدين الإيرويكّا في حضرتهن طوال النهار من كل يوم، ونغمها لا ينقطع أبدًا وهو يهفو من خارج النافذة كبخور مقيم الشذى ويطرق في الشارع آذان الرائحين والغادين».

- «وهل يؤدين بإدراك حسن؟».

ولما كان بتهوفن أصم استطاع الكاتب أن يجيب بقوله: «إدراك قلبيّ بالغ. ولقد كانت إلّن في وقت ما أبعد عن روحك من الأخريات، غير أن حالها لم تصبح كذلك منذ وصلت دولوريس وفولت».

- «ألهمتها الرفيقات الجديّدات، كما فهمت».

وصمت الكاتب.

واستأنف بتهوفن الكلام قائلاً: «أوافق. وآية ذلك أنني أصدر مرسوماً بأن تسمع مس هادون - وأفراد فرقتهما وكل من في بيتهن - في هذه الليلة أداء متقناً لمقامتي الرباعية الصغرى».

وفيما كان المرسوم يدون وفيما كان الموظفون يتساءلون عن كيفية تنفيذه أخذ مشهد آخر أبهى رواء، يجري في مكان آخر من عليين، هنالك جلس نابليون يحف به كتيبه الذين أربى بهم العدد إلى درجة أن عروس الفضاء الأقصى لم تكن - في ظاهر الأمر - لتفوق في حجمها سحباً صغيرة مُعلّمة (مخططة) كأنها جلد النمر، وكانوا منهمكين في قيد كل ما أومئ به في الدنيا لحساب مخدومهم، وذلك عمل سبق له تدريبهم عليه بنفسه وكان - كلما انقضت بضع لحظات - يسألهم: «وما آخر دور لنا؟».

فما كان من الكاتب الذي عنوان سجله (احترامات وردزورث) إلا أن أجاب بقوله: «الساعة ٥، ملديد وإللن وروز وإيند ومرجريت وجين تلين جميعاً القصيدة (المكونة من ١٤ بيتاً) المعروفة بـ (لقد ملكت في يوم ما الشرق البديع). أما دلوريس وفولت فقد حاولتا أن تتلواها ولكنهما أخفقتا».

قال الإمبراطور: «في تلك القصيدة يمجد الشاعر إخضاعى جمهورية فينيسيا، وقد غلبت عظمة الموضوع مشاعر فيوليت ودولوريس. ولقد كان إخفاقهما أمراً طبيعياً... والدور الذي يتلوا ذاك؟».

قال كاتب آخر: «الساعة ١٥ , ٥ ملدريد وإلن وروز وإيند و مرجريت وجين يخططن رسمًا للرجل اليسرى الأمامية لمضجع بولين بونابرت^(١) أما دولوريس وفيولت فما زلتا تحفظان القصيدة».

فقال نابليون: «يخيل إليّ أن سبق لي سماع هذه الأسماء الفاتنة». وقال كاتب ثالث: «أسماءهن مقيدة في سجلي كذلك. ولك أن تتذكر يا مولاي أنهن أدين- منذ ساعة أو نحوها - إيرويكيا لبتھوفن...». وأتم الإمبراطور الحديث قائلاً: «إيرويكيا التي كتبت تكريمًا لي. موافق».

وقال كاتب رابع: «في الساعة ٣٠ , ٥ غني المرسيز^(٢) كل الجماعة باستثناء دولوريس وفيولت اللتين أرسلتا لتبريا قلميھما الرصاصين». فصاح نابليون وقد وقف على قدميه: «لم يكن يعوزني إلا هذا. وعند أولئك الأوانس طموح حقيقي نحو المجد. وإني - مكافأة لهن - أصدر مرسومًا بأن تشاركن - في صباح الغد - مع كل من في بيتھن في انتصار أوستر ليتز^(٣)».

وقيد المرسوم.

(١) بولين: شقيقة نابليون بونابرت (١٧٨٠ - ١٨٢٥) ولدت في أجاكسيو بكورسيكا، تزوجت الجنرال كلرك، وبعد وفاته تزوجت كمي بورجيزي وصارت دوقة جواسالا.

(٢) المرسيز: النشيد الذي ألفه ولحنه في ١٧٩٢ روجيه دي ليل والذي عم حتى أصبح النشيد الوطني لفرنسا كلها.

(٣) أوستر: ليتز قرية في مورافيا قهر فيها نابليون النمساويين والروس في ٢ من ديسمبر سنة ١٨٠٥ وتسمى معركة الأباطرة الثلاثة وتعد من مفاخر نابليون الحربية.

وخصص منتصف الساعة الثامنة للاستعداد للأُمسية، واستقرت الفتيات في اكتتاب لأن النظام الجديد أضجرهن حتى كادت تنهمر دموعهن. غير أنه حدث شيء عجيب: مرت بالمدرسة فرقة من الخيالة تتقدمها فرقة موسيقية من أقدر الفرق عزفاً، فملاً الفرح رؤوسهن حتى أفقدهن الوعي، فزابلن مقاعدهن وغنين وتقدمن ورقصن وقفن وصنعن من الورق أبواقاً واتخذن من السبورة السوداء نقارية (طبلّة صغيرة). وقد أمكنهن صنع هذا لأن مس هادون- التي كان من واجبها أن تستمر في الإشراف- قد زابلت الغرفة لتأتي لهن بشجرة نسب ماري لويز^(١) إذ إن مدرسة التاريخ طلبت إليها أن تستحضر هذه الشجرة بصفة خاصة وتجهيزها للفتيات ليتفحصنها، ولكنها نسيتهن. وفكرت مس هادون وهي تمديدها إلى الشجرة: «ما أنا بنافعة على الإطلاق»، وكانت الورقة، مع أوراق أخرى، ملقاة تحت محارة حصلت عليها المديرة من سنت هيلين: «أنا غبية ومتعبة وعجوز، ليتني مت قبل هذا». وبعد أن فكرت هكذا رفعت المحارة إلى أذنها بطريقة آلية فلطالما صنع معها مثل ذلك- وهي صغيرة- أبوها، وكان بحاراً».

سمعت البحر، سمعت أول الأمر همساً على طبقات الطين، أو ثرثرة على الصخور، أو تكسر أمواج قصيراً مجعداً على الرمل أو هدير موجة طويلاً على الصخر أو أصوات المحيط المتوسط حيث تكدس المياه نفسها كالجبال وتتفرق في الوهاد، أو عندما يسقط الضباب ويعلو البحر

(١) ماري لويز: ابنة إمبراطور النمسا فرانسوا الثاني تزوجها نابليون سنة ١٨١٠ وبعد وفاته تزوجها الكونت دي نابيورج ثم الكونت دي بمبل (١٧٩١-١٨٤٧).

ويهبط في رفق، أو عندما تبلغ طراوة الجو حدًا يجعل الأمواج الكبيرة والأمواج الصغيرة تعيش في الأمواج الكبيرة تغني جميعًا، تبحث عن المرج ويرسل بعضها إلى بعض قبلاً من الزبد الأبيض. سمعتها جميعًا ولكنها في النهاية سمعت البحر ذاته، وعلمت أنه ملك لها إلى الأبد.

قالت المديرية: «مس هادون! مس هادون! كيف تأتي أنك لا تشرفين على الفتيات؟».

فرفعت مس هادون المحارة من فوق أذنها وواجهت رئيستها بعزم مطرد النمو.

واستأنفت المديرية الكلام قائلة: «في وسعي سماع صوت إللن وإن كنا في الطرف الآخر من البيت حتى كدت أحسب أننا في دروس الإلقاء، فأرجوك يا مس هادون أن تضعي مثقلة الورق، تلك، في الحال وتعودي إلى واجباتك». وأخذت المحارة من يد مدرسة الموسيقى بغية وضعها على رف الورق، ولكن المثل الذي أمامها دفعها إلى أن ترفعها إلى أذنها وإلى أن تصغي هي أيضًا على غرارها.

وسمعت حفيف الشجر في غابة لم تكن من الغابات التي سبقت لها معرفتها، ولكن الناس الذين تعرفهم كانوا يتجولون فيها راكبين، ينادي بعضهم بعضًا في رفق مستخدمين الأبواق. وكان الوقت مساء وكانوا يصطادون والحيوانات تخشخش بين الحين والحين، وفي ذات مرة ترامى إلى الأسماع نداء استلفات ومطاردة، إلا أن أصحابها كان ركوبهم هادئًا في أغلب الأحيان، وتغلغل وإياهم في كل ناحية وإلى الأبد.

وفيما كانت تصغي إلى هذا بإحدى الأذنين أخذت مس هادون تقول
في الأخرى ما يلي:

«لن أعود إلى واجباتي، وقد أهملتها منذ جئت إلى هنا، والإهمال
مرة أخرى لن يؤثر كثيراً. أنا لست موسيقية، ولقد خدعت التلميذات
ووالديهم وخدعتك كذلك. لست موسيقية ولكني انتحلت هذه الصفة
لأكسب مالا. ولست أعلم بما سيحدث لي الآن، ولكن لا قبل لي على
الاسترسال في الادعاء، وأنا أعلمك بأنني مستقيلة بمجرد أن تنقضي
المهلة المحددة بعد هذا الإعلام».

دهشت المديرية عندما علمت أن مدرسة الموسيقى ليست
موسيقية. ولقد استمر صوت (البيانوات) سنوات طوآلاً فحسبت أن كل
شيء على ما يرام، ولو أن الظروف كانت عادية لأجابت بالفاظ جارحة،
ولكنها امرأة مهذبة، ثم إن أنين الغابة حداها على أن تجيب بقولها: «ليس
الآن يا مس هادون، ولنعد إلى الكلام في الموضوع صباح الغد. والآن
أريدك على أن تفضلتي وترقدي في حجرة جلوسي، وسأبشر أنا إعداد
الفتيات بدلاً عنك، ووجودي معهن من دواعي راحتي في كل وقت».

وعلى هذا رقدت مس هادون، وفي أثناء نعاسها عاودها روح البحر،
وذهبت المديرية - يملأ رأسها أنين الغابة - إلى غرفة المذاكرة وسعلت
ثلاثاً قبل أن تفتح الباب، وكانت الفتيات جميعاً على مكاتبهم عدا
دولوريس وفيولت ولكنها إذ ذاك اصطنعت عدم التنبه إلى ذلك. وبعد
برهة ذهبت لاستحضار شجرة نسب ماري لويز التي نسيتها، وفي أثناء
تغيبها مر الخيالة مرة أخرى.

وفي الصباح قالت مس هادون: «ما زلت راغبة في الذهاب، ولكن ليتني تريثت حتى أتحدث إليك. ولقد وصلتني أخبار غير عادية: منذ سنوات طويلة خلت أنقذ والذي رجلاً من الغرق، والآن مات ذلك الرجل وخلف لي كوخاً على شاطئ البحر كما خلف لي نقوداً لمعاشي، فلم أعد في حاجة إلى العمل، ولو أنني انتظرت حتى اليوم لكنت أكثر احتراماً لك. و....»، واحمرت وجنتاها خجلاً ثم قالت: «ولننسي».

فهزتها المديرية بكلتا يديها وقبلتها قائلة: «لقد سرني أنك لم تريثي، ومقولك بالأمس كان كلمة حق، كان نداءً واضحاً خلال الأجمة وإني لأود أنا أيضاً...»، وتوقفت ثم قالت: «على أن الخطوة التالية هي منح المدرسة إجازة يوم كامل».

وعلى هذا استدعيت الفتيات، وألقت المديرية خطاباً، وألقت مس هادون خطاباً آخر، وأعطتهن جميعاً عنوان الكوخ ودعتهن إلى زيارتها فيه. وأرسلت روز إلى بائع الحلوى لشراء المثلجات، وإيند إلى الخضري لشراء الفاكهة، وملدريد إلى بائع الأشربة لشراء شراب الليمون، وجين إلى الإسطبلات العامة لاستئجار عربات كبيرة. وركب الجميع في الريف مسافة طويلة جداً ولعبن ألعاباً في غير نظام، فكانت كل واحدة تستخفي ولا أحد يبحث، وكل واحدة تضرب الكرة ولا أحد يرد الضربة، ولم يميز أحد في جانب من يلعب. ولم تحاول مدرسة واحدة إرشاد أحد. وربما حدث أن الواحدة تشترك في لعبتين في وقت معاً أو أن تكون مع إله الأدغال في ناحية ومع إله الرعاة في ناحية أخرى. أما الكلام عن تنسيق الألعاب فلم يذكر قط أو تراه ذكر على سبيل السخرية، مثال

ذلك أن إلّـن عارضته بأغنية من تأليفها هذا نصها:

«جلس بوني المسن على فرسه الصغيرة يأكل نصيبه

«من فطيرة عيد الميلاد المحشوة، وأدخل فيها إبهامه

«وسحب برقوقة وهو يقول: ما أروعني من فتى».

وظفقت الفتيات ينشدن هذه الأغنية ثلاث ساعات كاملات دون توقف.

وفي آخر النهار جمعت المديرية كل الحاضرات بحيث أحطن بمس هادون وبها، وبذلك حقّت بها وجوه سعيدة منهوكة، وقد أخذت الشمس تغرب وأخذ التراب الذي أثاره النهار يهبط... قالت وهي تضحك في شيء من الخجل: «والآن أيتها الفتيات، ألا يبدو أنكن تقدرن طريقي في التنسيق؟».

فأجبن بقولهن: «ما نحن بمقدرات!» و«لا، ليس كثيرًا!» وما إلى ذلك.

واستأنفت المديرية الكلام قائلة: «حسن، ينبغي لي أن أعترف بأنني أنا أيضًا لم أعد أوّمن بهذا النهج. وأنا، في الحقيقة، أمقته. ولكنني اضطررت إلى اتباعه لأن هذا النوع من الأشياء يروق وزارة التربية».

وهنا ضحكت المدرسات والفتيات جميعًا وهللن كما ضحكت دولوريس وفولت اللتان خالتا أن مجلس وزارة التربية إن هو إلا لعبة جديدة يشترك فيها كل منهن في دورها.

والآن من الجائز أن يتبادر إلى الذهن في الحال أن هذا الأمر الشائن

لم يرغب عن نظر ميفيستوفيل^(١)، فقد بحث في أول فرصة عن كرسي
الدينيوية وهو يحمل قرطاسًا ملفوفًا بعنوان: «إني أتهم!» ولقي في
منتصف طريقه إلى أعلى الملاك روفائيل الذي استفهم منه في أسلوبه
المؤنس هل يبتغي مساعدته إياه على صورة ما.

فأجاب ميفيستوفيل: «لا، ليس في هذه المرة، وشكرًا، إذ إن هذه
قضية تشغلني الآن حقًا».

فاقترح كبير الملائكة قائلاً: «قد يكون من الخير أن تعرضها عليّ.
وإنه لمما يدعو إلى الرثاء أن تطير إلى ذلك المدى البعيد من دون طائل،
وقد بؤت بخيبة الأمل في قضيتك السابقة ضد «أيوب»».

— «أوه، لقد كان هذا شيئًا آخر».

— «ثم إن هناك فاوست. وهناك صدر الحكم ضدك في النهاية بصفة
قاطعة، هذا إذا كنت أذكر جيدًا».

— «أوه، لقد كان ذلك شيئًا آخر تمامًا. كلا، فأنا على يقين هذه المرة.
وفي مقدوري أن أثبت لك تفاهة العبقرية. فالعظماء يزعمون أن الناس
يفهمونهم، وهذا ليس صحيحًا، كما أن الناس يزعمون أنهم يفهمونهم
وهذا ليس صحيحًا كذلك».

قال روفائيل: «إذا وسعك أن تثبت هذا فيكون حقًا أن قضية تشغلك،
إذ إن المفروض في هذا الكون أنه مبني على التناقض وأن المخلوقات
جميعًا تتسق بعضها ببعض، كل بحسب مقدور».

(١) ميفيستوفيل: رمز الشيطان، زاد الناس به معرفة الشاعر الألماني جوته في تمثيلية فاوست.

«اسمع (التهمة الأولى): يصدر بتهوفن أمره بأن تستمع طائفة معينة من النساء إلى قطعته الرباعية (أ) ولكن بعضهن استمعن إلى فرقة موسيقية والبعض الآخر إلى محارة. (التهمة الثانية): يصدر نابليون أمره بأن تشترك أولئك النساء في انتصار أوستر ليتز. والنتيجة: وصية تتبعها وليمة مدرسية. (التهمة الثالثة): تؤدي النساء سيمفونية بتهوفن، وبما أنه أصم وبما أن في خدمته كتبة غير أمناء، فهو يحسبهن مؤدينها في إدراك عميق. (التهمة الرابعة): لكي يترك الأثر الطيب في نفوس أعضاء مجلس وزارة التربية، تدرس النساء نابليون. وهو مدفوع إلى أن يحسب أنهم يدرسنه دراسة صحيحة. وعندي اتهامات أخرى، ولكني أكتفي بما فات... إن العباقره والرجال العاديين لم يتسقوا قط منذ قتل قابيل هابيل». وقال روفائيل في عطف: «والآن، ما قضيتك أنت؟».

قال ميفيستوفيل متلعثمًا: «قضيتي! ما بالك! تلك هي قضيتي».

فصاح الآخر قائلاً: «أيها الشيطان الساذج، أيها الروح المخلص وإن يكن جهنميًا، عد إلى الأرض واذرعها من جديد ذهابًا وجيئة، وذلك، يا ميفيستوفيل لأن هؤلاء الناس قد اتسقوا. لقد تناسقوا عن طريق الينابيع المشتركة للألحان العذبة والنصر».



عروس البحر

باستثناء أشياء قليلة لست أعرف شيئاً أجمل من مفكرتي - عن الجدل في موضوع الاعتقاد بالله - عندما اتخذت سبيلها إلى أسفل مياه البحر الأبيض المتوسط. لقد غطست كأنها قطعة من الأردواز الأسود، ولكنها سرعان ما انفجرت عن أوراق خضراء شاحبة ترتعش في زرقه. ولم تثبت المفكرة على حال: فهي تارة تستخفي، وطوراً تتحول قطعة من مطاط سحري يمتد إلى ما لا نهاية، وأنا تعود كتاباً، غير أن هذا الكتاب يفوق في حجمه كتاب المعرفة الشاملة. وقد زادت هيئتها غرابة عندما بلغت القاع ورحبت بها هناك قبضة من رمل مسحوق حجبته عن الرؤية، غير أنها عادت إلى الظهور جد سليمة - وإن ألفت بها رعدة بسيطة - وقد رقدت على ظهرها محتشمة تعبت بين أوراقها - في تملل - أصابع خفية.

قالت عمتي: «آسف كثيراً على أنك لم تتم عملك بالفندق فتصبح حراً تستمتع بالرحلة. ولو أنك فعلت لما حدث هذا إطلاقاً».

وفيما كان راعي الكنيسة يشدو: «سيتحول كل ما فيه إلى شيء ثمين عجيب».

قالت أخته: «لم ذلك؟ لقد غاص في الماء، أما البحارة فقد ضحك أحدهم بينما انتصب الثاني وشرع في خلع ملابسه دون كلمة تحذير واحدة. فصاح العميد (أمير الآلاي) قائلاً: «بحق موسى المطهر، هل جن الفتى؟».

قالت عمتي: «نعم، اشكره يا عزيزي.. أريد أن أقول: قل له إنه كريم جداً، ولكن ربما صح أن يؤجل استحضار الكتاب إلى أجل آخر».

فقلت متذمراً: «مهما يكن من أمر فأنا في أشد الحاجة إلى كتابي، إنه يفيدني في المبحث الذي أعده لرسالة الحصول على درجة الزمالة. وإلى أن يحل الأجل الآخر الذي تقولين به، لن يبقى من الكتاب شيء الكثير».

قالت إحدى النساء من تحت شمسيتها: «عندي فكرة: فلنترك هذا الفتى ابن الطبيعة يغطس ابتغاء الكتاب، ولنذهب نحن إلى الغار الآخر. وفي وسعنا أن نضعه إما فوق هذه الصخرة، وإما على سلسلة الصخور الداخلة في الغار. وسيكون هو مستعداً عندما نعود».

وبدا أن الفكرة صائبة، فقلت، محسناً إياها، بأنه قد يجمل بي أن أتخلف أنا أيضاً لتخفيف حمولة السفينة، وعلى هذا أودعنا كلانا خارج الغار الصغير على صخرة كبيرة- أشرقت عليها أشعة الشمس- تحرس مظاهر الانسجام في الداخل. ولننعتها بالزرقة وإن غلب عليها الإيحاء بروح النظافة. فقد سمت النظافة من مصاف الشؤون المنزلية إلى مراتب الأمور العلوية الجليلة. وقد تجمعت نظافة البحر وأخذت تشع ضوءاً متألقاً. وعند الغار الأزرق في كابري أكبر كمية من الماء الأزرق وليس

من الماء الأكثر زرقة. وهذا اللون وذاك الروح ورثهما كل كهف في البحر الأبيض يتسنى للشمس أن تضيئه وللبحر أن يفيض عليه.

لم يكد القارب يقلع حتى أدركت إلى أي حد عدمت تبصري عندما توكلت على صخرة منحدره فوقها رجل مجهول من صقلية، وما هي إلا رجفة ارتجفها حتى دبّت فيه الحياة وحتى قبض على ذراعي قائلاً: «اذهب إلى نهاية الغار أرك شيئاً جميلاً».

وجعلني أثب من الصخرة إلى الطنف الصخري عبر شдох من شدوخ البحر يخطف بريقه الأبصار وسحبني بعيداً عن الضوء حتى ألفتيني واقفاً على شاطئ البحر الرملي الطفيف الذي بزغ في الطرف الأقصى كأنه الفيروز المسحوق. وهناك تركني مع ملابسه وعاد في سرعة رشيقة إلى ذروة صخرة الدخول. ووقف لحظة عارياً في الشمس الساطعة يغض طرفه صوب النقطة التي رقد فيها الكتاب. ثم رسم على صدره علامة الصليب ورفع يده فوق رأسه وغطس.

ولئن كان الكتاب عجباً من العجب فإن الرجل قد فاق كل وصف حتى لكأنه تمثال فضي حي تحت الماء ينبض بالحياة بخلجات مصحوبة بزرق وخضرة.. شيء بالغ الحكمة يبعث على السعادة. ولكن كان محالاً أن يبزغ من الأعماق وهو يقطر وقد لوحته الشمس قابضاً بأسنانه على المفكرة عن الجدل في موضوع الاعتقاد في الله.

ومن المألوف أن يتطلع المستحمون إلى جزاء. وكان على يقين - مهما أجزلت له من عطاء - أنه يتغني المزيد. ولقد عفت الجدل في مكان هو على هذا القدر من الروعة والعزلة. وقد خفف عني قوله في أسلوب

المتحدثين: «في مكان كهذا قد يستطيع المرء أن يرى عروس البحر».

فابتهجت به لأنه على هذا المنوال وصل إلى حد الإدلاء بحديث عن المعالم التي تحيط به... وتركنا معًا في دنيا سحرية بصرف النظر عن الشيء العام الذي يسمونه الواقع.. دنيا زرقاء أرضها البحر، وجدرانها الحجرية وسقفها الحجري ترتعش مع انعكاسات البحر. هنا في هذا المكان لا يطاق من الأشياء إلا ما كان عجبًا... بهذا الروح رددت كلماته: «يستطيع المرء في سهولة أن يرى عروس البحر».

وفيما كان يرتدي ملابسه أخذ يرقبني متقصيًا، وكنت أفصل أوراق المفكرة المتلاصقة، بعضها عن بعض.

وقال آخر الأمر: «لعلك قرأت الكتاب الصغير الذي طبع في العام الماضي، ومن ذا الذي كان يظن أن عروس البحر التي عندنا تسر الأجانب؟».

(قرأته فيما بعد. وليس من غير الطبيعي أن تكون بياناته عن عروس البحر ناقصة مع أنه احتوى صورة لتلك المخلوقة الصغيرة - مطبوعة على قالب خشبي - كما احتوى كلمات أغنيها).

وأوعزت إليه بأن يدلي إليّ ببيان عنها إذ قلت له: «هي تخرج من هذا الماء الأزرق وتجلس على صخرة المدخل وتضم شعرها بعضه إلى بعض، أليس كذلك؟».

ولقد أردت أن أستدرجه إلى الكلام لأن جده المفاجئ استرعى نظري ولأن في ملاحظته الأخيرة التي حيرتني ما يوحى بالسخرية.

فاستفهم: «هل سبقت لك رؤيتها؟».

- «مرارًا وتكرارًا».

- «أما أنا فلم تسبق لي رؤيتها قط».

- «ولكن هل سمعتها تغني؟».

فارتدى سترته وقال وقد عيل صبره: «كيف يتسنى لها أن تغني تحت الماء؟» ومن ذا الذي يستطيع ذلك؟ إنها تحاول أحيانًا فلا يخرج منها غير الفقاقيع».

- «لعلها تتسلق الصخر».

وعاود الهتاف مغضبًا: «وكيف يتسنى لها ذلك؟ لقد بارك القساوسة الهواء فلا يستطيع تنفسه، وباركت الصخور فلا تستطيع الجلوس عليها. أما البحر فلا أحد يستطيع أن يباركه؛ لأنه بالغ السعة دائم التغير، ولهذا السبب تعيش في البحر».

ولم أتكلم.

وهنا ظهر على وجهه تعبير وديع، ونظر إليّ كأنما شيء يدور في خلدته، وعندما خرج إلى صخرة المدخل تفرس في الزرقعة الخارجية ثم عاد إلى الغبش الذي كنا فيه وقال: «لا يرى عروس البحر - عادة - إلا صفوة القوم».

لم أعلق، وبعد أن انقضت فترة صمت استأنف الكلام قائلاً: «هذا شيء جد غريب، والقساوسة لا يعرفون له تعليلًا؛ ذلك لأنها شريرة بطبيعة الحال، وليس أذاها مقصورًا على الذين يصومون ويذهبون إلى

القداس، بل يتعداهم حتى إلى أولئك الذين لا يزيدون على كونهم أناسًا طبيين في حياتهم اليومية. على أن أحدًا من القرية، من بين الجيلين الآخرين، لم يرها، وهذا ما لا أستغربه. ونحن جميعًا نرسم الصليب على صدورنا قبل دخولنا الماء وإن لم تكن لذلك ضرورة. وكنا نزعم أن يوسف أكثر أمنًا على نفسه من غالبية الناس، فلقد أحببناه وأحب منا الكثيرين، ولكن هذا شيء غير أن يكون المرء طبيبًا».

واستفهمت عمن كان يوسف.

«في تلك السنة بلغت السابعة عشرة من عمري وبلغ أخي العشرين وهو أقوى بكثير. وكان ذاك هو العام الذي فيه بدأت وفود الزائرين الذين إليهم يرجع الفضل في الرخاء الوفير وفي إحداث تغييرات كثيرة بالقرية. وأذكر بوجه خاص سيدة إنجليزية من أسرة نبيلة جاءت وألفت كتابًا عنها، وإليها يرجع تكوين نقابة الإصلاح التي توشك أن تصل بين الفنادق وبين المحطة بسكة حديد جبلية».

فقلت ملاحظًا: «لا تحدثني عن تلك السيدة، هنا في الداخل».

«وفي ذاك اليوم ذهبنا بها وبأصحابها ليشاهدوا الكهوف، وفيما كنا نجدف تحت أجرف (جمع جرف) الجبل بالضبط مددت يدي - كما قد يصنع المرء - وأمسكت بسرطاني مائي (كابوريا) ونزعت مخالبه وقدمته على أنه تحفة، فزمجرت السيدات، ولكن سيدًا سره هذا الأمر ومد إلي يده بنقود. ولما كنت عديم التجربة تمنعت قائلاً: «بحسبي مكافأة سرورك» فغضب مني كل الغضب يوسف - الذي كان يجدف من ورائي - ومد يده إلي ولطمني على صفحة فمي لطمة جعلت إحدى أسناني تجرح

شفتي وتدميها، وحاولت أن أرد له اللطمة ولكنه كان أسرع مني حركة، فلما مددت يدي إليه لكمني تحت إبطي لكمة جعلتني أفقد القدرة على التجديف لحظة. وصخبَت السيدات أيما صخب.. وسمعت فيما بعد أنهن كن يدبرن إبعادي عن أخي وتدريني لأكون نادلاً (جرسوناً)، ومهما يكن فإن تلك الرغبة لم تتحقق إطلاقاً.

ولما بلغنا الكهف - لا الذي في هذا المكان بل كهفًا آخر كبيرًا - أظهر السيد رغبة ملحة في أن يغطس أحدنا وراء قطع النقود التي تلقى في الماء - وهي رغبة قابلتها السيدات بالرضى ويصدر ذلك عنهن أحيانًا - فأبى علينا يوسف، الذي أدرك مدى سرورهم برؤيتنا في الماء، أبى علينا أن نغطس إلا وراء العملات الفضية، فرمى السيد بقطعة من ليرتين.

ولمحنني أخي - قبل أن يقفز بلحظة - واضعًا يدي على كل مكان الرضة^(١) باكيًا إذ لم أحتملها، فضحك قائلاً: «على أي حال لن أرى عروس البحر في هذه المرة!». ودخل الماء من دون أن يرسم على صدره علامة الصليب، ولكنه رآها».

وتوقف فجأة عن الحديث وتقبل لفيفة تبغ، ورقبت أنا صخرة المدخل الذهبي والجدران المرتعشة والمياه السحرية التي تنبثق منها الفقايع بلا انقطاع.

وأخيرًا أسقط في الماء رماد لفيفته الساخن وحول رأسه قائلاً: «صعد من دون أن يلتقط العملة الفضية»، وسحبناه إلى داخل القارب،

(١) الرضة: الدفة وجمعها رضوض.

وكان ضخمًا إلى حد بدا معه أنه يملؤها، وكان مبتلاً إلى درجة أننا لم نستطع مساعدته في ارتداء ملابسه.. وأنا لم تسبق لي رؤية رجل مبتلاً إلى مثل هذا الحد.. وجدّنا- أنا والسيد- عائدين، وغطينا يوسف بخيش وأسندناه إلى مؤخر القارب.

فتمتت قائلاً: «فهو إذن قد غرق» وظننت أن ذلك كان بيت القصيد. فصاح مغضباً: «كلا، لم يكن قد غرق، لقد رأى عروس البحر، وقد قلت لك ذلك».

وأمسكت مرة أخرى عن الكلام.

- «وأويناه إلى الفراش وإن لم يكن مريضاً، وجاء الطبيب وتقاضى نقوداً وجاء القس ورشه بالماء المقدس، ولم تنجم عن ذلك أي فائدة، فلقد كان بالغ الضخامة كساحة من البحر، وقبّل عظام إبهام سان بياجيو التي لم تجف إطلاقاً حتى حلول المساء».

فقلت مجترئاً: «وكيف كانت هيئته؟».

كأي امرئ رأى عروس البحر، ولئن كنت قد رأيتها «مرارًا وتكرارًا» فكيف يتأتى أنك لا تعرف... لقد كان بالغ التعاسة لأنه عرف كل شيء. ولقد كان كل شيء حي يبعث فيه التعس لأنه يعرف أن هذا الشيء مائت يومًا لا محالة، وكان النوم هو كل ما يهمه فعلة.

وانحنيت على مفكرتي.

- «ولم يشتغل، ونسي أن يأكل، ونسي هل هو مرتدّ ملابسه.. ووقع عبء العمل كله على عاتقي، واضطرت أختي إلى الخروج للخدمة.. ولقد حاولنا أن نحوله إلى شحاذ إلا أنه كان أقوى بنية من أن يستدر

العطف، ولم يكن من الميسور الادعاء بأنه أبله لأن عينيه لا تنمان على أنه كذلك.. كان يقف في الشارع ناظرًا إلى الناس، وكلما تمادى في النظر إليهم زاد تعسه، فإذا ولد طفل غطى وجهه براحتيه، وإذا تزوج اثنان ملكته القسوة وبعث في العروسين الرعب إذ يخرجان من الكنيسة، ومع ذلك كله فمن كان يصدق أنه يقدر على تزويج نفسه! ولقد تسببت في ذلك شخصيًا.. كنت أقرأ في الجريدة كيف أن فتاة في راجوزا جنّت من كثرة الاستحمام في البحر، فانبرى لها يوسف وبعد أسبوع حضر الاثنان.

لم يخبرني بشيء قط. ولكن يبدو أنه ذهب إلى بيتها رأسًا واقتحم حجرتها وحملها وانطلق بها. والفتاة ابنة صاحب منجم موسر، وهنا تستطيع أن تتصور ما يتهددنا. جاء أبوها ومعه محام قدير ولكنهما أخفقا في صنع أي شيء كما أخفقت أنا.. وطفقا يجادلان ويتوعدان، غير أنهما كان عليهما آخر الأمر أن يعودا أدراجهما. ولم نخسر نحن شيئًا، أقصد شيئًا من المال. وذهبنا بيوسف ومارية إلى الكنيسة وعقدنا عقدهما، أوه، يا له من عرس! بعدما انتهى القسيس من العقد لم يتفوه بأية دعاية ثم إن الأطفال قذفونا بالحجارة لدى خروجنا.. وأظن أنني كنت أبيع عمري ثمنًا لإسعادها ولكني - كما يحدث دائمًا - لم أستطع أن أصنع شيئًا.

- «فهل كانا تعسين معًا إذن؟».

- «إنهما يتبادلان الحب. ولكن الحب ليس هو السعادة، والحب في تناول الجميع، وهو لا شيء.. ولديّ الآن شخصان أشتغل لأقوم بأودهما؛ لأنها مثله في كل شيء، ولا سبيل إلى عرفان المرء أيهما المتكلم، وقد اضطرت إلى بيع سفيتتنا وإلى العمل تحت إمرة الرجل المسن الشرير الذي يصاحبك اليوم. وشر من هذا أن الناس أخذوا

يكرهوننا وكان الأطفال هم البادئين، وكل شيء إنما يبدؤه هم، وتليهم المرأة، ثم يأتي دور الرجل آخر الأمر. ذلك لأن كل بلية مردها إلى... أنت لست مفشيًا سري؟».

ووعده أن أكون أمينًا على سره.. فانفجر من فوره يسب في تهوس من أفلت من الرقابة ويلعن القسيسين الذين حطموا حياته.. وصرخ قائلاً: «وهكذا خدعونا».. ووقف ير كل بكلتا قدميه التموجات اللازوردية حتى حجبها بسحابة من الرمل.

وقد تأثرت أنا أيضًا؛ لأن قصة يوسف - على ما بها من سخف وخرافة - كانت أقرب إلى الحقيقة من أي شيء سبقت لي معرفته. ولست أعرف لذلك سببًا، غير أن القصة أفعمتني رغبة في غوث الآخرين، وتلك فيما أعلم، أعظم الرغبات جميعًا، وأشدّها عمقًا. على أن تلك الرغبة انصرفت على عجل.

وكانت توشك أن تضع ولدًا، وهذه نهاية كل شيء، فقال لي الناس: «متى يولد الفاتن ابن أخيك؟ وبما أنه سيولد من مثل هذين الأبوين فلسوف يكون بالغ الإيناس والجاذبية!» فظلت ثابت الوجه وأجبت: «أحسب أنه سيكون كذلك، إذ من الكدر يولد الحبور». هذا أحد أمثالنا السائرة. وقد أفرعهم جوابي أيما فزع، ونقلوه إلى القسيسين الذين فزعوا كذلك. ثم بدأت في الذبوع شائعة فحواها أن الطفل سيكون المسيح الدجال، ولا محل لفزعك أنت الآن فالطفل لم يولد إطلاقًا.

«وبدأت عرافة عجوز في التنبؤ ولم يتصد لها أحد. قالت إن يوسف والفتاة (عليهما عفريت) صامت في مقدوره أن يأتي بالأذى الهين. ولكن

الطفل لن يمسك عن الكلام والضحك والتضليل، وسيذهب آخر الأمر إلى البحر ويستخرج عروس البحر إلى الهواء، وسيراه العالم قاطبة ويسمعها تغني، فإذا غنت انفتحت في الحال القوارير السبع ومات البابا واحترق منجيلللو وخمارسانتا أجانا. وإذ ذاك يتزوج الفتى من عروس البحر ويشتركان معًا في حكم العالم إلى أبد الآبدين.

وكثر اللغط في القرية كلها، وفزع أصحاب الفنادق إذ إن موسم السياحة كان قد بدا لتوه، فاجتمعوا وقالوا بضرورة إرسال يوسف والفتاة إلى داخل البلاد إلى أن يولد الطفل، واكتتبوا بالأموال اللازمة لذلك. وفي الليلة التي سبقت ليلة رحيلهم اكتمل البدر وهبت الرياح من الشرق وارتفع البحر - على طول الشاطئ - وكسى الأجراف بما يشبه السحب الفضية، وكان المنظر عجيبيًا. قالت مارية: إنه تنبغي لها رؤيته مرة أخرى». فقلت: «لا تذهبي، فلقد رأيت القس يمر من هنا يصحبه شخص ما. وأصحاب الفنادق لا يريدونك أن تظهرى. وإذا أغضبناهم - هم أيضًا - هلكنا من الجوع».

فأجابت: «بل أرغب في الذهاب، فالبحر عاصف وقد لا أراه على هذه الصورة مرة أخرى».

قال يوسف: «لا، لا، إنه على حق، لا تذهبي، أو فدعي أحدنا يذهب في رفقتك».

فقالت: «إنما أرغب في الذهاب بمفردي» وذهبت بمفردها.

وحزمت أمتعهما في قطعة من قماش، وهنا تملكني تعس بالغ

عندما فكرت أنني مفتقدهما، هذا إلى حد أنني ذهبت وجلست إلى جوار أخي، وطوقت جيده بذراعي وطوقني هو بذراعيه، الأمر الذي لم يصنعه منذ أكثر من عام، ولست أدري كم بقينا على هذه الصورة.

وعلى حين فجأة انفتح الباب عن آخره، ودخل ضوء القمر والريح معاً، وقال صوت طفل وهو يضحك: «لقد دفعوها من أعلى الجرف إلى البحر».

فخطوت إلى الدرج الذي أستودعه سكاكيني.

وقال يوسف - يوسف من بين جميع الناس - «اجلس مرة أخرى، وإذا كانت قد ماتت فلماذا يموت الآخرون أيضاً؟».

فصحت: «أنا أحذر من يكون الفاعل، وسأقتله».

وعندما كدت أخرج من الباب أوقعني وركع فوقني وأمسك كلتا يديّ ولوى معصمي بادئاً بالأيمن مثنيّاً بالأيسر، وما كان لأحد غير يوسف أن يفكر في شيء كهذا، أحسست ألماً فوق ما تتصور حتى غشي عليّ. وعندما أفقت ألفتيته قد انصرف ولم أره، بعد، إطلاقاً».

ولكن يوسف جعلني أشمئز.

قال: «قلت لك إنه شرير. ولم يتوقع له أحد أن يرى عروس البحر».

- «ولكن كيف علمت أنه رآها؟».

- «لأنه لم يرها (مراراً وتكراراً) وإنما رآها مرة واحدة».

- «وإذا كان شريراً فلماذا تحبه؟».

وضحك أول مرة، وكان هذا هو جوابه الوحيد.

فسألت: «أتلك هي النهاية؟».

- «أنا لم أقتل من اغتالها على الإطلاق، إذ عندما كان معصماي سليمان كان هو في أمريكا، وليس في وسع امرئ قتل قسيس. أما يوسف فقد جاب العالم كذلك باحثاً عن عساه يكون قد رأى عروس البحر - رجلاً كان الرائي أو امرأة - والأخير أفضل «ذلك لأن الطفل ربما يكون قد ولد في هذا الوقت» ثم وصل آخر الأمر إلى ليفربول - هل يوجد مكان بهذا الاسم؟ وهناك أخذ يسعل ويصق دماً إلى أن مات».

وما أظن أن أحداً من الأحياء الآن قد رآها، إذا قلما رؤيت في كل جيل أكثر من مرة واحدة، ولن يوجد في حياتي إطلاقاً رجل وامرأة يمكنهما أن يعقبا ولداً يظل يجوب البحار حتى يعثر على عروس البحر، فيبدد الصمت ويخلص العالم.

فهتفت: «يخلص العالم، هل تلك هي خاتمة النبوءة؟».

واضطجع إلى وراء مستنداً إلى الصخرة متنفساً في عمق، ومن بين كل الانعكاسات الخضراء والزرقاء رأيت وجهه يحمر، وسمعته يقول: «إن الصمت والعزلة لا يمكن أن يدوما إلى الأبد، نعم إنهما قد يدومان مائة عام أو ألف عام، ولكن البحر يدوم إلى مدى أبعد من هذا. وستخرج هي منه وتغني» وكنت أود أن أسأله أكثر مما فعلت ولكن الغار جميعه اعتم في تلك اللحظة. وإذ ذاك سبح إلى داخله - من المدخل الضيق - القارب العائد.

اللمحة السرمدية

- ١ -

أتريين ذلك الجبل الذي من خلف القبعة الصغيرة التي تلبسها إيزابث؟ هنالك منذ عشرين سنة تقريباً أحبني شاب حباً رقيقاً... أميلي رأسك دقيقة واحدة، يا إيزابث: من فضلك».

فقالت إيزابث وهي تنكفي على وجهها فوق الصندوق كالدمية المخلخلية: «نعم يا سيدتي»، وثبت العميد (أمير الآلاي) ليلند منظاره على أنفه واتجه ببصره إلى الجبل الذي فيه أحب الشاب السيدة.

واستفهم باسمًا وإن خفض من صوته قليلاً حتى لا تسمعه الخادمة: «وهل كان فتى ظريفاً؟».

- «لم أعلم إطلاقاً. غير أن تلك حادثة كلما تذكرتها في سني هذه طفرت بالرضى. وشكرًا يا إيزابث».

- «وهل يجوز للمرء أن يستفهم عن من كان ذاك الشاب؟».

فأجابت مس ريبي بنغمتها المعتادة: «حَمَّال، إنه لم يرتفع حتى إلى أن يكون من الأدلاء المرخص لهم... إنه «رجل» كانوا يستأجرونه لحمل الأمتعة، وكانت تسقط منه».

- «مفهوم مفهوم! وماذا صنعت أنت؟».

- «صنعت ما يجدر بسيدة شابة أن تصنع: صرخت، وشكرته على عدم إهانته إياي، وجريت من دون أن تدعو الضرورة إلى الجري، ووقعت ورض رسغ قدمي، وصرخت مرة ثانية. وكان عليه أن يحملني نصف ميل، ونقمت من نفسي سوء خلقي إلى حد خشيت معه أن يطوح بي من فوق جرف، وعلى هذه الصورة وصلنا إلى سيدة اسمها مسز هاربوتل، ولم أكد أراها حتى انفجرت باكية، غير أنها كانت أحرق مني بكثير، فأفقت في غير توان».

- «وقلت أنت بطبيعة الحال إن الخطأ كله خطؤك؟».

فأجابت في نغمة أكثر رزانة: «أعتقد ذلك، ولقد حذرتني منه مسز هاربوتل التي كانت - كسائر الناس - على حق دائماً، وكنا قد أرسلناه من قبل لأداء بعض الأعمال».

- «آه، فهمت».

- «أشك في أنك فهمت.. لقد كان حتى ذاك الوقت يعرف قدر نفسه، غير أنه كان يتهالك في العمل، وقد أدى لنا منه أكثر من الأجور التي تقاضاها منا. وهذا، كما تعلم، نذير شؤم لدى من انحدروا من أسر حقيرة».

- «ولكن كيف كان هذا خطأك أنت؟».

- «لأنني شجعته وآثرته كثيرًا على مسز هاربوتل، فلقد كان مليحًا، وكان ما أسمىه أنا مريحًا، كما كان أنيقًا في ملبسه، وكنا نتلصقًا خلفهم فيجمع لي زهرًا، فإذا مددت يدي لتناوله أمسك بها وألقى خطاب حب اقتبسه من كتاب الخاطبين^(١)».

- «آه، إيطالي».

وكانوا في تلك اللحظة يعبرون الحدود، وقد نصب - على جسر صغير فيما بين شجر الشوح^(٢) - قائمتان خشبيتان، طلي أحدهما بالأحمر والأبيض والأخضر وطلاي الثاني بالأسود والأصفر.

وقالت مسز ريبي: «وكان يعيش في البلاد التي استعادت إيطاليا من المحتلين الأجانب، أما نحن فكان علينا أن نطير إلى الجزر البريطانية، وإنني لأتساءل عما كان عساه يحدث لو كنا فعلنا ذلك».

قال العميد (أمير الألاي) ليلند وقد اشمأز فجأة: «يا الله!» وارتعدت إليزابث فوق الصندوق.

- «ولكن كان من الجائز أن تمسي تلك زيجة سعيدة».

ولقد تعودت أن تتكلم بطريقة رفيقة غير تقليدية، فانبرى العميد ليلند - الذي التمس لذكائها عذرًا - يوضح قائلاً:

- «كان ذلك حريًا، نعم كان ذلك حريًا».

(١) إي بروميسي سوزي: عنوان قصة كتبها في الثلث الأول من القرن التاسع عشر ألساندور منزوني وهي تحفة في الأدب الرومانتيكي.

(٢) الشوح (بضم الشين) شجر تكون أغصانه على هيئة مخروطية ويسمونه الموسكي.

فرجعت عليه قائلة: «أتظنني أسخر منه؟».

وبدا عليه شيء من الحيرة وابتسم ولم يجب، على أن مركبتهم كانت تزحف حول سفح الجبل السيئ السمعة، وكانت الطريق قد بنيت على الانقراض التي خرّت والتي لا تزال تخر من جنباته، وقد أحدثت هذه الانقراض المتساقطة تشويهاً كآثار الجروح في غابات الصنوبر كأنهار مخربة من الحجر الأبيض. إلا أن مس ريبي تذكرت أنه توجد في الجبل - توجد تجاويف هادئة وصخور يكسوها الزهر ومنظر بالغ الروعة.. وهي لم تكن هازلة إلى الدرجة التي تخيلها رفيقها. ولا مرية في أن الحادث يبعث على الضحك، ولكنها استطاعت - على صورة ما - أن تضحك منها دون أن تكثر من الضحك على الممثلين أو على المسرح. وقالت بعد تريث طويل: «كنت أؤثر أن يحسبني هو حمقاء على أن أحسبه أنا أحمق».

فقال العميد ليلند مبتغيًا تغيير مجرى الحديث: «ها هي ذي دار المكوس (الجمرك)».

لقد وفدا على أرض (آخ) و(يا)^(١) فتنهدت مس ريبي إذ كانت تحب اللاتين كما يجب أن يحبهم كل امرئ لا يأبه بقيمة الوقت. أما العميد ليلند، بوصفه جنديًا، فيبجل تيتونيا^(٢).

وقالت تواسي نفسها كما قد يفعل الطفل: «إنهم لا يزالون يتكلمون الإيطالية على بعد سبعة أميال».

(١) (آخ) و(يا) كلمتان ألمانيتان الأولى معناها (كذا) والثانية (نعم).

(٢) التيوتون هم الألمان والنمركيون وجيرانهم الإنجليز.

فأجاب العميد ليلند بقوله: «الألمانية لغة المستقبل، وجميع الكتب المهمة في أي موضوع تكتب بها».

فقالت مس ريبي: «بل تكتب جميع الكتب في أي موضوع مهم بالإيطالية، يا إليزابث اذكري لي اسم موضوع مهم».

فقالت الخادمة مترددة بين الحياء وقلة الحياء: «الطبيعة البشرية يا سيدتي».

وقال العميد ليلند: «إليزابث قصصية كسидентها» ثم استدار ليشهد المنظر إذ إنه لا يحب أن يتعثر في حديث مختلط. ولحظ أن المزارع أضحت أكثر رخاء، وأن الشحاذة قد توقفت، وأن النساء أكثر قبحاً، وأن الرجال أكثر سمنة، وأن مزيداً من الطعام المغذي يؤكل خارج الفنادق التي على جانبي الطريق.

- «أيها العميد ليلند، هلا ذهبنا إلى فندق الألب الكبير أو فندق لندرا أو نزل لايبج أو نزل آثر لي سيمون أو نزل المنظر الجميل أو نزل إنجلترا القديمة أو فندق بسكيوني؟».

- «أظنك ستفضلين فندق بسكيوني».

- «أنا في الحقيقة لا أتضايق إطلاقاً من فندق الألب الكبير، وكلاهما - على ما سمعت - ملك لآل بسكيوني الذين ربي ثراؤهم إلى درجة عظيمة».

- «يجب أن تحظي باستقبال رائع إذا كان قوم كأولئك يعرفون معنى عرفان الجميل».

ذلك لأن قصة مس ريبي (اللحظة السرمدية) التي أذاعت صيتها
أذاعت كذلك صيت فورتا.

- «أوه، تلقيت الشكر الجزيل، فلقد كتب إليّ السنيور كانتو بعد أن
نشرت كتابي بحوالي الثلاثة الأعوام. وبدا لي أن الخطاب يبعث على
شيء من الإشفاق وإن كان الكتاب موفقاً كل التوفيق، وأنا لا أحب أن
أغير من حياة الناس. وإني لأتساءل: هل هم لا يزالون يقيمون في بيتهم
القديم أو تراهم انتقلوا إلى البيت الجديد؟».

ولقد جاء العميد ليلند إلى فورتا ليكون مع مس ريبي وإن رأى عن
طيب خاطر ألا ينزل وإياها في فندق واحد، ولكن من حيث إنها لم تكن
لتأبه لمثل هذه الأشياء الدقيقة، فإنها لم تر سبباً يمنعها عن النزول وإياه
تحت سقف واحد، كما أنها لم تر سبباً يمنعها عن الرحيل وإياه في مركبة
واحدة. ثم إنها - من جهة أخرى - تكره كل ما هو أنيق. وقد استقر رأيه
على أن ينزل في فندق الألب الكبير.

وكانت هي متجهة إلى بسكيوني حينما قالت إليزابث المتعبة:
«سيدتي، صديقتي تسكن فندق الألب».

- «إن وجود صديقة إليزابث يحسم الأمر، فلنذهب جميعاً».

قالت إليزابث وهي تتعمد حتى الظهور بمظهر عرفان الجميل:
«حسن جداً يا سيدتي»، فتجههم وجه العميد ليلند أيما تجههم بسبب عدم
النظام.

وعندما نزلوا جميعاً ليصعدوا الجبل على أقدامهم قال متذمراً: «لقد
أفسدتها».

- «ها هو ذا رجل الحرب يتكلم».

- «لا ريب في أنني كنت مستغرقاً في العمل مع الجنود الإنجليز بشكل حال بيني وبين ما تسمينه «الأواصر الإنسانية»، ولو أنني أظهرت قليلاً من العواطف لتمزق الجيش شر ممزق».

- «أعرف ذلك، غير أن الدنيا بأجمعها ليست جيشاً، فلماذا إذن أنظاھر بأني ضابط. وإنك لتذكرني بأصدقائي الإنجليز بالهند الذين كانوا يفزعون كلما تلطفت مع بعض الأهلين والذين كانوا يثبتون بصورة جدية قاطعة أن هذا الأسلوب لن يكون فيه غناء لهم وأن رأيهم صادق في كل الحالات. على أن سيئي الحظ هنا ليحاولون دائماً قيادة حسني الحظ، وهذا ما يجب منعه. وأنت كنت سيئ الحظ إذ كان عليك طوال حياتك، أن تتسلط على الرجال وتفرض عليهم الطاعة العمياء وفضائل أخرى لا خير فيها. أما أنا فحسنة الحظ لأنني لست مضطرة إلى أن أفعل مثل ذلك، وما أنا بفاعلة».

فقال باسمًا: «لا تفعلي إذن. ولكن أُلقي بالك إلى أن الدنيا، مع ذلك، ليست جيشاً، وأُلقي بالك أيضًا إلى أنك لا تظلمي سيئ الحظ، ونحن على سبيل المثال، نعطف على خادمك».

وقالت حالمة كأنه لم يدعن في شيء: «لقد بدأ هذا الأمر بطبيعة الحال يصير مألوفًا، غير أنهم يرون من خلاله، وهم يعرفون - مثلما نعرف نحن - أن شيئًا واحدًا في هذه الدنيا هو الذي يستأهل أن يحرص عليه».

فتنهَّد قائلاً: «نعم نعم، فنحن في عصر الماديات».

قالت مس ريبي وهي تصيح في انفعال جعل إليزابث تتلفت خلفها لتتعرف الأمر الذي قد يكون في غير محله: «كلا كلا! أنت مغفل، فالرفق والمال يسهل الاستغناء عنهما، أما الشيء الوحيد الذي يستحق أن تُبين عنه فهو أنت نفسك. هل سبق لك إطلاقاً أن أبنت عن نفسك لأحد؟».

- «كثير ما فعلتُ ذلك».

- «إنما أعني: هل سبق لك إطلاقاً أن تعمدت إظهار نفسك بمظهر الأحمق أمام مرؤوسيك؟».

- «متعمداً، لم يسبق لي ذلك بتاتاً»، وأدرك آخر الأمر المعنى الذي تستهدفه، فلقد كان من دواعي سرورها الادعاء بأن إظهار ما في النفس على هذه الصورة هو الأساس الوحيد الممكن للمعاملة المخلصة، وأنه الباب الأوحد للحاجز الروحي الذي يفصل ما بين طبقة وطبقة. وقد عالج أحد كتبها هذا الموضوع في أسلوب مشوق، وزاد فقال مداعباً: «وما خطبك أنت؟».

- «أنا لم أفعل ذلك قط على الوجه الأكمل، إذ إنني - حتى الآن - لم أشعر شعوراً حقيقياً بأني حمقاء كبيرة، ولكنني عندما أحس بذلك سأظهر جلياً».

- «ليتني أكون هناك».

فأجابت بقولها: «قد لا يروقك ذلك، وقد أستشعره أنا في أية لحظة وبين خليط من الرفاق، وقد يدفعني إليه أي شيء دفعاً».

فصاح السائق لينهي المحادثة المرححة: «تلك هي فورتا!» وكان

قد وصل - هو وإليزابث والمركبة- إلى ذروة التل... وانتهت الغابات السوداء، وانحدروا إلى واد جنباته مروج زمردية تتماوج وتنثني ويتداخل كل منها في الأخريات. ولكنها كانت مع ذلك تتجه إلى الصعود حتى بلغت إلى مكان يرتفع ألفي قدم، مكان انبثقت فيه من الكلاً الصخور وشكلت جبلاً عظيمة ذات بروج نحيلة تشمخ في صفاء الغروب.

وقال السائق- الذي يتمتع بموهبة التكرار- «فورتا! فورتا!».

وقامت في الوادي- على مدى بعيد- قرية بيضاء كبيرة تترجح فوق مروج متماوجة كأنها السفينة في البحر يقف على مقدمها- ويتصدر انحداراً عنيفاً- برج مهيب من الحجر الأغيش الجديد، وما إن نظرا إليه حتى أخذ ينطق ويوجه إلى الجبال كلاماً بديعاً ويتلقى جوابها عنه.

وقيل لهما مرة أخرى إن هذه فورتا وذاك برج الأجراس- الذي يشبه برج فينيسيا وإن فاقه دقة- وإن الصوت صوت جرسه الجديد.

فقال العميد ليلند: «شكراً، هذا صحيح»، بينما كانت مس ربيبي مسرورة لأن القرية أحسنت الإفادة من رخائها، على أنها كانت تتهيب العودة إلى المكان الذي أحبته يوماً حباً شديداً خشية أن تجد فيه شيئاً جديداً. ولم يدر بخلدها أن الشيء الجديد قد يكون جميلاً. ولا شك في أن المهندس المعماري انحدر إلى الجنوب يتغني الإلهام، فأقيم البرج الذي يقف بين الجبال شبيهاً بالبرج الذي قام يوماً إلى جوار البحيرات الضحلة، غير أنه كان من العسير معرفة مكان ميلاد الجرس لأن الصوت لا وطن له.

وتقدما راكبين بين المناظر الأخاذة فرحين صامتين، وقد حسبهما من رضي عنهما من السياح زوجين يليق كل منهما بالآخر. ولا مرأى في أن وجه مس ريبي النحيل لم يكن يحوي أي شيء كرهه بالمعنى الحرفي للكلمة، وفي أن مهنة العميد ليلند أكسبته أناقة أكثر مما أكسبته ميلاً للعدوان. ولقد ظهرا في أحسن مظهر بوصفهما زوجاً وزوجة مثقفين مهذبين صرفاً عمريهما في تذوق الأشياء الجميلة التي تملأ الدنيا.

وكانا كلما اقتربا يسمعان إجابات كنائس أخرى لم يلقيا إليها بالاً حتى ذاك الوقت: كنائس بالغة الصغر، وكنائس قبيحة الهيئة، وكنائس وردية الطلاء ذوات أبراج كاليقطين (القرع العسلي)، وكنائس بيضاء الطلاء ذوات حلزونات تغطيها قراميد خشبية، وكنائس تستخفي تماماً بين ممرات الغابة أو ثنايا المروج. هذا إلى أن أفعمت جوّ العشيّ أصوات صغيرة يغني في وسطها صوت كبير. أما الكنيسة الإنجليزية التي شيدت أخيراً على الطراز الإنجليزي القديم فهي وحدها التي لزمّت الصمت العميق.

كفت الأجراس عن الدق - وانحسرت الكنائس جميعها في الظلام - وحلت محلها أصوات الصواني النحاسية (تدق للتنبيه إلى اللبس قبل تناول الطعام) ومشهد السياح المتعبين يخفّون إلى العشاء. ورؤيت مركبة من طراز لاندو^(١) كتب عليها «نزل آثرلي سيمون» تركض لاستقبال مركبة السفر الكبيرة التي أذن موعد وصولها. وكانت إحدى السيدات تحدّث أمها في شأن لباس السهرة، وكان الشباب، حاملو

(١) اللاندو: مركبة ذات أربع عجلات سقفها قابل للتحرك وتجرها الجياد.

مضارب الكرة، يتحدثون إلى شباب يحملون أدوات صعود الجبل.
وهناك عبر الظلام، كتبت إصبع متقدمة «فندق الألب الكبير».

فقال السائق وهو يسمع الركاب يسألون: «انظروا ضوء الكهرباء».

بُني نزل المنظر الجميل يتصدر غابة الصنوبر، ويقابله فوق حافة
النهر فندق لندن. أما نزلا لبيج ولوريلاي فقد ظهرا في لونيتهما الأخضر
والعنبري على التوالي، وتبدى نزل إنجلترا القديم في لون قرمزي.
وترامت الاضواء إلى مسافات بعيدة لأن أفضل الفنادق أقيم خارج
القرية على مواقع مرتفعة أو شاعرية. وكان هذا العرض يجري في كل
ليالي الموسم، ولكن كلما لاحت مركبة الركاب ليس غير، فإذا انتهى
استقبال آخر سائح أطفئت الاضواء وانسحب أصحاب الفنادق - لاعين
أو مرحين - يدخنون السيجار.

قالت مس ريبي: «شيء مروع».

وقال العميد ليلند: «قوم مروّعون».

وكان فندق الألب مبنى ضخماً أقيم من الخشب بحيث يزجي فكرة
الكوخ المبسوط. ولم يعدل هذه الفكرة إلا وجود شرفة عظيمة فاخرة
تواجه المنظر الجميل ترى أحجارها المربعة المسواة من أميال بعيدة،
وتنسب منها على الريف المجاور ممرات من الأسفلت كأنما تسيل من
خزان. وبعد أن صعدت مركبة الفندق إلى ممر خاص وقفت تحت رواق
عال من خشب الصنوبر يتصل من ناحية بالشرفة ومن الناحية الأخرى
بردهة الاستراحة. وقد ظهرت في الردهة دوامة من الموظفين: رجال

يتحلون بشرط ذهبية، ورجال آتق يتحلون بمزيد من الشرط الذهبية، ورجال آتق من أولئك لا يتحلون بشرط ذهبية. واصطنعت إليزابث العظمة وحملت سلة صغيرة من القش وكأنها تنوء بها. وسلك العميد ليلند السلوك العسكري التام. أما مس ريبي - التي تربكها الفنادق الكبيرة دائماً مع كل تجاريبها الطويلة - فقد هرعت إلى غرفة عالية الأجر وأشير عليها بارتداء ثيابها تَوّاً إذا أرادت المشاركة في مائدة الطعام العامة.

ولما سعدت السلم رأت غرفة الطعام تزخر بالإنجليز والأمريكيين وبالأللمان الجائعين. وهي تحب صحبة الناس، غير أنها في تلك الأمسية كانت تشعر بانقباض غريب. وبدت كأنها تواجه رؤيا مكدرّة لا تدرك لها كنّها.

وقالت لإليزابث: «سأكل في غرفتي. اذهبي أنت وتناولتي عشاءك، وسأشتغل أنا بفك أمتعتي».

وجالت في الغرفة تقرأ بنود التعليمات والأثمان والسياحات القصيرة، وتتفقد الأريكة الحمراء (الكنبة) ذات الوبر المتفش والأباريق والطسوت التي طبع على كل منها منظر من مناظر الجبال. فأى مكان في هذا البهاء يتسع للسنيور كانتو بـ (بيته) ذات الوعاء المصنوع من الصيني وللسنيرة كانتو بشالها الذي يحاكي النشوق لوناً؟!

وعندما حمل إليها النادل عشاءها آخر الأمر سألت عن رب الدار وربته.

فأجاب باللغة الإنجليزية الواسعة الذبوع بأنهما بخير.

- «أهنا يعيشان أم في البسكيوني؟».

- «هنا. أجل أجل، فالسياح الفقراء وحدهم هم الذين يؤمون البسكيوني».

- «وإذن فمن الذي يعيش هناك؟».

واستأنف الكلام كمن يلقي درسًا حفظه، قال: «والدة السنيور كانتو، وهي منفصلة عنا كل الانفصال، لخمس عشرة عامًا خلت، نعم، أما الآن فأين البسكيوني؟ أرجو ألا يبدو عليك معرفتك شيئًا عن هذا الحديث».

فقلت مس ربيبي في هدوء: «أنا أخطأت. فأرجوك أن تعلم إدارة الفندق أنني لست راغبة في غرفتي، وأن تطلب إليها نقل أمتعتي إلى البسكيوني في الحال».

فأجاب النادل وكان حسن التدريب: «يقينًا يقينًا!» وأضاف وهو ينفخ من أنفه نفخة كريهة: «ولكن عليك أن تدفعي أجر الغرفة».

قالت مس ربيبي: «بكل تأكيد».

غير أن النظام المحكم الذي كان قد طواها في المدة الأخيرة أخذ يلفظها، فحُمِلت الأمتعة إلى الطبقة السفلى، واستدعيت المركبة التي كانت قد جاءت بها، وظهرت في البهو إليزابث وقد خطف الغضب لون وجهها، ودفعت أجر الفراشين اللذين لم يناما عليهما والطعام الذي لم يتناولاه إطلاقًا. وتحركت صوب الباب وسط دوامة الموظفين الذين يتحلون بالشرط الذهبية والذين راودهم الأمل - حتى بعد ذاك الوقت القصير - في أن يكونوا قد رتبوا لأنفسهم حقًا يخولهم (البقشيش)،

ورقبها الأضياف الموجودون في البهو، متضاحكين مستنجين أنها وجدت أن نفقات المعيشة في هذا الفندق تبهظها.

وأسرع العميد ليلند من خلفها في ثياب السهرة يسأئلهما: «ما خطبك؟ ما عسى أن يكون خطبك؟ أأست مرتاحة هنا؟».

- «لا شيء من هذا. أنا أخطأت. فهذا الفندق يملكه الابن، وأنا ينبغي لي أن أذهب إلى البسكيوني. فلقد تعارك مع والديه وأعتقد أن الأب قد مات».

- «ولكن حقاً... إذا كنت مرتاحة هنا...».

- «يجب أن أكشف الليلة هل يكون ذلك صحيحاً. على أنه ينبغي لي أيضاً» وهنا ارتجف صوتها: «أن أكشف هل كانت الغلطة غلطتي».

- «كيف ذلك، أناشدك وأرجوك».

فاستأنفت الكلام مترفقة، قالت: «إن كانت الغلطة غلطتي فسأتحمل النتائج. إنني أكبر سناً من أن أكون ملكة مأساة أو محرصة على الشر».

وفيما كان يتابع بنظره أضواء المصابيح إذ تهبط التل متمم قائلاً:

«ماذا تعني؟ أي ضرر أتت؟ ما الضرر الذي يكون السبب في هذا؟ أصحاب الفنادق دائمو العراك وليس هذا مما يعيننا»، وتناول في صمت عشاء طيباً، ثم تحول تفكيره بسبب ورود خطابات من مكتب البريد.

«إلى إدوين الأعز

أكتب إليك أشد ما أكون تهيئاً، علماً بأنك مصدقي إن قلت لك بأنني لست أكتب بداعي الفضول، وقصارى ما أبتغي هو جواب عن

سؤال بسيط وهو: أخطبُ أنت مس ربيي أم تراك لست خاطبها؟ نعم، لقد تغيرت الأساليب منذ عهد صباي، ولكن الخطوبة مع ذلك لا تزال هي الخطوبة، وينبغي أن تعلن على الفور وبذلك تنأى بجميع الأطراف عن المضايقات. ومع اعتلال صحتك ومع اعتزالك مهنتك، أراك لا تزال قادرًا على الذود عن شرف الأسرة».

فهتف العميد ليلند قائلاً: «ثرثرة!» لقد جعلته صحة مس ربيي أثقّب نظرًا، فهو لم ير في هذا الجزء من خطاب أخته أكثر من مراعاة تلقائية للتقاليد، ولم تحركه توسلات الخطاب بأكثر مما حركها إنشاؤه.

«أما الخادمة التي حدثني عنها آل (بانون) فما هي بالرقية، إنها لا تزيد على كونها رشوة يقذف بها أمام أعين العالم. وأنا لا أتجنّى بكلمة واحدة على مس ربيي صاحبة الكتب الواسعة الانتشار، غير أن الأدباء على الدوام غير عمليين، ونحن موقنون من أنها لا تدري، نعم قد يدور بخلدني أنها ليست الزوجة التي تلائمك ولكن هذا أمر آخر».

«أطفالي الذين يبعثون لك جميعًا بحبهم (كما يبعث لك به ليونيل) هم في الوقت الحاضر فرحة لا تقف عند حد، إلا أن همي الوحيد ينصبّ على المستقبل عندما تدخل الحساب نفقات تعليمهم الساحقة».

لعمرك كيف يتسنى له تعليل الافتتان العجيب الذي يوثق الألفة بينه وبين مس ربيي! إن كلمة واحدة عن الزواج لم تخرج من فيه على الإطلاق، ومن المحتمل أن يوجه لها كلمة واحدة عن الحب. وإذا تأتى لهما تبادل الزيارات على الدوام - بدلًا عن مبادلتهما كثيرًا فقط - فإنهما يصبحان كالرفيقين العاقلين يعرفان الحياة وليس كالمتحابين الأنانيين

يتشبهان ما لا نهاية له من الهوى الذي لا حق لهما في ابتغائه ولا قدرة لهما على إزجائه. على أن واحدًا منهما لم يدَّع أنه طاهر الذيل أو أنه يجهل حدود الآخرين أو تقلبات أحوالهم. ثم إن كلاً منهما لم يكد يسمح لنفسه بالتساهل مع الآخر. والتسامح في ذاته يتضمن التحفظ. والمعرفة هي خير سبيل للاختلاط الهادئ. وكانت لدى العميد ليلند شجاعة ليست من النوع الوضع، وهو لم يأبه كثيرًا لآراء الناس الذين فهمهم، فلتصدم نللي وليونيل وأطفالهما أو فليغضبوا.. مس ربيبي مؤلفة متطرفة نوعًا ما وهو جندي أي أنه أرسقراطي على صورة ما. غير أن زمان نشاطهما أخذ ينقضي، فلقد توقف هو عن المقاتلة وتوقفت هي عن الكتابة. ومن الميسور أن يقضيا خريفهما معًا في سرور. وإذا حل الشتاء فلن يمسيا رفيقين غير رضيين.

ولقد كان أرق طبعًا من أن يسلم - حتى بينه وبين نفسه - بالإقبال على «الزواج» من ألفي جنيه في العام، ولكن ذلك كان يبدو في أفكاره عطرًا غير معترف به.. ثم قطع خطاب نللي إربًا إربًا ورمى بالقطع في الظلمة من نافذة غرفة النوم.

وفيما كان ينظر صوب فورتا - محاولًا أن يرقب برج الأجراس على ضوء القمر المطرد النماء - تمتم قائلاً: «يأتيها السيدة المضحكة! لماذا ذهبت إلى حيث لا تجددين الراحة؟ ولماذا تتدخلين في خصومات أناس لا يستطيعون فهمك ولا تستطيعين أنت فهمهم كذلك؟ وما كان أحملك عندما زعمت أن مرد هذه الخصومات إليك! تزعمين أنك ألقت كتابًا ضيع المكان وأمدَّ الناس بالفساد والخسة. أنا أعرف تمامًا طريقة

تفكيرك، وبها ستجربين الشقاء على نفسك وتحاولين أن تقيمي ما لم يستقم قط، أيتها السيدة المضحكة!».

ولقد وسعه أن يرى - تحته على مسافة قصيرة - نثفاً من خطاب أخته. وظهر في الوادي برج الجرس يسمو وهو يشق شراذم البخار الفضي. وحرك يده حركة خفيفة صوب القرية الصغيرة وهمس قائلاً: «حنانيك يأتيها السيدة العزيزة!».

- ٢ -

دارت أولى قصص مس ريبي (اللحظة السرمدية) حول فكرة أن الإنسان لا يعيش بالزمن وحده، وأن أمسية تنقضي قد تعدل أجيالاً في ساحات السماء. وهذه هي بعينها الفكرة التي شرحها ميترلنك^(١) فيما بعد متوسعاً في فلسفتها. وقد أعلنت الآن بنفسها أنه كتاب متصنع ممل وأن العنوان يوحي بكرسي طبيب الأسنان. غير أنها كتبتة عندما كانت تشعر بالشباب والسعادة، وبأن ذلك - وليس زمن النضج - هو الوقت الذي يكون الناس فيه عقائدهم. وعلى مر الأعوام قد تصبح الفكرة أكثر رسوخاً، غير أن الرغبة في نقلها إلى الآخرين والقدرة على هذا النقل تضعفان بالمثل. ولم يكدرها - جملة - أن باكورة مؤلفاتها كانت بالغة الطموح.

(١) موريس ميترلنك: كاتب بلجيكي ذائع الصيت، ولد في (جان) في سنة ١٨٦٢.

وقد شاء الحظ الغريب أن يقابل الكتاب بحماسة عظيمة وبخاصة لدى دوائر تعني الأمور الواقعية فقط، ولقد ذهب الكسالى إلى أنه لا ضرر في ضياع الوقت، ورأى السوق أنه لا شر في أن يكون المرء متقلبًا، وعده المتدينون تهجمًا على الفضيلة، وذاع صيت المؤلفة في المجتمع، وزادتها سحرًا حماسها للطبقات الدنيا. وفي ذاك العام نفسه وفدت إلى فورتا- التي كانت مسرحًا لأحداث الكتاب- الليدي أنستاي ومسر هيريوت ومركيز بامبورج وكثيرون غير هؤلاء، جاءوا إليها وعادوا منها تلهبهم الحمية. وقد عرضت الليدي أنستاي الصور التي رسمتها بالماء، وأخذت مسر هيريوت صورًا فوتوجرافية وكتبت مقالًا في جريدة ستاندارد (اللواء)، ونشر مركيز بامبورج في مجلة القرن التاسع عشر وصفًا مسهبًا، للمكان، بعنوان «الفلاح الحديث وعلاقته بالكاثوليكية الرومانية».

وبفضل تلك الجهود أُمست فورتا مكانًا ناهضًا يؤمه أولئك الذين يناون بأنفسهم عن الأماكن المعروفة ويشيرون على غيرهم بالذهاب إليه. وبسبب سلسلة من الأحداث التافهة لم ترجع مس ريبي قط إلى تلك القرية التي ترتبط نهضتها بشخصها. غير أنها كانت بين الفينة والفينة تسمع بما تحرز من تقدم. وتهامس الناس بأن طبقة متوسطة من السياح أخذت تعرف طريقها إليها، فأشفقت عليها من أن يتسبب أولئك السياح في إفساد بعض ما بها. ولقد منعها التهيّب عن العودة إلى مشاهد سبق أن أمدتها يومًا بسرور عظيم، فأغراها العميد ليلند إذ كان ينشد مصطفىًا رطبًا صحيًا فيه يتسنى له أن يقرأ ويتحدث ويجد أمكنة يستطيع عليل مثله

أن يتنزه فيها مشياً على الأقدام، فسخر منهما الأصحاب، وأكثر المعارف من القيل والقال وثار الأقرباء، ولكنه تذرع بالشجاعة وأخلدت هي إلى عدم الاكتراث، وتم لهما إنجاز الحملة في حماية إليزابث غير الكافية.

ولقد كان وصولها مبعث اكتئابها إذ ساءها أن ترى الفنادق الكبيرة مقامة بمنأى عن القرية حيث كان ينبغي تجميع الحركة كلها. وما برحت أسماؤها المضاءة تلقي على المنحدرات المسائية الهادئة أنواراً تتراقص في عينيها. ثم إن فندق الألب البالغ الضخامة كان شبحه يزعجها كما قد يفعل الكابوس. وكانت تعاودها في أحلامها صور الرواق والبهو الفاخر والمتب المصنوع من خشب الجوز المجلو واللوحة الشاسعة التي تعلق عليها مفاتيح غرف النوم، وفخار تلك الغرف الذي يحمل صوراً جميلة وبذلات الموظفين الرسمية ورائحة الزوار الأنبيين التي قد تتأذى فيها بعض الأنوف بقدر ما تتأذى لرائحة الفقراء. وهي لم تتحمس لتقدم المدينة لأن تجاريبها الشرقية علمتها أن المدينة قلما تقدم أحسن قدميها وأنها حرية بأن تفسد أخلاق البربر وتدفعهم إلى الإثم قبل أن تصل إليهم مناقبها. والمسألة هنا ليست مسألة تقدم، على أن ما تتعلمه الدنيا من القرية ليفوق ما تتعلمه القرية من الدنيا.

وفي الحق أنها لم تجد في البسكيوني إلا التغيير الطفيف الذي تقتضيه سنة البقاء. وقد مات المالك المسن ورقدت المالكة العجوز مريضة في الفراش، غير أن الروح العتيق لم يزايل المكان. وبقيت بعد على الواجهة الخشبية صورة التنين يتلع الطفل كما بقيت شارة آل فيكونتي الذين انحدروا من ميلانو الذين يرجح كل الترجيح أن يكون

آل كانتو من حفدتهم. ذلك أنه كان هناك شيء ما بالفندق الصغير يدفع الضيف الودود إلى أن يعتقد - مؤقتاً وفي كل الأحوال - في الأرستقراطية. وقد سادت كل مكان منه أساليب النبلاء الأصيلة، إذ يوجد في كل غرفة من غرف النوم ثلاثة أشياء جميلة أو أربعة، كقطعة صغيرة من قماش حريري مصور أو قطعة صغيرة من الروكوكو^(١) المنقوش أو بضعة مربعات من القرميد الأزرق وضعت في إطارات وعلقت على الجدار المكلس (المطلي بالجير) وعلقت صور في حجرة الجلوس وعلى طول السلم، صور من القرن الثامن عشر على منوال مصورات كارلو دولتشي وكاراتشي مثل الأم المتألّمة في رداء أزرق، ومثل قديس يرفرف بجناحيه وصورة للإسكندر تمثله رجلاً نبيل النفس هماماً ذا ذقن متراجع.. طراز مزيف، كما يحكم بذلك العارفون والكتب. غير أن نضارتها وأهميتها قد تمتاز أحياناً على نظيرتيهما في صورة لفرا أنجلو^(٢) مشتراة حديثاً. وقد استشعرت مس ربيبي التي زارت كثيرين ممن يحملون لقب (دوق) في قصورهم دون أن تحس رجفة، استشعرت أنها كثيرة الصخب وأنها عصرية عندما دخلت فندق بسكيوني. وأوحت إليها الأشياء البالغة التفاهة - كالأريكة والوسادات وأغطية المناضد وأغلفة الوسادات، وإن جاز أنها مصنوعة من خامات رخيصة وأنها لا تتمشى مع الذوق السليم - أوحت إليها هذه الأشياء التبجيل والخضوع. ولقد تنقل في هذا المأوى

(١) الروكوكو: نوع من الحلية شاع في عهد لويس الخامس عشر، وأوائل عهد لويس السادس عشر، ويطلق أحياناً على كل حلية انقضت زمان شيوعها.

(٢) فرا أنجلو أو جيوفاني دافيزولي أو مصور الملائكة (١٣٧٨ - ١٤٥٥) مصور توسكاني اشتهر ببراعته في تدبيح ألوانه.

النظيف الأنيس، في فترة ما، السنيور كانتوب (بييته) ذات الوعاء المصنوع من الصيني والسنيرة كانتو بشالها الذي يحكي النشوق لوناً وبارتولوميو كانتو الذي يملك الآن فندق الألب الكبير.

وفي الصباح التالي جلست تتناول فطورها في حالة نفسية حاولت هي أن تعزوها إلى ليلتها السيئة وإلى سننها الآخذة في الكبر. ودار بخلدها أنها لم ترق قط أناساً أبعد عن الجاذبية واللياقة من زميلاتها الضيفات. وكانت امرأة ذات حاجبين أسودين تشيد بالوطنية وتهيب بالسياح الإنجليز أن يزوجوا إلى الشعوب الأجنبية جبهة متحدة، وطفقت امرأة أخرى تنوح نوحاً خافتاً متقطعاً كـ (حنفية) تقطر فلا قطراتها تتصل ولا هي تتوقف، وظلت تتذمر من الطعام والأثمان والضوضاء والسحب والتراب. وقالت إنها تحب المجيء إلى هنا ولكنها قلما تحب لأصحابها الحضور، إذ إن هذا هو نوع الفنادق الذي ينظر إليه المرء مثل هذه النظرة. والذكور هنا يندر عددهم ويكثر الإقبال عليهم. وقد أخذ أحد الشباب يصف - بين نوبات من الضحك - الوسائل التي اتخذها ليهر الأهلين.

كانت مس ريبي جالسة قبال الصورة الشهيرة المرسومة على الحائط، وهي الحلية الوحيدة التي تزين الغرفة، وقد كشفت تلك الصورة في أثناء إجراء بعض الإصلاحات، وظلت ألوانها مشرقة مع ما لحق سطح الجدار من عطب. وكانت السنيرة كانتو تنسب الصورة تارة إلى تيتان وطوراً إلى جيوتو، وصرحت بأن أحداً لا يستطيع إيضاح معناها، وقد حار في ذلك الأساتذة وأهل الفن دون جدوى. قالت هذا إذ كان يسرها قوله، وكان المعنى واضحاً كل الوضوح وقد فسر لها مراراً وتكراراً،

وتمثل هذه الأشكال الأربعة عرافات تزججن نبوءات عن مولد السيد المسيح، ولم يعرف أحد على وجه التحقيق الدافع الأصيل إلى نقشها على مكان من الجبل عال جدًا عند أبعد تخوم الفن الإيطالي. ومهما يكن فقد أضحت الصورة مصدرًا للمحادثة لا يقوم بثمان. وقد أدى وجودها على الحائط، بصفة وقتية، إلى بدء التعارف وإلى تفادي الجدل.

قالت سيدة أمريكية في إثر لمحة عين من مس ريبي: «ما أخبث أولئك القديسات!».

وتمتم والد السيدة بشيء عن الخرافة، وكان هذان الشخصان مكتئبين وكانا عائدين من الأرض المقدسة حيث خدعا خدعة مخزية، وحيث لقي موقفهما الديني حرجًا من أجل ذلك.

قالت مس ريبي في نغمة هي أقرب إلى العنف: إن القديسات عرافات.

فأجابت السيدة بقولها: «ولكني لست أنذكر وجود عرافات (لا في العهد الجديد ولا في العهد القديم).

وقال الأب مكتئبًا: «بدع من القساوسة يخدعون به القرويين... تمامًا كما في كنائسهم: بهرج على أنه ذهب، وقطن على أنه حرير، وبياض المصيص على أنه مرمر... تمامًا كما في مواكبهم (وتلفظ هنا بألفاظ من السباب) وأبراج كنائسهم».

فقالت السيدة متكئة إلى أمام: «أبي. إنه يكاد من السهاد. تصوري أنه يدق الجرس في السادسة من صباح كل يوم!».

«نعم يا سيدتي، أنتما تنتهزان فرصة وجود الجرس وتسيئان استعماله، ولذلك وقفناه».

فصاحت مس ربيي قائلة: «هل وقفتم دق الأجراس في الساعات المبكرة من الصباح؟».

وتطلع الناس ليعرفوا من تكون، وهمس أحدهم بأنها كاتبة.

فأجاب بأنه إنما صعد كل هذه الخطوات ابتغاء الراحة، فإذا لم يظفر بها انتقل إلى مركز آخر، ولقد تعاون السياح الإنجليز والأمريكيون فضغطوا على أصحاب الفنادق كي يجدّوا في العمل. وعندئذ دق القساوسة جرس العشاء وكان في الطاقة احتمال، وقد اعتقد أن «التعاون» قد يأتي بنتيجة وكذلك كانت الحال مع القرويين.

فاستفهمت مس ربيي وقد أخذت تنفعل انفعالا شديداً وبدأ جسدها كله يرتعد: «كيف تدخل السياح في شؤون القرويين؟».

«هذا الكلام عينه قلناه. أتينا للراحة وسنظفر بها. إنهم في كل أسبوع يسكرون ويغنون حتى الثامنة صباحاً، أف تلك خطة مثلى يحسن اتباعها دوماً؟».

قالت مس ربيي: «أتذكر أن بعضهم سكر فعلاً ولكني أتذكر أيضاً كيف غنوا».

فقال مجاباً: «هو ذاك، حتى الثانية».

وتفرقا غاضبين... وتركته يدافع عن ضرورة ابتداء دين عالمي خاص بالهواء الطليق، وقد وقفت فوق رأسه العرافات الأربع الجميلات

الصورة مع ما هن عليه من سماجة وغلظة، تقدم كل منهن رقعة دُون فيها وعد موجز بالغفران. ولئن أصبحت الديانات القديمة لا تكفي الإنسانية فإنه يبدو من غير المحتمل ابتداء دين جديد في أمريكا.

وكان الوقت أكثر بكورًا من أن يسمح لها بالزيارة التي عازمت على أدائها للسنيرة كانتو، كما أن إليزابث لم تكن إذ ذاك بالرفيق الذي تستحب مصاحبته، وذلك نظرًا لأنها كانت خشنة في الليلة البارحة، ولأنها الآن نادمة ندمًا متعبًا. وكان خارج الدار بضع موائد جلس حولها نسوة يشربن البيرة، وقد أظلتهم أشجار قسطل مشذبة وفصلهن عن شارع المدينة سور خشبي واطيء. فوقفت عليه مس ربيي لتسنى لها رؤية برج الجرس. وإن العين النقادة لتستطيع أن تتبين أخطاء كثيرة في هندسة بنائه، إلا أنها كانت تنظر إليه في سرور متزايد يخالطه قدر من عرفان الجميل.

وجاءت النادلة الألمانية وأشارت عليها في أدب بأن تجدد لنفسها مقعدًا أبعث للراحة، إذ إن ذاك هو المكان الذي تأكل فيه الطبقات الدنيا، فهلا تتفضل بالذهاب إلى قاعة الاستقبال؟

«لا، وشكرًا. منذ كم سنة تصنفون ضيوفكم تبعًا لمولدهم؟».

فأجابت المرأة المدهشة: «منذ سنوات عدة ولم يكن من ذلك بد». وعادت إلى الدار مكتنزة ذكية. وهذا من العلامات الكثيرة على أن التوتوني بز اللاتيني في هذا الوادي القابل للأخذ وللرد.

وخرجت من بعدها امرأة رمادية الشعر تُظَل عينيها من الشمس

وتتقطع بالمورننج بوست (جريدة الصباح اللندنية)، ونظرت إلى مس ربيبي مسرورة، ونفضت أنفها، واعتذرت عن أنها بدأتها بالكلام وتكلمت كما يلي:

«لا أدري هل تعرفين أن فرقة موسيقية تعزف في هذا المساء للمساعدة في تلوين زجاج نوافذ الكنائس. فهل أهيب بكم أن تبتاعوا تذاكر؟». ومن المهم - كما قيل - أن يقبل الشعب الإنجليزي على لم الشعث. أليس كذلك؟!».

فقالت مس ربيبي: «مهم جداً، على أن يكون ذلك في إنجلترا». وابتسمت السيدة الرمادية الشعر، ثم بدت عليها الحيرة، ثم أدركت أنها أهينت، وطقطقت بالمورننج بوست ثم انصرفت.

وقالت مس ربيبي لنفسها: «لقد قسوت، قسوت على سيدة حمقاء رمادية الشعر مثلي، هذا يوم ما كان يجب أن أتحدث فيه إلى الناس».

لقد كانت حياتها موفقة، سعيدة في جملتها، وهي لم تألف تلك الحالة النفسية التي يسمونها الاكتئاب والتي تصور آفاقاً أوسع وإن تكن أقتم. وفي ذلك الصباح تغيرت طلعتها ومشيت عبر القرية، ولم تكذ تلقي بالاً إلى الجبال التي ما برحت تحيط بها أو إلى إشراق شمسها الذي لم يتبدل. ولكنها ألقت بالها تماماً إلى جديد ألا وهو الفساد الذي يفوق الوصف والذي نجم عن مرور عدد كبير من الناس.

وحتى في ذاك الوقت كان الجو مثقلاً باللحم والشراب يضاف إليهما التراب ودخان الطباقي (التمباك) ورائحة الخيل. وكان سفح

جدار الكنيسة يعج بالمركبات، وتحت برج الجرس كانت امرأة تحرس صفًا من الدراجات. وكان الموسم سيئًا بالنسبة لصعود الجبل، فكنت ترى جماعات من الشبان المرتدين بذلات نورفولك الأنيقة يتسكعون مصعدين منحدرين ينتظرون أن يستأجرهم الناس بوصفهم أدلاء. وقام أمام مكتب البريد فندقان رخيصان امتد أمامهما عدد لا يحصى من الموائد الصغيرة حتى بلغت الشارع. وهنا ظلت الناس تأكل منذ ساعة مبكرة من الصباح وستظل تأكل حتى ساعة متأخرة من الليل. والزبائن - ولا سيما الألمان منهم - ينعشون أنفسهم بالصياح والضحك وهم يطوقون خصور زوجاتهم. ثم قاموا متثاقلين وانصرفوا في صف مفرد صوب مكان على مرمى النظر يخفق فوقه علم أحمر يشير إلى مكان تناول وجبة طعام أخرى. ولقد كان السكان جميعًا يستخدمون حتى صغار فتيانهم اللائي يضايقون الأضياف لكي يبيعوهم بطاقات مصورة وأزاهير بيضاء من جبال الألب، إذ انتشرت في فورنا تجارة السياحة.

تنبغي لكل قرية تجارة ما، وقد توفرت هذه القرية في كل وقت على الحيوية والإقدام الكاملين. وقد أوجدت طاقاتها الباهرة، وهي السعيدة المجهولة الشأن، عملاً هو في المكافحة ابتغاء الرزق من الأرض، وبذلك تولد شيء من الكرامة والإيناس وحب الآخرين. ولم تضعف المدنية تلك الطاقات بل حولتها فبادت كل المناقب الفاخرة التي كان من شأنها أن تسهم في إبراء العالم من أسقامه. فذهب حب الأسرة وحب المجتمع والفضائل الروحية الطاهرة بينما بني برج الجرس الذي كان ينتظر أن يجمعهم. وما هذا بفعل نذل وإنما فعله السيدات والسادة الذين

اتصفوا بالكماسة والإيناس وغالبًا بالحدق، والذين ظنوا- لو أنهم فكروا في الأمر على الإطلاق- أنهم إنما يجلبون، لأي مكان يختارون النزول فيه، منافع أدبية ومادية.

ولم تتنبه مس ربيي قط من قبل إلى إساءات شاملة كهذي، فلقد عادت إلى البسكيوني محطة مضناة متذكرة النص المروع الذي فيه كثير من مظاهر العدالة: «ويل لمن تأتي بوساطته العثرات».

كانت السنيورة كانتو- وهي أقرب ما تكون إلى شدة الاهتياج- ترقد في حجرة مظلمة عارية الجدران بالطبقة الأرضية، ذلك أنها وضعت الأشياء الجميلة في غرف أضيافها الذين أحببتهم كما قد تحب الملكة الطيبة رعاياها. وكانت تلك الجدران قدرة أيضًا لأنها حجرة السنيورة كانتو نفسها. غير أن غرفة ما لم تحو مثل هذا السقف الجميل، فمن روافده الخشبية يتدلى ما يساوي «بائنة» من الأواني النحاسية- كالدلاء والدسوت وأباريق الماء- من كل لون، من الأسود اللامع إلى الوردى الأشد ما يكون تشربًا باللون الزعفراني. وكان من دواعي سرور السيدة العجوز أن تسمو ببصرها إلى أمارات الترف هذي. وقد سافرت سيدة أمريكية من دون تلك الأواني، حائرة أكثر منها غاضبة.

ولم يكن بين السيدتين من أوجه الشبه إلا القليل، إذ إن السنيورة كانتو كانت أرستقراطية مترزمة، ولو كانت من عظيمات القرن العظيم (الثامن عشر) لأسرعوا بها إلى المقصلة ولزعت، إذ ذاك، مس ربيي محبذة. والآن عمدت- بشعرها الشحيح الملفوف بالورق المحوي وشالها النشوقي اللون الذي يغطيها- إلى الترحيب بالمؤلفة الممتازة

بأخبار القوم الممتازين الآخرين الذين نزلوا في البسكيوني وقد يعاودون النزول فيه. وكانت نغمتها، أول الأمر، نغمة وقورًا، ولكنها - قبل أن ينقضي وقت طويل - انتقلت إلى أخبار القرية، وهنا بدأ يلوح في حديثها شيء من المرارة، إذ أخذت تذكر الوفيات بلون من الاعتزاز الحزين. وبما أنها، هي نفسها، عجوز فقد كانت ترتاح إلى التأمل في عدالة القدر الذي لم يبق على معاصريها والذي كثيرًا ما عدا على من هم أصغر منها سنًا. ولم تألف مس ريبي استخلاص مثل هذا العزاء إذ كان يسرها أكثر من هذا - وإن أخذت هي الأخرى تتقدم في السن - أن يبقى للآخرين شبابهم. وكانت تذكر جيدًا القليلين من أولئك الناس، غير أن الوفيات في نظرها كانت رمزية تمامًا مثلما قد يرمز موت زهرة إلى انقضاء الربيع بأكمله.

ثم أخذت السنيورة كانتو تسرد النوائب التي ألمت بها قبل مبتدئة بتفاصيل انهيار في الأرض أتلّف ضيعتها الصغيرة، والانهيار لا يعجل أبدًا في هذا الوادي. فتجد الماء يتجمع تحت قشرة الأرض المخضلة بالعشب، تمامًا كما قد يتكون الدمّل تحت الجلد، ثم تتكون على المرحلة المائلة كتلة، ثم تنفق تلك الكتلة وتفرغ جدولًا من الطين والحجارة بطيء الانسياب، ثم يلوح المسطح كله وقد أدركه التلف. ففي كل ناحية يتصدع الكلاّ ويزدوج على هيئة غضون غريبة الشكل، ويعوج الشجر وتنهار الأنبار (مخازن الغلال) والدور، ويتحول الجمال كله تدريجًا إلى عجينة لا سبيل إلى تمييز ما بها، وتنزلق العجينة منحدرًا حتى يكتسحها جدول ما.

وانتقلا من الضيعة إلى غيرها من صنوف الأذى التي ألمت بها، فانقبضت مس ريبي إلى درجة لم تستطع معها العطف على السنيورة كانتو. وكان الموسم سيئاً، فالنزلاء لم يفهموا أساليب الفندق، والخدم لم يفهموا النزلاء، وقد طلب إليها أن تعين أميناً للفندق ولكن ما جدوى الأمين؟

ف قالت مس ريبي مستشعرة أن أي أمين لن يستطيع إطلاقاً أن يأتي للبسكيوني بالتوفيق: «ما أستطيع أن أكون رأياً!».

- «يقولون إنه سيستقبل مركبة الركاب ويصيد الوافدين الجدد، ولكن أي سرور ذاك الذي يداخلي من نزلاء أصيدهم؟».

قالت مس ريبي في نفحة حزينة: «الفنادق الأخرى تصنع هذا».

- «بالضبط، رجل يهبط من الألب يومياً».

وخيم صمت غريب. وقد تنكبا إلى هنا ذكر هذا الاسم.

واستأنفت الكلام وهي تكاد تنفجر من الانفعال، قالت: «إنه يأخذهم جميعاً، ولدي يأخذ كل نزلائي، فلقد أخذ كل أعيان الإنجليز وأحسن الأمريكيين وجميع قدامى أصحابي الوافدين من ميلانو. وهو يفترى عليّ في كل مكان قائلاً إن المجاري سيئة، وأصحاب الفنادق لا يدلون النزلاء عليّ بل يحولون عليه هو من نريد منهم، ذلك لأنه ينقدهم خمسة في المائة مما يدفعه كل واحد يرسلونه إليه. وهو يرشو السائقين والبوابين والأدلاء كما يرشو الفرقة الموسيقية لكيلا تعزف - تحت - في القرية إلا لمأماً. وهو يمعن في الرشوة فينقد الصبيان لكي يذيعوا أن مجاري فندقني

سيئة، وإنما يقصد، هو وزوجه وأمين فندقه، إلحاق الخراب بي. وإنهم
ليتمنون موتي».

وأخذت مس ربيبي تجول في الحجرة وتنطق - على عاداتها - بما
هو حق أكثر مما تنطق بما هو واضح. قالت: «كلا لا تتحدثي في هذه
الأشياء يا سنيورة كانتو، وحاولي أن تخففي من غضبك على ولدك،
فأنت لا تعرفين ماذا عليه أن ينافس ولا تعرفين من الذين دفعوه إلى هذا.
وقد يكون غيره من يستحق اللوم. وستذكرينهم في صلواتك كائنين من
كانوا».

فهتفت العجوز الغاضبة: «أنا مسيحية بطبيعة الحال! غير أنه لن
يستطيع أن يلحق بي الخراب. نعم، أنا أبدو فقيرة ولكنه اقترض فوق
طاقته، وسيفلس فندقه!».

واستأنفت مس ربيبي الكلام قائلة: «قد لا يوجد في الدنيا شر كثير،
وإن أغلب ما نرى منه ليس إلا نتيجة لأخطاء صغيرة مصدرها الغباء أو
الغرور».

«بل إنني أعلم من الذين دفعوه إلى هذا: زوجته والرجل الذي أصبح
الآن أمين فندقه».

«وهذه العادة، عادة الكلام والتعبير عما في نفس المتكلم، تبدو
مريحة ولا سبيل إلى الاستغناء عنها... ولكنها تضر...».

وقطعت حديثهما جلبة آتية من الشارع، وفتحت مس ربيبي النافذة
فدخلت منها سحابة من تراب مثقلة بالبنزين، إذ إن سيارة احتكت في

أثناء مرورها بإحدى الموائد وأريق كثير من البيرة وقليل من الدم.

وتنهدت السيدة كانتو متبرمة من الجلبة، وقد أضناها سوء حالتها النفسية فرقدت فاقدة الحركة مطبقة العينين. وخشخشت فوق رأسها في رفق - مع لفحة الريح المفاجئة - آنيان من نحاس. وأوشكت مس ربيي أن تنطق باعتراف دراماتيكي عظيم وأن تتوسل توسلات مؤثرة ابتغاء الصفح. وكانت كلماتها جاهزة، وهي كذلك دائماً. ولكنها نظرت إلى هاتين العينين المطبقتين وإلى هذا الإطار المعذب الموهن ثم عرفت أنها ليست في حل من أن تحظى بنعمة الصفح.

وخيل إليها أن حياتها - بهذه المواجهة - قد انتهت. لقد صنعت كل ما أمكنها صنعه، لقد صنعت شراً كثيراً ولم يبق لها إلا أن تطوي يديها وتنظر حتى يتخذ قبحها وعجزها سبيلهما إلى الجمال والقوة. وطلع أمام عينيها الوجه البهيج للعميد ليلند الذي قد تخطم معه أيامها بسلام. نعم إنه لن يكون مثيراً ولكن لم يبد أنه لإثارته أية أهمية. والخير في أن تتوقف مواهبها إذا أخذ نشاط عقلها الخالي من المعنى ونشاط لسانها في التبلد التدريجي وراودتها - أول مرة في حياتها - الرغبة في أن تصبح عجوزاً.

وكانت السنيورة كانتو لا تزال تتحدث عن زوج ابنها وأمين فندقه وعن سوقية الأولى وجحود الثاني الذي أحسنت إليه من قديم عندما جاء من إيطاليا صبيّاً نكرة هائماً على وجهه، لقد عادها الآن، هذا جزاء الإحسان.

واستفهمت مس ربيي شاردة الذهن: «وما اسمه؟».

فأجابت: «فيو جينوري. ليس في استطاعتك تذكره. لقد اعتاد أن يحمل...».

وانفجر من برج الجرس طوفان من الصوت استجابت له الأواني النحاسية بالاهتزازات، ورفعت مس ربيي يديها، لا إلى أذنيها بل إلى عينيها. وفي حالتها الموهنة كان لنغمات الجرس الخفاقة تأثير عجيب كالذي يحدثه الدم يجري في العروق المتجمدة.

وقالت آخر الأمر: «أتذكر هذا الرجل أيّما تذكر وسأراه عصر اليوم». جلست مس ربيي وإليزابث معاً في بهو فندق الألب، وقد مشتا إليه مصعدتين من البسكيوني لتلقيا العميد ليلند، واتضح أنه مشى منحدرًا إلى هناك ليلقاهما، فلم يسعهما إلا الانتظار وإلا أن تبررا هذا الانتظار بطلب شيء منعش. وعلى هذا تناولت مس ربيي شاي العصر، بينما تصرفت إليزابث تصرف السيدة الكاملة وطلبت حليياً مثلوجًا. وكانت كلما آنست أن أحدًا لا يراها تقلب الملعقة في فيها بطنًا لظهر. وأخذ مساعدو النُدل يرفعون الأقداح والأكواب من فوق الموائد المغطاة بالمرمر، كما أخذ الموظفون - الذين تحليهم الأشرطة الذهبية - يعيدون تصفيف الكراسي المصنوعة من القش في تجمعات بديعة ثلاثية أو ثنائية. وتلكأ الزبائن هنا وهناك بين ما خلفوا من فتات، ونام الأمير الروسي في وضع ظاهر مستهجن. وكان أغلب الناس قد انصرفوا إلى نزهة قصيرة على الأقدام في فترة ما قبل العشاء أو إلى ملاعب التنفس أو حملوا كتبًا يقرأونها تحت الشجر. وكان الجو مبهجًا والشمس آخذة في الزوال بحيث أمسى ضوءها روحانيًا يوحى بمادة جديدة ولون جديد على كل

شيء يقع عليه. وتسنى لمس ريبي من مقعدها أن ترى المهاوي الكبيرة التي مرّا من تحتها في اليوم البارح كما استطاعت أن ترى - على مبعده من تلك المهاوي - إيطاليا: وادي أبريلي.. وادي سينيز... والجبال التي أسمتها «دواب الجنوب»، وكانت هذه الجبال لا يؤبه لها طوال النهار، كأنها قطع نائية من الحجر الأبيض أو الرمادي، غير أن شمس الأصيل بدلت من هيئتها فبدت تنتصب كالديبة الأرجوانية تلقاء السماء.

- «حرام ألا تخرجي للنزهة يا إليزابث. فثشي عن صديقتك إذا استطعت واحملها على الخروج وإياك، وإذا رأيت العميد ليلند فخبره أنني هنا».

- «أهذا كل شيء يا سيدتي؟». كانت إليزابث مغرمة بسيدتها الغربية الأطوار، وقد ألان الحليب المثلوج قلبها، فبدت لها مس ريبي سقيمة، ومن المحتمل أن يكون تيار الحب قد شق مجراه في عنف. ولا ريب في أنه تنبغي للمهذبين معاملة لبقة ولا سيما عندما يكون الطرفان منسجمين.

- «لا تعطي الأطفال بنسات، هذا هو الشيء الآخر الوحيد».

غاب الأضياف عن النظر، وتجلّى أن عدد الموظفين نقص نقصًا كبيرًا وطلع من البهو الخلفي الهانفان^(١) اللذان هما أخس مخلوقين وهما شابة وراء المكتب وشاب يلبس الفراك (سترة رسمية سوداء لها ذيل) يقود القادمين الجدد إلى غرفهم، ولحق بهما بعض الحمالين ووقفوا على بعد مناسب. ولم يبق في البهو - آخر الأمر - غير مس ريبي

(١) الهانف: من يضحك في استهزاء.

والأمير الروسي وأمين الفندق. وكان الأمين أوروبياً كفوًّا في نحو الأربعين من العمر، يتكلم كل اللغات في سهولة ويتقن بعضها، وهو لا يزال نشيطاً، وكان في يوم ما مفتول العضلات فيما يبدو. غير أن معيشته وسنه لم ينصفا قوامه، وسيصبح - يقيناً - بدينًا بعد سنوات قلائل. وكان التعرف على وجهه أقل سهولة، إذ قد شغله عن الاهتمام بنفسه أداء واجبه على الوجه الأكمل، ولم يكن ذلك الوقت وقت الكشف عن النفس. وقد توزع جهده بين فتح النوافذ وملء علب الكبريت وتنفيذ المناضد الصغيرة بفوطة، على ألا يغفل هنيهة عن مراقبة الباب، لعل أحدًا أن يصل من دون أمتعة أو أن يخرج من دون أن يسدد الحساب. ومس جرسًا صغيرًا فخف أحد الندل ورفع معدات الشاي الذي شربته مس ربيي. ومس جرسًا آخر وأرسل تابعًا يجمع قصاصات الورق التي ألقي بها من نافذة إحدى غرف النوم. ثم قال: «معدرة يا سيدتي!» ولقط منديل مس ربيي في انحناءة احترام بسيطة. وبدأ أن انتقالها المفاجئ من هذا الفندق في الليلة البارحة لم يُحفظ صدره عليها، وذلك إما لأنها نفحته إذ ذاك بحلوان وإما لأنه لا يتذكر أنها كانت هناك.

أما الإيماءة التي بها أعاد إليها المنديل فقد ضايقته بذكريات غامضة، وقبل أن تشكره عاد إلى فتحة الباب ووقف مجانبًا بحيث ظهر إجمالاً في المنظر العام خط تقوس معدته البسيط. وكان وقتئذ يحدث شابًا رياضيًا مكتئبًا يتبرم في الرواق بالخارج، وقد سمعته يقول له: «طالبتك بالنسبة المئوية، ولو أنك أذعنت لأوصيت بك خيرًا، أما الآن فقد ضاعت الفرصة، ولديَّ ما يكفي من الأدلاء».

على أن سخاءنا يفيد من الناس أكثر ممن نقدر، فنحن ننفع سائق المركبة بحلوان وهو يعطي شيئاً إلى الرجل الذي يصفر لاستدعائه، وننفع الرجل الذي يضيء كهف الرواشح^(١) بسلك من المجنيزيوم وهو يعطي منه شيئاً إلى البحار الذي يوصلنا إلى هناك، وننفع نادل المطعم بحلوان. وإن نظاماً عظيماً هكذا يقتطع بعضه من كرائه - لا نكاد نحن نفطن إلى وجوده - هو الذي يهيئ لتوزيع ثرواتنا. ولما عاد أمين الفندق استفهمت منه مس ريبى: «وما مقدار النسبة المئوية؟».

ولقد استفهمت منه عن ذلك عامدة متعمدة أن تربكه، لا لقسوته بل لأنها تود أن تستبين المناقب - إن وجد منها شيء - التي تكمن وراء ذلك الذي يبدو في مظهره أنيساً هماً. وكانت تدفعها إلى هذه العاطفة أكثر مما يدفعها البحث العلمي.

ولو كان هذا الرجل متعلماً لأفلحت في محاولتها إذ إنه، في إجابته، لا بد من أن يفصح بعض الإفصاح، ولكن ليس ثمة ما يدعوا أمين الفندق إلى أن يزجي للمنطق خدمة شفوية، ولذا أجاب عن سؤالها بقوله: «أجل يا سيدتي هذا طقس مناسب جداً سواء لزوارنا أو للدارس» وخف من فوره إلى عون مطران كان يتخير بعض بطاقات البريد.

وبدلاً من أن تتحدث مس ريبى عن الأخلاق في صدد مكر الطبقات الدنيا، اعترفت بالهزيمة، وذلك بعد أن رقت الرجل يبسط البطاقات، معيئاً في غير إزعاج يقطاً في احترام، ومراقبته وهو يحمل المطران أن يشتري منها أكثر مما كان يبتغي. هذا هو الرجل الذي حدثها فوق الجبل

(١) المقصود هنا الرواسب الكلسية المدلاة من سقوف بعض المغاور والكهوف بأشكال مخروطة.

عن الحب. غير أنه لم يكشف حتى ذلك الوقت عن شخصيته إلا اتفاقاً بمقتضى حركات انتقلت إليه بالوراثة. وإن معاملة الطبقة المهذبة لتقتضي إبراز مناقب جديدة كالرقة والإلمام بشتى الأمور ورباطة الجأش. وكانت الإجابة القديمة فحواها أن الطبقة المهذبة هي المسؤولة وأن تحمل تبعة أخطاء الغير واجب يجدر السعي إليه.

ولا محل لمؤاخذة فيو على كلفه بالدنيا وتبذله الفطري فهو لم يصنع نفسه. ولا محل أيضاً للأسف على تحوله من القوام الرياضي إلى البدانة المكتنزة الشحم، ولا على خصلة الشعر السوداء، التي تتحوى دون موضع القبلات منه ولا على شاربه الشمعي، ولا على ذقنه التي تغور ثم ينتشر، وفي إنجلترا منذ نحو عشرين سنة غيرت من هذا الشكل كما غيرت شخصيته أيضاً، إذ إنه كان واحداً من شخصيات «اللحظة السرمدية».

وتسلط عليها حنان عظيم وكآبة عميقة واشتعل من جديد ذلك التطلع الملح إلى الاعتراف الذي كتبه في ذلك الصباح بجوار فراش السنيورة كانتو. فلما انصرف المطران استأنفت الحديث وإن وجهته وجهات أخرى. قالت: «أجل، الجو جميل، وأنا آتية لتوي من نزهة ممتعة على قدمي من البسكيوني الذي أقيم فيه!».

ولما رأى أنها ترحب بالحديث أجاب مسروراً، بقوله: «لا بد من أن يكون البسكيوني فندقاً ظريفاً جداً، وكثيرون هم الذين يطرونه، والتصاوير التي على جدرانها بالغة الجمال». لقد كان أدهى من أن يضمن بصدقة زهيدة.

فقال مخفضة صوتها لكيلا توقظ الأمير الذي يثقل حضوره عليها بصورة عجيبة: «ما أكثر عدد الفنادق الجديدة هنا!».

- «أجل يا سيدتي، أعتقد ذلك يقينًا. وعندما كنت صبيًا - عفوك - لحظة واحدة».

وأنت فتاة أمريكية - وفدت حديثًا على المنطقة - ويدها مليئة بالعملات الأجنبية وسألته يائسة عن «قيمتها كائنة ما كانت»، فأفهمها ونقدها البديل. على أن مس ريبي لم تستوثق من أنه أعطاها القدر المضبوط.

- «عندما كنت صبيًا» وقطع حديثه مرة أخرى ليخف إلى تخلص ضيفين راحلين. نفحه أحدهما بحلوان فقال: «شكرًا»، ولم ينفحه الثاني فقال كذلك: «شكرًا»، ولكن بنغمة أخرى، وكان واضحًا أنه، إلى هنا، لم يتذكر مس ريبي.

- «وعندما كنت صبيًا كانت فورنا بقعة صغيرة».

- «ولكنها بقعة مبهجة؟».

- «مبهجة جدًّا يا سيدتي».

فقال الأمير الروسي الذي صحا فجأة وأفزعهما كليهما «أف»، وخط على قبعته المصنوعة من اللباد، وزايل في أقصى سرعة يستطيعها شخص يمارس الرياضة البدنية، وترك مس ريبي وفيو وحدهما.

وكان ذلك هو الوقت الذي فيه توقفت عن التردد وأزمنت تذكيره بأنهما تقابلًا من قبل، ولقد كانت طوال اليوم تتلمس شرارة من الحياة

لعلها تذكرها بشيء عن النار الأخرى التي شهدتها هي، منذ ذلك العهد البعيد، سامقة فوق جبل الشباب. ولم تعرف ما عساه أن يصنع إذ شهدها هو أيضاً. غير أنها أملت أن يحيا وأن يفلت - على أي حال - من المصير العام الذي أعدته من قبل للمكان والناس. وهي لم تفكر في شيء ما حتى فيما قد تصنعه خلال تأملهما المشترك.

على أنها لم تكن لتجرؤ على العود إلى الذكريات لولا أن الآلام التي كابدها طوال اليوم جعلتها تقوى على ذلك. واصطناع اللياقة بعد الألم الكثير تبعث على الضحك. وكان عليها فقط أن تتغلب على مشكلة كون فيو رجلاً لا على مشكلة كونه أمين فندق. وهي لم تنتبه قط إلى ذلك الاستعلاء على من هم أدنى اجتماعياً، الذي كان شائعاً في الوقت الحاضر.

فقالت في جسارة: «هذه زيارتي الثانية، فلقد نزلت في البسكيوني منذ عشرين سنة».

فظهرت عليه أولى أمارات الانفعال لأن هذه الإشارة بالذات إلى البسكيوني ضايقته.

واستأنفت مس ربيبي الكلام قائلة: «قالوا لي إنني أستطيع أن أجدك هنا. وأنا أتذكرك جيداً، فلقد كنت تقودنا إلى المعابر».

وتعمدت مراقبة وجهه الذي لم تكن تتوقع له أن يسترخي في ابتسامة عريضة، وقال وهو يرفع قبعته المستدقة: «آه، أتذكرك تماماً يا سيدتي، وإنني لأقول - إذا سمحت لي - ما أكبر سروري بلقائك مرة أخرى».

فأجابت السيدة وهي تنظر إليه مرتابة: «وأنا مسرورة كذلك».

- «كانت معك يا سيدتي - سيدة أخرى، الأنسة...».

- «السيدة هاربوتل».

- «ولكن تثبتي أقول لك إنني حملت أمتعتكما. ولطالما ذكرت فضلكما».

ورفعت بصرها إلى أعلى، وكان هو واقفًا إلى جوار نافذة مفتوحة، وامتدت من خلفه أرض الجن جميعًا وخانها التعقل فقالت متوددة: «هل تسيء فهمي إذا قلت لك إنني - أنا أيضًا - لم أنس فضلك قط؟».

فأجاب: «الفضل فضلك أنت يا سيدتي، أما أنا فلم أزد على أداء واجبي».

فهمت: «واجب؟! وما شأن الواجب?!».

- «أنت ومس هاربوتل كنتما آية في الكرم، وإنني لأتذكر جيدًا كم كنت معترفًا بجميلكما إذ كنتما دواءً تنفحاني بما يزيد على (التعريف) المحدودة...».

وهنا أدركت أنه نسي كل شيء: نسيها هي، ونسي ما حدث، بل نسي حاله صغيرًا.

وقالت في برود: «أمسك عليك تأدبك، أنت لم تكن مؤدبًا عندما رأيته آخر مرة».

فانزعج فجأة وصاح قائلاً: «آسف كل الأسف».

- «استدر وانظر إلى الجبل».

- «نعم نعم»، ورمشت عيناه الماكرتان في اضطراب، وأخذ يتسلى بسلسلة ساعته الراقدة في أخذود بصدرته، وجري لينذر بضعة أطفال يرتدون ملابس رثة كي ينجلوا عن الشرفة المطلة على المنظر الجميل. وعندما عاد كانت لا تزال مصرة على ما سبق.

وقالت في نغمات كنغمات أصحاب الأعمال: «ينبغي لي أن أخبرك، انظر إلى الجبل العظيم الذي تحيط به الطريق هابطة إلى الجنوب، انظر إلى منتصف أعلى المسافة من الجانب الشرقي حيث توجد الأزهار، ذلك هو المكان الذي فيه بحت بسرك».

وفغرفاه من الرعب.. وتذكر.. وعصره الفزع.

وكانت تلك هي اللحظة التي عاد فيها العميد ليلند، فمشت إليه قائلة: «هذا هو الرجل الذي تحدثت عنه أمس».

فأجاب العميد ليلند في شيء من الجلبة: «طاب مساؤك، أيّ رجل؟» ورأى في وجهها حمرة الاهتياج وخلص إلى أن شخصاً ما قسا عليها. وبما أن العلاقة بينهما تكاد تكون غير عادية، فقد زاد اهتمامه بأن تحاط بمظاهر الاحترام.

- «الرجل الذي أحبني وأنا صغيرة».

فصرخ فيو البئيس وقد فطن لتوه إلى الشرك الذي أُلقي عليه. قال: «هذا غير صحيح، وهو من نسج خيال السيدة، وأقسم على ذلك، أنا لم أقصد شيئاً، كنت وقتئذ صبيّاً، وذلك قبل أن أتعلم حسن التصرف،

ووصل بي الحال إلى حد أنني نسيته، وهي التي ذكرتني به وأزعجتني».

فقال العميد ليلند: «يا إلهي! يا إلهي!».

– «سأطرد من عملي يا سيدتي، ولي زوجة وأطفال، سيخرب بيتي».

فصاح العميد ليلند: «كفى، إنها لا تبتغي إخراج بيتك أيًا كان مرامها».

وقالت مس ربيي مترفقة: «لقد أسأت فهمي يا فيو».

وقال العميد ليلند في نغمات راجفة كان يريد لها أن تكون فاترة: «لقد كان سوء حظنا كبيرًا لافتقار كل منا صاحبه، هلا تمشيننا قليلًا قبل العشاء؟ أرجو أن تكوني باقية».

غير أنها لم تلق إليه بالها إذ كانت ترقب فيو، وكان روعه قد هداً وأبان عن عاطفة جديدة لعلها كانت أقل وقعاً لديها. فلقد تخشب منكباه، وتكشف ثغره عن ابتسامة لا سبيل إلى مقاومتها، ولما رأى أنها تنظر إليه وأن العميد ليلند ينظر إليها غمزها بطرف عينه.

كان هذا مشهداً شاحباً، ولعله أبعث الأشياء التي رأتها في فور تا على الانقباض الموءس، ولكن تأثيره عليها كان مشهوداً، فلقد أعاد أمام عينيها هيئة ذلك الرجل نفسه كما عرفتْها منذ عشرين سنة، إلى حد أنها استطاعت أن تتذكر أدق التفاصيل عن ملبسه وشعره والزهر في يده والكشط على معصمه والحمل الثقيل الذي أطلقه من فوق كتفيه لكي يستطيع الكلام مثلما يفعل الرجل الطليق، كما استطاعت أن تسمع صوته، لا متوقعًا ولا خفراً، لا متوعداً قط ولا معذراً. بدأ يستحثها أول الأمر بالعبارات

المعدة التي حفظها عن الكتب، فلما تغلغل هيامه بها أخذ يصيح، في عبارات مفككة غير متصلة، بأنه ينبغي لها أن تصدقه وأن تبادله حباً بحب وأن تطير وإياه إلى إيطاليا حيث يعيشان إلى آخر العمر في سعادة وشباب مقيمين. وعندئذ صاحت كما يجدر بسيدة في ريعان الشباب أن تصنع وشكرته على عدم إهانتها إياها. أما الآن- وهي في أواسط العمر- فقد صاحت مرة أخرى، ذلك لأن الصدمة المفاجئة والتباين أنارا بصيرتها، فزعقت قائلة: «لا يدورنّ بخلدك أنني الآن كلفة بك».

ومرد ذلك إلى إدراكها أنها، الآن فقط، لا تغرم به وأن الحادثة التي جرت فوق الجبل كانت إحدى اللحظات العظيمة في حياتها وربما أعظمها جميعاً وأطولها استدامة من دون ريب، وأنها استنبطت منها وحيّاً وقوة من حيث لا تدري، تماماً مثلما يستنبط الشجر حيويته من نبع تحت سطح الأرض. ولم تعد تحسبها- بعدُ على الإطلاق- شبه قصة استطردية في تطور حياتها. وإن ما وجدته فيها من حقيقة ليفوق ما لقيته في سنوات نجاحها مجتمعة وفي شتى الأعمال الكبيرة التي فعلتها والتي كان من شأن تلك الحادثة أن تمهد لها. ومع كل ما توفرت عليه من حسن السلوك ومظاهر السيدات النبيلات فقد أحبت فيو ولم تحب بعده أبداً بمثل تلك الدرجة. ولقد قادها فتى جسور إلى أبواب الجنة وإن لم تدخلها وإياه. على أن ذكرى هذا المشهد السرمدية جعلت حياتها تبدو محتملة طيبة.

وأخذ العميد ليلند، الذي جاورها، يثرثر بعبارات يحاول بها أن يجعل الموقف يبدو مألوفاً، وذلك بقصد أن يخلصها لأنه يعزها كثيراً

ولأنه يتألم كلما تردت هي في الحماقة. غير أن ملاحظتها الأخيرة أفرغته فبدأ يفكر في أنه ينبغي له أن يخلص نفسه. على أنهما لم يمسيا الآن وحدهما إذ إن سيدة المكتب والسيد الشاب حبسا أنفاسهما وتعمدا الإصغاء. ثم إن الحمالين أخذوا يضحكون خلصة لإخفاق رئيسهم. وأذاعت سيدة فرنسية بين الأضياف الخبر السار بأن إنجليزيا باغت زوجه وهي تغازل أمين الفندق. وفي الشرفة الخارجية لوحت أم لبناتها كي تنصرفن بعيدا بينما كان المطران يستعد لنزهة على قدميه.

غير أن مس ربيبي تناست ذلك كله وقالت: «ما أقل ما أعرف! أنا لم أعرف قط حتى هذه اللحظة أنني أحببته ولم أعرف أن الصدفة وحدها- أو ربما الخدعة البسيطة أو المعقدة- هي التي لم تجعلني أبوح له بذلك على الإطلاق».

وكان من عادتها أن تجهر بالقول، ولم توجد وقتئذ عاطفة تقلقها أو تمنعها، وكانت لا تزال ساهمة تستعيد ذكرى نار فوق الجبال وتستغرب إشراقها وإن جعلها طول العهد أبعد من أن تحس حرارتها. ويجهرها بالقول اعتقدت- يحركها قبس من عاطفة- أنها تسهل للناس فهمها. وبدأت ملاحظتها للعميد ليلند فظة إلى حد يفوق الوصف.

واستأنفت الكلام مخاطبة فيو الذي فقد في تلك اللحظة كياسته وبدأ يرتبك. قالت: «ولكن تلك الأفكار الحلوة شيء عقيم أليس كذلك؟ وهي لا تكاد تكفي لأن يشيخ المرء عليها. وأظن أن من الخير أن أتنازل عن كل ما أوتيت من خيال وبراعة حديث لو تسنى لي فقط استرداد حقيقة فجة واحدة أو أمكنني تعويض شخص واحد حطمته».

فلبى قائلاً وعيناه مطبقتان: «هو ذاك يقينًا يا سيدتي».

- «لو أنني وسعني فقط أن أجد هنا شخصًا يفهمني، وأستطيع أن أعترف أمامه لأصبحت أسعد حالًا فيما أظن... لقد صنعت شرًا كثيرًا في فورتا: فيو أيها العزيز...».

ورفع فيو بصره، وضرب العميد ليلند بعصاه الأرض المصنوعة من القوالب الخشبية المصقولة (الباركيه).

- «وفكرت آخر الأمر في أن أتحدث إليك لو أمكنك فهمي... أنا أتذكر أنك كنت معي - في يوم ما - ودودًا جدًّا.. ولست أجد كلمة أخرى أنعتك بها، غير أنني سبق لي أن أسأت إليك أنت أيضًا، فكيف إذن تستطيع فهمي؟».

وقال أمين الفندق - وقد أفاق قليلًا بعد أن أزمع قبل هذا وضع حد لذلك الموقف المجزع الذي عرض سمعته للخطر والذي فيه لم يُنهض كبرياؤه إلا ليُصدم، قال: «أفهم تمامًا يا سيدتي، ولكن الذي أخطأ هو أنت، وأنت لم تلحقي بي ضررًا على الإطلاق بل، على العكس، أفتنتي». فرد الكولونيل ليلند قائلاً: «بالضبط. هذا قصارى الأمر جميعًا لأن مس ربيبي هي صانعة فورتا».

- «تمامًا يا سيدي، إذ إنه بعد صدور كتاب السيدة وفد الأجانب، وبنيت الفنادق، وأصبحنا نحن أكثر يسرًا... عندما جئت إلى هنا أول مرة كنت حملاً وسوقيًا جهولاً يحمل الأمتعة عبر المعابر، وجاهدت، وأوجدت الفرص، وجاملت السياح، أما الآن!...»، وكبح نفسه فجأة ثم

استطرد يقول: «أما الآن فأنا لا أزيد على كوني رجلاً فقيراً، وزوجتي وأولادي...».

فصاحت مس ربيي وقد رأت فجأة سبيلاً للخلاص، قائلة: «أطفال! كم لديك من الأطفال؟».

فأجاب في غير حماسة: «ثلاثة صبية صغار أعزاء».

- «وكم عمر أصغرهم؟».

- «خمس سنوات يا سيدني».

فقالت في نغمة مؤثرة: «دعني آخذ الطفل، وسأربيه، سيعيش بين قوم أغنياء، وسوف يرى أنهم ليسوا- كما يزعم- بالمخلوقات الخسيسة، التي تصخب دواًمًا ابتغاء احترام الناس لها ورعايتهم إياها، أو التي تحاول شراءهم بالمال. إن الأغنياء أناس طيبون يقدرّون على إزجاء العطف والحب ويولعون بالصدق. وإذا تجمعوا أنتجوا. سيتعلم ولدك هذا وسيحاول أن يعلمك إياه، فإذا كبر- وأراد الله به خيراً- فلسوف يعلم بدوره الأغنياء. سوف يعلمهم ألا يكونوا حمقى مع الفقراء.. وأنا حاولت ذلك شخصياً. والناس يشترون كتبي ويقولون إنها قيّمة، ويتسمون ثم يتركونها، ولكني أعرف الحكمة التالية: ما بقيت الحماقة فإن العقم لن يقصر على الصدقات والإرساليات والمدارس بل يتعداه إلى مدينتنا كلها».

وشق على العميد أن يصغي إلى عبارة كهذي، فقال بالفرنسية محاولاً مرة أخرى إنقاذ مس ربيي: «أرجوك ألا...» بدأ هذه العبارة في خشونة ثم

توقف إذ تذكر أن أمين الفندق لا بد من أن يكون ملماً بالفرنسية، إلا أن فيو لم يكن ملقياً باله لا إلى ليلند ولا إلى نبوءات السيدة؛ ذلك أنه كان يسائل نفسه هل يستطيع أن يقنع امرأته بتسليم الغلام، وإذا استطاع فكم من المال يحق لهما أن يطالبا به مس ربيبي من دون أن يصداهما.

ثم استطردت تقول: «وسيكون ذلك هو كفارتي، هذا إذا وسعني أن أصنع بعض الجميل في المكان الذي ارتكبت فيه شرًا كثيرًا. ولقد سئمت الذكريات ولو أنها كانت جميلة. والآن أريدك يا فيو على أن تعطيني شيئًا آخر وهو ولد حي. سأحريك دواءً ولكني ما أستطيع الهروب من ذلك. ولقد تبدلت أنا كثيرًا منذ لقائنا الأول وبدلتك أنت أيضًا. وأصبحنا الآن - كلانا - شخصين جديدين. تذكر هذا لأنني أود أن أسألك سؤالاً واحدًا قبل أن نفترق. ولست أرى ما يمنعك عن الإجابة عنه.. يا فيو، أريدك على أن تلقي إليّ بالآ».

فقال أمين الفندق وهو يوقظ نفسه من التخمينات التي كانت تدور في خلدته: «عفوًا يا سيدتي هل هناك ما أستطيع صنعه من أجلك؟».

- «أجب بـ (لا) أو (نعم) في ذلك اليوم الذي قلت لي فيه إنك تحبني، هل كان هذا صحيحًا؟».

هل يستطيع الإجابة، وهل يتذكر الآن أي شيء عن ذلك اليوم إطلاقًا، كل هذا كان محل شك. ولكنه لم يجتهد في أن يجيب إذ رأى مرة أخرى أن تهديدًا يوجه إليه من امرأة قبيحة ذابلة في منتصف العمر تحاول أن تعوض سمعته وسلام أسرته، فانكمش في اتجاه العميد ليلند وقال متهدج الصوت: «لا بد من أن تعذريني يا سيدتي، وأولى لك ألا

تلقي امرأتي فهي عنيفة. إنك كريمة جدًا في صدد ولدي ولكن، لا يا سيدتي، إنها لن تسمح بذلك».

فزق العميد وقام بحركة هجوم تتسم بالبطولة قائلاً: «لقد أهنت السيدة». وسمعت من البهو الخلفي صيحات فزع وترقب، وجرى أحدهم يطلب المدير.

واعترضت مس ريبى قائلة: «لن يحسبني محترمة بعد الآن». ونظرت إلى فيو الأشعث البدين العرق المنفر وابتسمت في اكتئاب لحماقتها هي لا لحماقته. ووجدت أن من العبث التحدث إليه من جديد إذ إن حديثها قد نفص عنه اقتداره وأدبه ولم يكذب يبقى له شيئاً كما أنه لم يكذب يترك له من صفات الإنسان أكثر مما لدى أرنب مروع. وتمتعت قائلة: «يا لتعاسة هذا الرجل، فلقد أغضبته ولم أصنع شيئاً. ولكن كان بودي أن يعطيني الغلام كما كان بودي أن يجيبني عن سؤالي ولو من قبيل الشفقة. إنه لا يعرف نوع الشيء الذي يقيني على قيد الحياة». وكانت وقتئذ تنظر إلى العميد ليلند فكشفت عن أنه قد انزعج كذلك. وكان من خصائصها أنها تقبل بكليتها على الشخص الذي تتحدث إليه وتنسى أشخاص السامعين: «لقد أغضبتك أنت أيضاً، ما أشد حماقتي!».

فقال العميد ليلند متجهماً: «لقد جاء وقت التفكير في أمري متأخراً».

وتذكرت الحديث الذي دار بينهما بالأمس وأدركت فحواه من فورها. غير أنها لم تعن بأن تسوق إلى العميد تعليلاً مقنعاً كما أنها لم تكن له في نفسها العطف والحنان، ولكن أمامها هنا رجل حسيب مثقف أوتي كل الأشياء التي يسمونها مزايا، يحسب أنه يتمتع بأكبر

قسط من البصيرة والتهذيب والخبرة بالجنس البشري، وقد وضع نفسه في المستوى الاجتماعي مع رجل عاطل من المزايا، فقير، تردى في السوقية، قوضت الظروف ما توفر عليه صغيراً من فضائل وتلاشت شهامته في خدمة الأغنياء.

وإذا كان العميد ليلند قد اعتقد كذلك أنها ما تزال تحب فيو، فإنها لا تكلف نفسها عناء إظهاره هو على الأمر ولا يتراءى لها أن ذلك يمكن تحقيقه.

وصدر عن الوادي - الذي أخذ الظلام يغشاه - أول نغم ترنمي قوي من برج الجرس. فانصرفت عن الرجال متجهة إليه تغمرها عاطفة من الحب. غير أن ذلك اليوم لم يبلغ نهايته قبل أن يخيب كل أمل. فلقد استحث الصوت فيو على الكلام. ولما عكست الجبال الأصوات قال: «أليس هذا من سوء الحظ يا سيدي؟ لقد ذهب أحد السادة في هذا الصباح ليشاهد برجنا الجديد الجميل وتراءى له أن الأرض تنزلت من تحته وأن البرج ساقط لا محالة... على أن الضرر لن يدركنا هنا بطبيعة الحال».

ولم يذهب كلامه عبثاً، إذ إن المشهد العاصف انتهى إلى نهاية هادئة فاجئة، وقبل أن يتنبهوا ناولت مس ربيبي البديكر (دليل سياحي) وتركتهم دون أن تأتي بحركة تنم على الأسى. وفي لحظة الإخفاق التام هذي، أفاء القدر عليها بما واساها وأثلج صدرها: رأت صورة كاملة لحياتها، وأنها عاشت عيشاً حقق لها ما كانت تصبو إليه، وأحست بأنها انتصرت على الخبرة والأمور الدنيوية انتصاراً باهراً رصيناً يكاد يفوق طاقة البشر ولا

يستطيع أحد غيرها أن يتصور حدوثه على الإطلاق. وأطلت تحتها من الشرفة على ما في الوادي من جمال آخذ في الزوال صائر إلى العفاء... ومع أن هذا لم يقلل من حبها له فقد تبدى لها الوادي بعيداً بعداً لا نهائياً كأنه واد في نجم من النجوم، ولو حدث أن أصواتاً عطوفة نادتها من الفندق لما عادت. ثم فكرت: «أظن أن هذا هو التقدم في السن، وما أحسبه مروّعاً إلى أقصى الحدود».

ولكن أحداً لم ينادها، وقد ود العميد أن يفعل لعلمه أنها تعسة لا محالة، ولكنها بالغت في إيذائه، ثم إنها أظهرت رجلاً من طبقة أخرى على أفكارها ولباناتها، وذلك لم يزل بمقامها وحدها، بل كذلك بمقامه هو ومقام أضرابه، وكشفت للغير عن تجردهم.

ودخل القوم ليرتدوا لباس العشاء وللإستماع إلى الفرقة الموسيقية، وهجم سيل من الخدم المتحمسين - خارجين من البهو، تغص بهم الردهة كما قد يغص المسرح بمساعدي المغنين للأوبرا - معلنين قدوم المدير. وكان من المستحيل التعلل بأن شيئاً ما لم يحدث.. ستكون الفضيحة جسيمة ولا بد من التقليل من شأنها على أحسن وجه مستطاع. ومع أن العميد ليلند ينفر غاية النفور من لمسه الناس، فقد أمسك بفيو من ذراعه ثم رفع إصبعه في سرعة إلى جبينه.

فهمس أمين الفندق: «تماماً يا سيدي، أشكرك يا سيدي، أشكرك كثيراً جداً، أشكرك كثيراً جداً بكل تأكيد!».